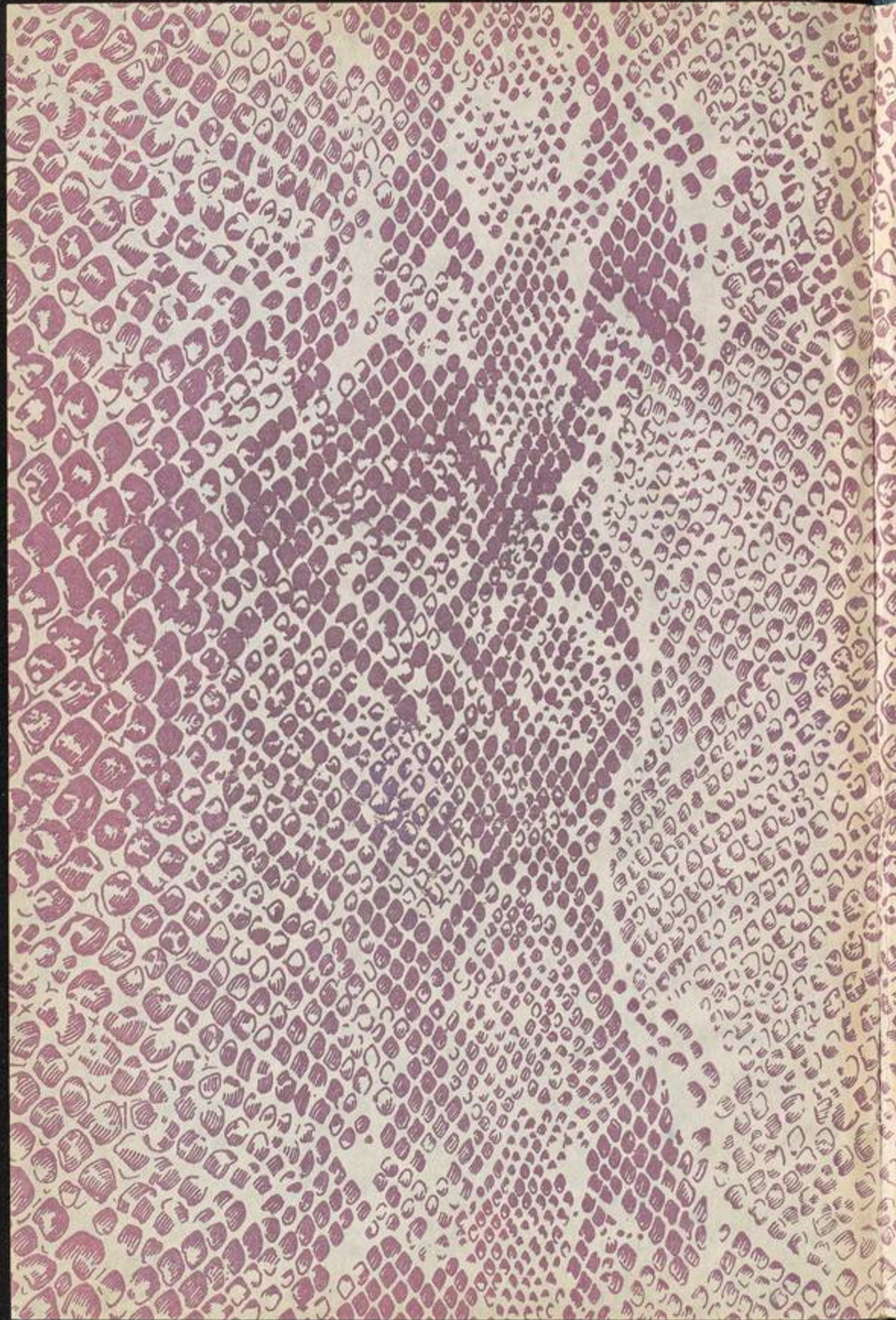
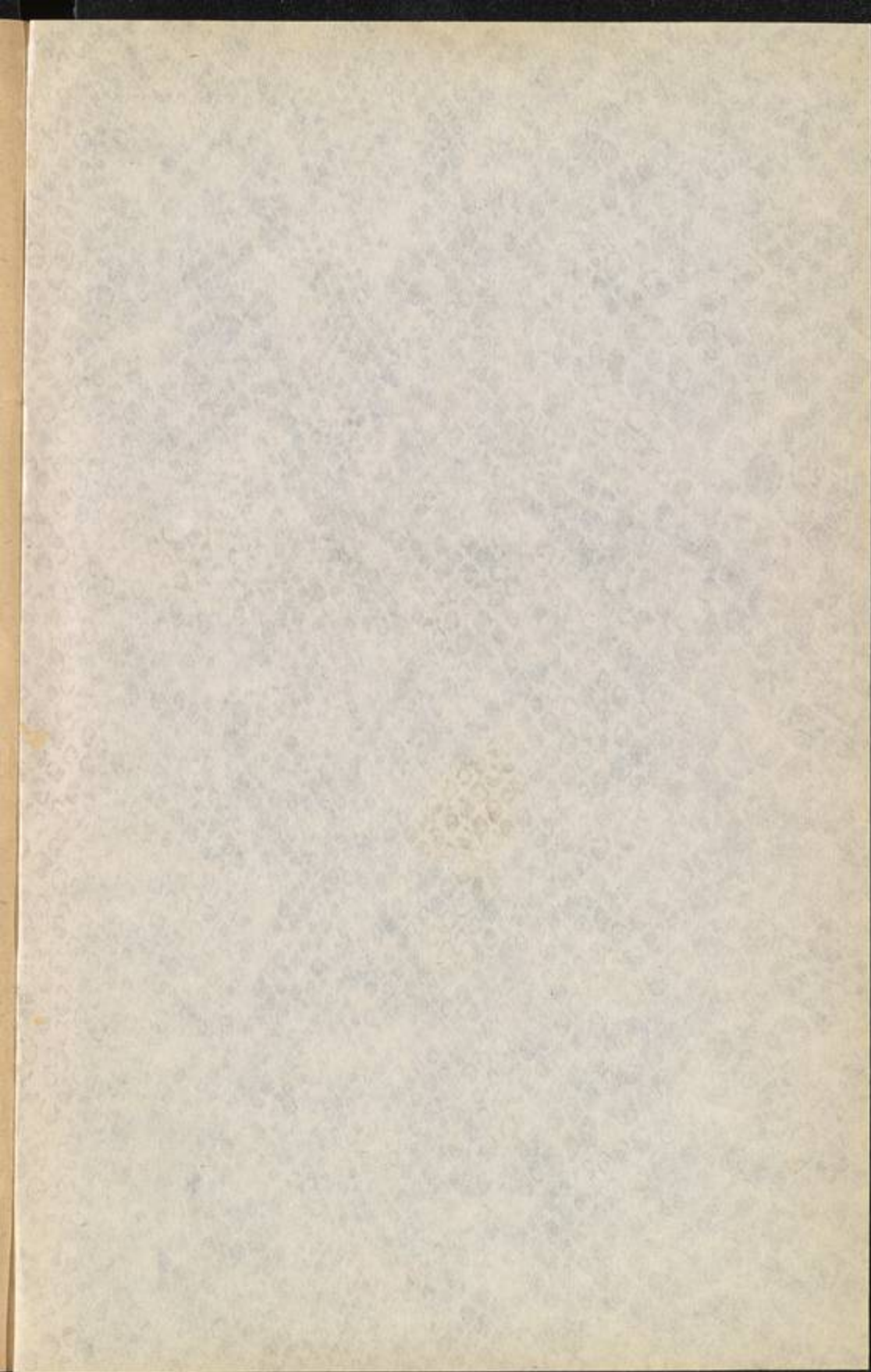




THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY





تفسير سورة الأوسىة عليه السلام

بقلم

السيد محمد شيد رضا

مفتي مجلكة الهند

رضي الله عنه

حقوق الطبع محفوظة لورثته

الطبعة الأولى في صفر سنة ١٣٥٥ - مايو سنة ١٩٣٦

مطبعة المينار بمبئي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الأمين ، الذي أنزل عليه (الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) « وبعد ، فهذا تفسير سورة يوسف آخر ما دبره براع العلامة الأوحى ، فقيه الإسلام السيد الامام الشيخ محمد رشيد رضا ، تغمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جنته ، وإنها لتحفة غنية عن التعريف ، اشتدت الحاجة إليها ، وكثر التساؤل عنها ، نرفها إلى العالم الاسلامى كأثر جليل لصاحب المنار ، راجين لها ما تستحقه من الرواج والانتشار .
« إدارة المنار »

سورة يوسف عليه السلام — ١٢

هي مكية وآياتها مائة وإحدى عشر آية فقط ، وما قيل من أن الثلاث الأولى منها مدنيات فلا تصح روايته ولا يظهر له وجه وهو يخل بنظم الكلام ، وقد راجعت الاقان فاذا هو ينقله ويقول : وهو واه جداً فلا يلتفت إليه ، ومن العجائب أن يذكر هذا الاستثناء فى المصحف المصرى ويزاد عليه الآية السابعة والمناسبة بينها وبين سورة هود أنها متممة لما فيها من قصص الرسل (ع.م) والاستدلال فى كل منهما على كونها وحياً من الله تعالى دالاً على رسالة محمد خاتم النبيين (ص) بآيتين متشابهتين ، فى آخر قصة نوح من الأولى (١٩) تلك من أنباء الغيب نوحياً إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وفى آخر الثانية (١٠٢) ذلك من أنباء الغيب نوحياً إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) وإشارة التأنيت فى الأولى للقصة المنزلة بهذا التفصيل والبلاغة العجيبة وقيل للسورة ، وإشارة التذكير فى الثانية لقوله تعالى فى أول السورة (نحن نقص عليك أحسن القصص) والفرق بين قصتها وقصص الرسل فى التى قبلها وفى سورة الأعراف وغيرها أن تلك قصص الرسل مع أقوامهم فى تبليغ دعوة الرسل والمحااجة فيها ، وعاقبة من آمن بهم ومن كذبهم لانذار مشركى مكة ومتبعيهم من العرب ، وقد كررت بالاساليب والنظم المختلفة لما فيها من أنواع التأثير ووجوه الإعجاز التى تقدم بيانها فى مباحث (الوحي المحمدي) ثم فى بحث التحدي بعشر سور مثله مقتريات . وأما سورة يوسف فهى قصة نبي واحد وجدنى غير قومه قبل النبوة صغير السن وبلغ أشده واكتمل فتيه وأرسل ودعا إلى دينه ، وكان مملوكاً ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم ، فأحسن الادارة والتنظيم ، وكان خير قدوة للناس فى رسالته وجميع ما دخل فيه من أطوار الحياة وطوارها وطوارقها ، وأعظمها شأنه مع آية وإخوته آل بيت النبوة فكان من الحكمة أن تجمع قصته فى سورة واحدة كما بجملة فى أولها ونفصله إن شاء الله فى خاتمتها . وهى أطول قصة فى القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية فى ذكر القرآن وحسن قصصه ثم كانت إلى تمام المائة فى تاريخ يوسف وختمت بأحدى عشرة آية فى الاستدلال بها على ما أنزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين وإعجاز كتابه والعبارة العامة بقصص الرسل (ع.م)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

(١) الرَّ ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
 قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ
 الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ
 لَمِنَ الْغَافِلِينَ

فاتحة هذه السورة هي فاتحة سورة يونس إلا وصف القرآن بالمبين هنا
 وبالْحَكِيمِ هنالك ، وهما في أعلى ذروة من البيان ، وأقصى مدى من الحكمة
 والاحكام ، اختير في كل من السورتين ما يناسبها ، فسورة يونس موضوعها أصل
 الدين وهو توحيد الالهية والربوبية وإثبات الوحي والرسالة باعجاز القرآن
 والبعث والجزاء وهي من الحكمة . وهذه موضوعها قصة نبي كريم تغلب في أطوار
 كثيرة كان قدوة خير وأسوة حسنة فيها كلها ، فالبيان بها أخص

١ ﴿الر ، تلك آيات الكتاب المبين﴾ أي آيات هذه السورة هي آيات
 الكتاب المبين الظاهر بنفسه في حقيقته وإعجازه وكونه ليس من كلام البشر ،
 والمظهر لما شاء الله من حقائق الدين ومصالح الدنيا ، وقال مجاهد : بين الله حلاله
 وحرامه ، وقال الزجاج : مبين للحق من الباطل والحلال من الحرام . تقول العرب
 أبان الشيء ، فعلا لازما بمعنى ظهر وانضح . وتقول أبان الرجل كذا إذا أظهره
 وفصله من غيره مما شأنه أن يشبهه به ، ويجوز الجمع بينهما هنا كما قلنا آنفا

٢ ﴿إنا أنزلناه﴾ أي الكتاب على رسولنا النبي العربي حال كونه ﴿قرآنا عربيا﴾
 أي يبين لكم بلغتكم العربية ما لم تكونوا تعلمون من الدين وأنباء الرسل والعلم
 والحكمة والادب والسياسة ﴿لعلكم تعقلون﴾ معانيه أيها العرب ، وما ترشد إليه

من مطالب الروح ومدارك العقل ، وتزكية النفس ، وثقيف مدارك الوجدان والحس ، واصلاح الاجتماع العام ، المراد بها صلاح الحال ، وسعادة المآل ، والقران اسم جنس يطلق على بعضه كالسورة الواحدة وقيل انه المراد هنا ، على جملته كلها

٣ - ﴿ نحن نقص عليك ﴾ أي الرسول المصطفى ﴿ أحسن القصص ﴾ أي نحدثك أحسن الاقتصاص والتحديث بيانا وأسلوبا وإحاطة ، أو أحسن ما يقص ويتحدث عنه موضوعا وفائدة ، ويجوز الجمع بين المعنيين فالقصص مصدر أو اسم من قص الخبر إذا حدث به على أصح الوجوه وأصدقها ، لانه من قص الاثر واقتصه إذا تبعه وأحاط به خبراً ، كأنه قال نقصه عن اقتصاص وإحاطة ، ويجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول ، فيكون القصص بمعنى المقصوص من الاخبار والاحاديث ﴿ بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ أي بإحاثنا إليك هذه السورة من القرآن ، إذ هو الغاية العليا في حسن فصاحته وبلاغته وتأثيره وحسن موضوعه ، ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ أي وان الشأن وحقيقة ما يتحدث عنه من قصتك أنت انك كنت من قبل إباحثنا إياه إليك من جماعة الغافلين عنه من قومك الاميين الذين لا يخطر في بالهم التحديث بأخبار الانبياء وأقوامهم ، وبيان ما كانوا عليه من دين وتشريع كيعقوب وأرلاده في بداوتهم ، ولا ما كانت الامم فيه من ترف وحضارة كالمصريين الذين وقع يوسف بينهم ، وحدث لهم ما حدث في بعض بيوتاتهم العليا ثم في بيت الملك وادارة نظام الدولة

(٤) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٥) قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ
رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ
عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيَعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ

الْأَحَادِيثِ وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى
أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

هذه الآيات الثلاث في بيان ما وقع بين يوسف في طفولته ، وأبيه يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام ، فاستدل أبوه برؤياه ، على أن سيكون له شأن عند الله وعند الناس ، فتعلق به أمله ، وشغف به قلبه ، فكان مبدأ اكل ما حدث له من الوقائع المحرقة ، ومن العاقبة المشرقة ، فهذه الرؤيا لا يظهر تأويلها إلا في آخر هذه الرواية ، وأصحاب القصص المتحلة في عصرنا يتحدثون أسلوب قصة يوسف في سورتها هذه بوضع خبر مشكل خفي يشغل فكر القارىء في أولها ، ويظل ينتظر وقوع ما يحل اشكاله ، ويفسر ما آله ، فلا يصيبه إلا في آخر القصة ، وقد قال النبي ﷺ « ان الكريم بن الكريم بن يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم » رواه أحمد والبخاري وغيرهما ، وفي رواية « الكريم بن الكريم » الخ

﴿ ٤ - ﴾ إذ قال يوسف لا يبيه يا أبت ﴿ هذا شروع في بيان أحسن القصص فهو بدل منه يشتمل عليه . والاكثر من بعدونه بدء كلام جديد يقدر وزن له متعاقبا : اذ ذكر أيها الرسول إذ قال يوسف لا يبيه : يا أبت الخ والتاء هنا بدل من ياء المتكلم وهو مسموع من العرب في نداء الاب والأم والفصيح كسرهما وسمع فتحها وضمها أيضا ﴿ اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ﴿ في المنام دليل ما يأتي بعد ، ثم بين الصفة التي رأى عليها هذه الجماعة السماوية بقوله ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ والسجود النظام والانهاء الذي سببه الانقياد والخضوع أو المبالغة في التعظيم وأصله قولهم : سجد البعير - إذا خفض رأسه لركبه عند ركوبه ، وكان من عادات الناس في تحية التعظيم في بلاد فلسطين ومصر وغيرهما ، واستعمل في القرآن بمعنى انقياد كل المخلوقات لارادة الله تعالى وتسخيرها وهذا سجود طبيعي غير ارادي ، ولا يكون السجود عبادة الا بالقصد والنية من الساجد للتقرب الى من يعتقد أن له عليه سلطانا ذاتيا غيبيا فوق سلطان الاسباب المعهودة ، وكان الاصل في التعبير

عن سجود هذه الكواكب التي ليس لها ارادة أن يقول رأيت كذا وكذا ساجدة لي، ولكنه أراد أن يخبر والده أنه رآها ساجدة سجوداً كأنه عن ارادة واختيار كسجود العقلاء المكلفين فأعاد فعل رأيت وجعل مفعوله ضمير العقلاء، وجمع صفة هذا السجود جمع المذكر السالم، فعلم أبوه أن هذه رؤيا إلهام، لا يمكن أن تعد من أضغاث الاحلام، التي تثيرها في النوم الخواطر والافكار، ولا سما خواطر غلام صغير كيوسف يخاف أبوه أن يأكله الذئب، وفي سفر التكوين أنه كان قد بلغ السادسة عشرة وهو بعيد

٥ - **﴿﴾** قال يابني لا تقص رؤياك على إخوتك **﴿﴾** يابني تصغير لكلمة ابن في نداء العطف والتعجب، وقص الرؤيا على فلان كقص القصة معناه أخبره بها على وجه الدقة والاحاطة كما تقدم آنفاً، وقد يفهم منه المعبّر البصير المعنى المناسب للرأي الفاص أو المعنى التي تؤول اليه في المستقبل إذا كانت رؤيا حق كما يقع للانبيا عليهم السلام قبل وحي التكليم ومقدماته، وقد فهم هذا يعقوب واعتقد أن يوسف سيكون نبياً عظيماً ذا ظهور وسلطان يسود به أهله حتى أباه وأمه وإخوته، وخاف أن يسمع إخوته ما سمعوه ويفهموا ما فهمه فيجسدوه ويكيدوا الاهلاكه فنهاه أن يقص رؤياه عليهم وعلاه بقوله **﴿﴾** فيكيدوا لك كيداً **﴿﴾** أي ان تقصها عليهم يجسدوك فيديروا ويحتالوا للايقاع بك تدبيراً شيطانياً يحكونه بالتفكير والروية، كما يفعل الاعداء في المكائد الحربية، يقال كاد إذا وجه اليه الكيد مباشرة، وكان له إذا دبر الكيد لأجله سواء كان لمضرتة وهو المراد هنا، أو لمنفعته ومنه قوله تعالى في تدبير يوسف لابقاء أخيه عنده (كذلك كدنا ليوسف) وسيأتي بيان هذه المقابلة **﴿﴾** إن الشيطان للانسان عدو مبين **﴿﴾** ظاهر العداوة بينها لانفوته فرصة لها فيضيهها. هذا بيان مستأنف للسبب النفسي لهذا الكيد وهو أنه من وسوسة الشيطان في النزغ بين الناس عند ما تعرض له داعية من هوى النفس وشرها الحسد الفريري في الانسان، كما عبر عنه يوسف بعد وقوعه وسوء تأثيره وحسن عاقبته بقوله (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) وفي قصته من سفر التكوين

أن يوسف قص رؤياه على أبيه وإخوته جميعا من أول وهلة وما قصه الله هو الحق الذي روي بالتواتر القطعي وسفر التكوين غير مروى بالاسانيد المتصلة المتواترة، ولا دليل على أن أصله وحى من الله تعالى، ولكنه كتاب قديم التاريخ له قيمة لا تعصمه من الخطأ

٦- ﴿وكذلك يحثيك ربك﴾ أي ومثل ذلك الشأن الرفيع والمجد البديع الذي تمثل لك في رؤياك ، يحثيك ربك لنفسه وبصطفيك على آلك وغيرهم فتكون من عباده الخالصين [بفتح اللام كما وصفه الله فيما يأتي قريبا] فالاجتباء افتعال من جيبت الشيء إذ خلصته لنفسك ، والجباية جمع الشيء النافع كالماء في الحوض والمال للسلطان ولي الامر ﴿ ويعلمك من تأويل الاحاديث ﴾ أي يعلمك من علمه اللدني تأويل الرؤى وتعبيرها أي تفسيرها بالعبارة والاختبار بما تؤول اليه في الوجود، وهو تأويلها كما سيأتي حكاية لقول يوسف لأبيه (هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا) أي ما هو أعم من ذلك من معاني الكلام ، وسميت الرؤى أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها ، وقال بعض المفسرين وتبعه غيره إن الرؤيا حديث الملك إن كانت صادقة وحديث الشيطان إن كانت كاذبة ، وهذا القول يخالف الواقع فان رؤيا يوسف ليس فيها حديث وكذا رؤيا صاحبيه في السجن ورؤيا ملك مصر ، وإنما سميت رؤيا لأنها عبارة عما يرى في النوم كما ان الرؤية اسم لما يرى في اليقظة فهما كالقربة والقربي وفرق بينهما للتمييز ، وقد يسمع رائيتها أحاديث رجل يحدثه ولكن تأويل رؤياه يكون لجملة ما رآه وسمعه لا لما سمعه فيها فحسب ، كما يقصه بحديثه على من يعبره له . أي يعبر به من مدلول حديثه اللفظي إلى ما يؤول اليه . وقد يكون قريبا كرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك ، وقد يكون بعيداً كتأويل رؤيا يوسف نفسه ، ولفظ الاحاديث اسم جمع سماعي كالأباطيل . والرؤيا الصادقة ضرب من إدراك نفس الانسان أحيانا لبعض الاشياء قبل وقوعها باستعدادها الفطري ، إما بعينها وهو قليل ، وإما بمثال يدل عليها وهو المحتاج إلى التأويل ، وسنبين الفرق بين الرؤيا الصادقة وبين أضغاث الاحلام ، ورأي علماء الأفرنج ومقلديهم فيها في خلاصة السورة الاجمالية إن شاء الله تعالى ،

وتعليم الله التأويل ليوسف إبتاؤه إلهاما وكشفا للمراد منها أو فراسة خاصة فيها ،
أو علما أعم منها . كما يدل عليه قوله الآتي لصاحبي السجن (١٢: ٣٦) لا يأتيكما طعام
ترزقانه إلا نبأناكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربني) روي عن ابن زيد
انه قال في تأويل الاحاديث : تأويل العلم والحلم وكان يوسف من أعبر الناس ،
وقال الزجاج تأويل أحاديث الامم السالفة والكتب المنزلة

زعم الزمخشري وتبعه مقلدوه ان هذه الجملة كلام مبتدأ غير داخل في حكم
التشبيه كانه قيل وهو يعلمك ويتم نعمته عليك وبني هذا على ما فهمه من دلالة
الرؤيا على الاجتناب فقط ، وما هذا الفهم إلا من تأثير قواعد النحو ، والذي نجم
به أن يعقوب عليه السلام فهم من هذه الرؤيا فهما مجملا كل ما بشر به ابنه رائيها ،
وأما كيد اخوته له اذا قصها عليهم فقد استنبطه استنباطا من طبع الانسان ،
وعدارة الشيطان ، فلما حذره من الاستهداف لذلك باثارة حسدهم ، قفى عليه
ببشارته بما تدل عليه الرؤيا من اجتناب ربه الخاص به ، ومن تأويل الاحاديث وهو
الذي سيكون وسيلة بينه وبين الناس الى رفعة قدره وعلو مقامه ، فهو معطوف
على الاجتناب مشترك معه في البشارة

ثم عطف عليه ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ بالنبوة والرسالة والملك والرياسة
﴿ وعلى آل يعقوب ﴾ وهم أبواه واخوته وذريتهم (وأصل الأكل أهل بدليل
تصغيره على أهيل ، وهو خاص في الاستعمال بمن لهم شرف وخطر في الناس
كآل النبي صلى الله عليه وسلم وآل انك ويقال لغيرهم أهل) باخراجهم من
البدو ، وتبوئهم المقام الكريم بمصر ، ثم بتسلسل النبوة في أسباطهم الى أجل معلوم
﴿ كأنها على أوبك من قبل ﴾ أي من قبل هذا العهد أو من قبلك ﴿ ابراهيم واسحق ﴾
هذا بيان لكلمة أوبك وهما جده وجد أبيه ، وقدم الاشراف منهما ، وهذا
الاستعمال مأخوذ عند العرب وغيرهم كانوا يقولون للنبي ﷺ يا ابن عبد المطلب
دل قالها هو أيضا ، وهذا التشبيه مبني على ما كان يعلمه يعقوب من وعد الله لابراهيم
باصطفاء آله ، وجعل النبوة والكتاب في ذريته ، وإنما علم من رؤيا يوسف أنه

هو حلقة السلسلة النبوية الاصطفائية بعده من أبنائه ، فلهذا علل البشارة بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمن يصطفيه، حكيم باصطفائه، وباعداد الاسباب وتسخيرها له، وكان هذا العلم من يعقوب بما بشر الله به أبويه لها ولذريتهما، وبدلالة رؤيا يوسف على أنه هو حلقة السلسلة الذهبية لهم ، هو السبب كما قلنا لزيادة حبه له وعطفه وحرصه عليه، الذي هاج ما كان يحذره من حسد اخوته وكيدهم له، ولكونه لم يصدق ما زعموه من أكل الذئب له، ولم ينقطع أملُه منه، بل لم ينقص إيمانه بما أعد الله له ولهم به، ولكن علمه بذلك كان اجاليا لا تفصيليا، وقد جاءت قصته من أولها إلى آخرها مفصلة لهذا الاجمال ، تفصيلا هو من أبداع بلاغة القرآن ، وزاد بعض المفسرين في التشبيه إنجاء إبراهيم من النار وإنجاء اسحاق من الذبح ولكن التحقيق أن الذبيح اسماعيل لا اسحاق كما يدل عليه قوله تعالى بعد قصته عن سورة الصافات (وبشرناه باسحاق) وكون القصة كانت في الحجاز وهي الاصل في أضاحي منى هناك ، وانما الذي نشأ في الحجاز اسماعيل لا اسحاق كما هو معلوم بالتواتر

(٧) لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَائِلِينَ (٨) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ

هذا شروع في القصة بعد مقدمتين أولاها في صفة القرآن وكونه نزيلا من الله دالا على رسالته من أنزل عليه، وكونه عربيا تقوم به الحججة على العرب الذين يعقلونه وكون النبي ﷺ كان من قبله غافلا عما جاءه فيه لا يدري منه شيئا ، ونتيجة هاتين القضيتين تأتي بعد تمام القصة في قوله تعالى (١٠٢) ذلك من أنباء الغيب الخ ٢ - سورة يوسف

والمقدمة الثانية رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه فيها إجماليا كليا كما يفتاه أنفا
و بنى عليه أن حذره وأنذره ما يستهدف له قبله من كيد إخوته ، وبشره بحسن
عاقبته ، ونتيجة هاتين القضيتين ما قاله لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له (١٠٠)
يأبى هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا (الح

مثل هذا الترتيب المنطقي العقلي البديع يتوقف نظامه ومصدره على سبق العلم
بالقصة وتنبع حوادثها والاحاطة بدقائقها، ثم على وضع ترتيب ينسج عليه الكلام
كالقصص الفنية المتكلفة ، ثم توضع له المقدمة والخاتمة في الغاية التي ألفت القصة
لأجلها ، فتجعل الأولى براعة مطلع ، والآخرة براعة مقطع ، فقل لمن جهل سيرة
محمد ﷺ وتاريخه : إن محمداً لم يكن قارنا ولا كاتباً ، ولا خطيباً ولا شاعراً ،
ولا مؤرخاً ولا راوياً ، ولا حافظاً للشعر ولا ناثراً ، بل كان كما قال الله تعالى غافلاً عن
هذه القصة وكل ما جاء في القرآن ، وكانت تنزل عليه السورة القصيرة فيعجل بقراءتها
لئلا ينسى منها شيئاً ، فنهى عن ذلك عند معارضته في أثناء نزول سورة القيامة بقوله
تعالى (١٦:٧٥) لا تحرك به لسانك لتعجل به ١٧ إن علينا جمعه وقرآنه ١٨ فإذا قرأناه
فاتبع قرآنه ١٩ ثم إن علينا بيانه) وبقوله (١١٤:٢٠) ولا تعجل بالقرآن من قبل أن
يقضى اليك وحيه وقل رب زدني علماً) وبقوله (سنقرئك فلا تنسى) وبقوله (إنا
نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فلما ضمن ربه له أمن ضياع شيء منه بعدم
حفظه عند تلقيه ، أو نسيانه بعده ، زال خوفه ، وترك الاستعجال بقراءته

وهذه السورة الطويلة نزلت عليه دفعة واحدة كأكثر السور المسكية حتى
الطول منها كسورة الانعام فلم يكن يدري من هذا الترتيب والنسق لها ولا من
موضوعها شيئاً قبل وحبها ، ولا يحيط به إلا أن يكمل له تلقيها عن الروح الامين
عليهما السلام ، ولكن العجب أن يفعل عنه أو يجمله أحد من المفسرين فرسان
البلاغة الفنية ، والآن وقد بينته لقارى هذا التفسير ليفطن لدلالة السورة بنظمها
وبلاغتها على اعجاز القرآن اللفظي ، وبما فيها من التشريع وعلم الغيب على اعجازه
المعنوي ، وبلاعجازين كليهما على نبوة محمد ﷺ ورسالته أشرع في تفسير

القصة متبرثا من حولي وقوتي الى حول الله وقوته ، وهي :

٧ ﴿ لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين ﴾ أي لقد كان في قصة يوسف واخوته لايه أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته، وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده ، وتربيته لهم ، وحسن عنايته بهم ، والسائلين عنها ، من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها ، لانهم هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها ، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم به منه ، فان للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها ، فاخوة يوسف لو لم يحسدوه لما أقوه في غيابة الجب ، ولو لم يلقوه لما وصل الى عزب مصر ، ولو لم يمتد العزب بفراسته أمانته وصدقه لما أمته على بيته ورزقه وأهله ، ولو لم تراوده امرأة العزب عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها ، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما ألقى في السجن لاختفاء هذا الامر ، ولو لم يسجن لما عرفه ساقى ملك مصر وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا ، ولو لم يعلم الساقى منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به واهوجه على خزائن الارض ، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه واخوته وأهلهم أجمعين من المحمصه ويأتي بهم الى مصر فيشاركونه في رياسته ومجده ، بل لما تم قول أبيه له (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) فما من حلقة من هذه السلسلة الا وكان ظاهرها محرقا ، وباطنها مشرقا ، وبدايتها شرآ وخسرآ ، وعاقبتها خيرا وفوزآ ، وصدق قول الله عز وجل (والعاقبة للمتقين) فهذه أنواع من آيات الله في القصة للسائلين عن وقائعها الحسية الظاهرة ، وما هو أعلى منها من علومها وحكمها الباطنة ، كعلم يعقوب بتأويل رؤيا يوسف وعلمه بكذبهم بدعوى أكل الذئب له ، ومن شهادة الله له بالعلم بقوله (وإنه لذو علم لما علمناه) الآية ، ومن شبه لريح يوسف منذ فصلت العير من أرض مصر قاصدة أرض كنعان . ومن علم يوسف بتأويل الاحاديث ، ومن رؤيته لبرهان ربه ، ومن كيد الله له ليأخذ أخاه بشرع الملك ، ثم من علمه بأن إلقاء قميصه على

أبيه يعيده بصيراً بعد عمى سنين كثيرة ، في القصة مجال لسؤال السائلين عن كل هذه المعاني من العلم الروحاني ، وهي أخفى مما قبلها ، وأحق بالسؤال عنها

وقيل ان المراد بالسائلين جماعة من اليهود جاؤا مكة وسألوا النبي ﷺ سؤال امتحان عن نبي كان بالشام أخرج ابنه الى مصر فبكى عليه حتى عمي ؟ فأنزل الله تعالى عليه سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة ، وروى أن بعضهم لقنوا بعض أهل مكة أن يسألوه عن قصة يوسف ، وروى أن بعضهم سألوه عن أسماء الكواكب الا احد عشر التي رآها يوسف في منامه ولم يكن يعرفها فنزل عليه جبريل فلقنه إياها فجاءت موافقة لما في التوراة ، وذكروا هذه الاسماء في تفاسيرهم ، فالمراد بالآيات على هذا دلائل نبوة محمد ﷺ ولا يصح من هذه الروايات شيء بل هي من الاسرائيليات ، وليس في التوراة ذكر لأسماء هذه الكواكب ، وقصة يوسف في القرآن موافقة لجملة ما في سفر التكوين ومخالفة له في بعض دقائقها ومسند كرم من ذلك غير ما ذكرنا آنفاً

٨ ﴿إذ قالوا لبيوسف وأخوه أحب الى أبينا منا﴾ أي ان في قصتهم آيات في الوقت الذي ابتدؤا فيه بقولهم جازمين مقسمين: لبيوسف وأخوه الشقيق له واسمه بنيامين أحب الى أبينا منا كما (١) ﴿ونحن عصبه﴾ أي يفضلهما علينا بمزيد المحبة على صغرها وقلة غنائهما والحال أننا نحن عصبه عشرة رجال أقوىاء أشداء معتصبون نقوم له بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق والحماية والكفاية ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ انه لفي تيه من المحابة لها ضل فيه طريق العدل والمساواة ضلالاً بينا لا يخفى على أحد إذ يفضل غلامين ضعيفين من ولده لا يقومان له بخدمة نافعة ، على العصبه أولى القوة والكسب والنجدة . وهذا الحكم منهم على أيهم جهل مبين وخطأ كبير ، لعل سببه اتهامهم إياه بافراطه في حب أمهما من قبل ، فيكون مثاره الاول اختلاف

(١) الاخبار باسم التفضيل مفردا كما هنا يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع مذكرا ومؤنثا ، والمعرف بأل تجب فيه المطابقة وبالإضافة يجوز فيه الوجهان

الامهات بتعدد الزوجات ولا سيما الاماء منهن (١) وهو الذي أضلهم عن غريزة
الوالدين في زيادة العطف على صغار الاولاد وضعافهم وكانا أصغر أولاده ، فقد سئل
والد بليغ : أي ولدك أحب اليك؟ قال صغيرهم حتى يكبر ، وغائبهم حتى يحضر ،
ومريضهم حتى يشفى ، وفقيرهم حتى يقنى [وأشك في هذه الاخيرة]

ومن فوائد القصة وجوب عناية الوالدين بمداواة الاولاد وتربيتهم على المحبة
والعدل واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على
بعض بما يعده المفضل إهانة له ومحابة لأخيه بالهوى ، وقد نهى عنه النبي ﷺ
مطلقاً ، ومنه سلوك سبيل الحكمة في تفضيل من فضل الله تعالى بالمواهب الفطرية
كمكارم الاخلاق والتقوى والعلم والذكاء . وما كان يعقوب بالذي يخفى عليه هذا ،
وما نهى يوسف عن قص رؤياه عليهم إلا من علمه بما يجب فيه ، ولكن ما يفعل
الانسان بغريزته وقلبه وروحه؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه؟ كلا
دلائل العشق لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخلو من العبق

٩ - ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ﴾ أي اقتلوه قتلاً لا مطمع بعده
ولا أمل في لقائه ، أو انبذوه كالشيء اللقا الذي لا قيمة له في أرض مجهولة بعيدة
عن مساكننا أو عن العمران بحيث لا يهتدي إلى العودة إلى أبيه سيدلاً إن هو سلم
فيها من الهلاك ﴿ يخل لكم وجه أبيكم ﴾ فيمكن كل توجه اليكم ، وكل إقباله عليكم ،
بخلو الديار ممن يشغله عنكم أو يشاركم في عطفه وحبه ، وهذه الجملة من فرائد

(١) كان ليعقوب من الولد اثنا عشر ولداً ذكراً وهم (١) رأوبين بكر يعقوب
(٢) وشمعون (٣) ولاوي (٤) ويهوذا (٥) ويساكر (٦) وزبولون ، وهؤلاء من
ليثة بنت خاله لابان (٧) ويوسف (٨) وبنيامين من راحيل بنت خاله الاخرى ،
وهما أصغر أولاده (٩) ودان (١٠) وفتالي من بلهة جارية راحيل (١١) وجاد
(١٢) وأشير من زلفة جارية ليثة . وهؤلاء الاولاد ولدوا له وهو في فدان ارام
يرعى غنم خاله لابان مهراً لابنتيه ليثة وراحيل وأجرأ لما زاده من خدمته في رعيها
وطاد بهم بعد انقضاء الاجل وبما أخذ من غنم خاله إلى أرض كنعان إلا بنيامين
فقد ولد في كنعان

درر الكلام البليغ بتصويرها حصر الحب وتوجه الاقبال والعطف بصورة
الضروريات التي لا اختيار للرأي ولا للارادة فيها ، لا من ظاهر الحس ، ولا من
وجدان النفس ، بعد وقوع هذه الجناية التي تقتضي إعراض الوجه ، وأعراض
الكرامة والمقت **﴿** وتكونوا من بعده **﴾** أي من بعد يوسف أو بعد قتله وتفريره
﴿ قوما صالحين **﴾** تائبين إلى الله من هذه الجريمة ، مصلحين لأعمالكم بما يكفر
إنمها ، وعدم التصدي لثلثها ، فيرضى عنكم أبوكم ويرضى ربكم ، هكذا يزين
الشیطان للمؤمن المتدين معصية الله تعالى ولا يزال ينزغ له ويسول ، وبعد ويمني
ويؤول ، حتى يرجح داعي الايمان ، أو يجيب داعي الشيطان ، وهذا الذي غلب
على إخوة يوسف فكان ، ولكن بعد رأفة مخففة لحكم الانتقام ، وهو مقتضى
الحكمة التي أرادها الله :

١٠ - **﴿** قال قائل منهم **﴾** أنهم القرآن لان تعيينه بتسميته لا فائدة منها في
عبرة ولا حكمة ، وإنما الفائدة في وصفه بأنه منهم ، وهي أنهم لم يجمعوا على جنابة
قتله . وقال السدي إنه يهودا ، وفي سفر التكوين انه رؤبين **﴿** لا تقتلوا يوسف وأقوه
في غيابة الحب **﴾** الحب البئر غير المطوية أي غير المبنية من داخلها بالحجارة وهو مذكر
والبئر مؤنثة وتسمى المطوية منطويا ، وغيابته بالفتح ما يغيب عن رؤية البصر من قعره
أو حفرة بجانبه تكون فوق سطح الماء يدخلها من يدلي فيه لآخر اجثبي . وقع فيه أو
إصلاح خلل عرض له ، وعلم من التعريف انه حب معروف كان هنالك حيث يرعون ،
وجواب أقوه **﴿** يلتقطه بعض السيارة **﴾** وهم جماعة المسافرين الذين يسرون في الارض
يقطعون الارض من مكان إلى آخر لاجل التجارة فيأخذوه إلى حيث ساروا من الاقطار
البعيدة فيتم لكم الشق الثاني مما اقترحتهم وهو إبعاده عن أبيه **﴿** إن كنتم فاعلين **﴾** ما هو
الصواب المقصود لكم بالذات فهذا هو الصواب ، وجناية قتله غير مقصودة لذاتها ، فعلام
إسقاط الله باقترافها والغرض يتم بمادونها وفي سفر التكوين ان رؤبين مكر بهم إذ كان
يريد أن يخرج من الحب ويرجمه إلى أبيه ، وأنهم وضعوه في البئر وكانت فارغة لا ماء

فيها، ففرت بهم سيارة من تجار الاسماعيليين (العرب) مسافرة إلى مصر، ففترح عليهم بهوذا إخراجهم وبمعهم لهم إذ لا فائدة لهم من قتله وهو من لحمهم ودمهم ففعلوا، فهذا ما دار بينهم وأجمعوه من أمرهم

(١١) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَمُصِحُونَ

(١٢) أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ (١٣) قَالَ إِنِّي

لِيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ

(١٤) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ

هذا بيان مستأنف لما كادوا به أباهم بعد اتهمهم بيوسف ليرسله معهم وهو الحق . وفي سفر التكوين ان أباهم هو الذي أرسله اليهم بعد ذهابهم

١١ - ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ يعنون أي شيء عرض

لك من الشبهة في أمانتنا فجعلك لا تأمنا على يوسف ؟ وكانوا قد شعروا منه بهذا بعد ما كان من رؤيا يوسف ويظهر أنهم قد عدوا بها ، كما أنه شعر منهم بالتنكر له

على حد قول الشاعر * كاد الريب بأن يقول خذوني * ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَمُصِحُونَ ﴾ أي والحال إنا لنخصه بالنصح الخالص من شائبة التفريط أو التقصير ، أكدوا هذه الدعوى بالجملة الاسمية المصدرية بأن وتقديم «له» على خبرها واقترانه باللام . ولولا شعورهم بارتياحه فيهم لما احتاجوا إلى كل هذا التأكيد

١٢ - ﴿ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ ﴾ أي أرسله معنا غداً غداً إذ يخرج

كعادتنا إلى سراعينا في الصحراء يرتع معنا ويلعب . وقرئ في التواتر أيضا [يرتع وناعب] بنون الجماعة وهي مفهومة من قراءة الباء فان المراد من خروجه معهم مشاركته إياهم في رياضتهم وأنسهم وسرورهم بجزية الاكل واللعب والرتوع وهو

أكل ما يطيب لهم من الفاكهة والبقول ، وأصله رتم الماشية حيث نشاء . قال الزمخشري في الكشاف (رتم) تنسج في أكل الفواكه وغيرها ، وأصل الرتمه الخصب والسعة اه وأما لعب أهل البادية فأكثره لسباق والصراع والرمي بالعصي والسهام إن وجدت . وسيأتي ان أهمهم كان الاستباق بالعدو على الأرجل ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ مادام معنا نقيه من كل سوء وأذى ، أكدوا هذا الوعد كما بقه مبالغة في الكيد

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس (رض) أرسله معنا غداً نرتع ونلعب ، قال نسمي وننشط ونلهو . وعن ابن زيد [يرتعي بالياء وكسر العين قال يرعى غنمه وينظر ويعقل ويعرف ويعرف الرجل] وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن هارون قال كان أبو عمرو يقرأ (نرتع ونلعب) بالنون فقلت لأبي عمرو كيف يقولون (نرتع ونلعب) وهم أنبياء ؟ قال لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقد توسع بعض المفسرين في هذه المسألة وعدوها مشكلة لظنهم ان اللعب غير جائز وقوعه من الانبياء . والتحقيق ان من اللعب ماهو نافع فهو مباح أو مستحب ، ومنه ملاعبة الرجل تزوجه وملاعبتها له كما ورد في الحديث الصحيح ، وأن اخوة يوسف لم يكونوا أنبياء يومئذ ولا بعده كما حققناه في محله . وان من التنطع والغفلة استشكل اللعب المباح في نفسه ممن شهد الله عليهم بالكيد لأخيه والاثار بقتله وتعمد إيذائه وخيعة أبيهم به وكذبهم عليه وغير ذلك من كبائر المعاصي !!

١٣ - ﴿ قال إني ليحزني أن تذهبوا به ﴾ أي قال أبوهم جواباً لهم إني ليحزني ذهابكم به بمجرد وقوعه ، والحزن ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه . وفعله من باب قتل في لغة قريش وتعديه تيمم بالهمزة واللام في قوله ليحزني للابتداء ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ والخوف ألم النفس مما يتوقع من مكروه قبل أن يقع ﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾ أي في حال غفلة منكم عنه واشتغال عن مراقبته وحفظه بلبسكم ، قيل لو لم يذكر خوفه هذا لم لما خطر ببالهم أن يقع ، وأعله قاله من باب الاحتياط أو الاعتذار بالظواهر ، وإن كان يعلم حسن عاقبته في الباطن ، على

علمه هذا كان مجملًا مبهمًا ومقيدًا بالأقدار المجهولة كما أشرنا إليه من قبل
١٤ ﴿قَالُوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ أي والله لئن اختطفه الذئب من بيننا
وأكله والحال أننا جماعة شديدة القوى نعصب بنا الامور ، وتكفي بيأسنا الخطوب
﴿إنا إذن لخاسرون﴾ وخائبون في اعتصا بنا أو هالكون لا يصح أن نهد من الأحياء
الذين يعتمد بهم ويركن اليهم ، وهذه الجملة جواب للقسم أغنى عن جواب الشرط
أجابوه عما يخافه بما يرجون أن يطأه ، وأما حزنه فلا جواب عنه لأنه في
حد ذاته لا بد منه وليس في استطاعتهم منعه ، إذ هو لازم لفرقه له ولو فرقا
قليلا فيه منعمة ليوسف في صحته بترويض جسمه في ضحى الشمس وهبوب الرياح
وحرارة الأعضاء في زمن قصير يعود بعده فيزول حزنه ويكون سروره مضاعفا لصدقوا

(١٥) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَةِ الْجَبِّ
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
(١٦) وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٧) قَالُوا يَا بَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا
نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ
بِمُؤْمِنٍ لِنَاوَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٨) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ،
قَالَ بَلْ سَوَّاتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ
عَلَىٰ تَصِفُونَ

هذه الآيات الأربع في بيان ما نفذوا به عزمهم بالفعل ، وما اعتذروا به
لأبيهم من كذب ، وما قابلهم من تكذيب وصبر ، واستماعة بالله عز وجل ، قال
١٥ ﴿ فلما ذهبوا به ﴾ في الغد من ليالتهم التي استنزوا فيها أباه عن امساكه

عنده ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾ أي أزمعوه وعزموا عليه عزمًا اجماعيًا لا تردد فيه بعد ما كان من اختلافهم قبل في قتله أو تعذيبه ، وجواب « لما » محذوف للعلم به مما قبله ومما بعده وتقديره نفذوه بأن ألقوه في غيابة ذلك الجب بالفعل ﴿ وأوحينا إليه ﴾ عند إلقائه فيه وحيا إلهاميا علم أنه منا مضمونه : وربك ﴿ لتبأنهم بأمرهم هذا ﴾ معك إذ يظهر لك الله عليهم ويدلهم لك ويحمل رؤياك حقا ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ يومئذ بما آتاك الله ، أو الآن بما يؤتيك في عاقبة هذه الفعل التي فعلوها بك ، أو بهذا الوحي في الجب وهو المرتبة الأولى من مراتب التكليم الإلهي الانبياء بعد التمهيد له بالرؤيا الصادقة. وقد هون الله تعالى على يوسف مصيبته به فعلم أنها مصيبة في الظاهر نعمة في الباطن ، وقد نقلوا عن السدي أن إخوة يوسف طغوا في القسوة عليه والتنكيل به فقالوا وفعلوا مالا يصدر مثله إلا عن رعاع الناس وأراذل المجرمين الظالمين ، وما هي إلا الاسرائيليات المنفرة من الاسلام والمسلمين

١٦ ﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ﴾ أي جاءوه في وقت العشاء إذ خالط سواد الليل بقية بياض النهار فحاهل كونهم يبكون ليقتنعوه بما يبغون وقد بينه تعالى بقوله :

١٧ ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ أي ذهبنا من مكان اجتماعنا الى السباق يتكلف كل منا أن يسبق غيره ، فلا سباق تكلف السبق وهو الغرض من المسابقة والتسابق بصيغتي المشاركة التي يقصد بها الغلب ، وقد يقصد لذاته أو الغرض آخر في السبق ومنه (فاستبقوا الخيرات) فهذا يقصد به السبق لذاته لا للغلب ، وقوله الآتي في هذه السورة (واستبقوا الباب) كان يقصد به يوسف الخروج من الدار هربا من حيث تقصد امرأة العزيز باتباعه إرجاعه ، وصيغة المشاركة لا تؤدي هذا المعنى ، ولم يفتن الزنجشري علامة اللفظة ومن تبعه لهذا الفرق الدقيق ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ من فضل الثياب وما عون الطعام والشراب

علم يعقوب بكذب أولاده بقولهم وبالدم على قميصه وصبره واستغاثته بربه ١٩

(مثلاً) يحفظه إذ لا يستطيع مجاراتنا في استباقنا الذي يرهق به قوانا ﴿ فأكله الذئب ﴾
إذ أوغلنا في البعد عنه فلم نسمع صراخه واستغاثته ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ أي
بمصدق لنا في قولنا هذا لانها ملك إيانا بكرامة يوسف وحسدنا له على تفضيلك إياه
علينا في الحب والعطف ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ في الامر الواقع أو نفس الامر، أو
ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ماصدقنا في هذا الخبر لشدة وجدك بيوسف

١٨ ﴿ وجاؤا على قميصه بدم كذب ﴾ المراد من هذه الجملة الغدقة في بلاغتها
أنهم جاؤا بقميصه مملوفاً ظاهره بدم غير دم يوسف يدعون أنه دمه ليشهد لهم
بصدقهم فكان دليلاً على كذبهم ، فنكر الدم ووصفه باسم الكذب مبالغة في
ظهور كذبهم في دعوى أنه دمه حتى كأنه هو الكذب بعينه ، فالعرب تضع المصدر
موضع الصفة للمبالغة كما يقولون شاهد عدل ، ومنه ﴿ فهن به جود وأنتم به بخل ﴾
وقال « على قميصه » ليصور للقارىء والسامع أنه موضوع على ظاهره وضماً متكلفاً
ولو كان من أثر افتراس الذئب له لكان القميص ممزقاً والدم متغلغلاً في كل قطعة

منه ، ولهذا كله لم يصدقهم ﴿ قال بل سوات لكم انفسكم امرأ ﴾ هذا إضراب
عن تكذيب صريح تقديره : إن الذئب لم يأكله بل سهات لكم الامارة بالسوء امرأ
إمرأ ، وكيداً نكراً ، وزينته في قلوبكم فطوعته لكم حتى اقتربتموه ، أي هذا

أمركم وأما أمرى معكم ومع ربي ﴿ فصبر جميل ﴾ أو فصبري صبر جميل لا يشوه
جماله جزع اليائسين من روح الله ، القانطين من رحمة الله ، ولا الشكوى إلى

غير الله ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ من هذه المصيبة لا أستعين على احتمالها
غيره أحداً منكم ولا من غيركم

هذا هو الفصل الاول من قصة يوسف وهو صفة الحق من أحسن القصص
بما فيه من الدقة والعبارة ، وقد شوّهه رواة الاساطير والمفتريات الاسرائيلية بما
ظنوا أنه من أخبار التوراة وما هو منها ومن شاء فليقرأ هذا الفصل من قصة يوسف
في سفر التكوين ليرى الفرق البعيد بين كلام الله وكلام البشر ، وليعلم المغرور

بما نقله المفسرون من الاسرائيليات فيها كالسدي الكبير الذي هو أقل كذباً وأكثر إتقاناً لاساطيره من السدي الصغير ، أن كل ما فيها من الزيادة لا أصل له عند أهل الكتاب ، ولا هو مروى عن نبينا ﷺ فهو كذب صراح (*)

(*) الفصل أو الاصحاح ٣٧ من سفر التكوين

وسكن يعقوب في أرض غربة أيه في أرض كنعان ٢ هذه مواليد يعقوب إذ كان يوسف ابن سبع عشرة سنة وكان يرعى مع اخوته الغنم وهو غلام عند بني بلهة وبني زلفة امرأتي أبيه . وأتى يوسف بنميتهم الرديئة إلى أبيهم ٣ وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لانه ابن شيخوخته ، فصنع له قميصاً ملوناً ٤ فلما رأى اخوته ان أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام ٥ وحلم يوسف حلماً وأخبر اخوته فازدادوا ايضاً بغضاً له ٦ فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت ٧ فها نحن حازمون حزماً في الحقل وإذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي ٨ فقال له اخوته أملكك تملك علينا ملكاً ام تتسلط علينا تسلطاً ، وازدادوا ايضاً بغضاً له من اجل احلامه ومن اجل كلامه ٩ ثم حلم ايضاً حلماً آخر وقصه على اخوته ، فقال اني قد حلمت حلماً ايضاً وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي ١٠ وقصه على أبيه وعلى اخوته فانتهره ابوه وقال له ما هذا الحلم الذي حلمت ؟ هل تأتي انا وأمك واخوتك لتسجد لك الى الارض ١١ فحسده اخوته وأما ابوه فحفظ الامر ١٢ ومضى اخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم (١) فقال اسرائيل ليوسف اليس اخوتك يرعون عند شكيم ؟ تعال فأرسلك اليهم ، فقال له ها أنذا ١٤ فقال له اذهب انظر سلامة اخوتك وسلامة الغنم ورد لي خيراً ، فأرسله من وطاء حبرون (٢) فأتى الى شكيم ١٥ فوجده رجل وإذا هو ضال في الحقل فسأله الرجل قائلاً ماذا تطلب ١٦ فقال انا طالب اخوتي اخبرني اين يرعون ١٧ فقال الرجل قد ارتحلوا من هنا لاني سمعتهم يقولون لنذهب الى دونان ، فذهب يوسف وراء اخوته فوجدهم في دونان ١٨ فلما أبصروهم بعيداً قبلها اقترب اليهم احتالوا له ليميتوه ١٩ فقال =

(١) وشكيم هذه في محل نابلس اليوم (٢) هي مدينة الخليل ، والوطاء الوادي

(١٩) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَرِدَهُمْ فَاذَلَّتْ دَلْوَهُ قَالِ يَبْشُرِي
هَذَا عَلْمٌ وَأَسْرُوهُ بِيضَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَسَرَّوهُ
بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ

= بعضهم لبعض هوذا هذا صاحب الأحلام قادم ٢٠ فالآن هلم نقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونقول وحش رديء أكله فنرى ماذا تكون أحلامه ٢١ فسمع رأوبين وأقنذه من أيديهم وقال لا تقتله ٢٢ وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دما اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا اليه يداً ، لكي ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه ٢٣ فكان لما جاء يوسف إلى إخوته انهم خلعوا عن يوسف قميصه ، القميص الملون الذي عليه ٢٤ وأخذوه وطرحوه في البئر ، وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء ٢٥ ثم جلسوا ليأكلوا طعاماً فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة اسماعيليين مقبلية من جلعاد وجماهم حاملية كثيره ولساناً ولأذنا ذاهبين ليترلوا بها إلى مصر ٢٦ فقال يهوذا لأخوته ما الفائدة ان نقتل أخانا ونخفي دمه ٢٧ تعالوا فنبيعه للأسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ونحننا فسمع له أخوته ٢٨ واجتاز رجال مديانيون تجار ، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للأسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر ٢٩ ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه ٣٠ ثم رجع إلى أخوته وقال الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب ٣١ فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المغزى وغمسوا القميص في الدم ٣٢ وأرسلوا القميص الملون وأحضروه إلى أبيهم وقالوا وجدنا هذا حقيق أقميص ابنك هو أم لا ؟ ٣٣ فتحققه وقال قميص ابني وحش رديء أكله ، افترس يوسف افتراساً ٣٤ فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحا على حقويه وناح على ابنه أياما كثيرة ٣٥ فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأب ان يعزى وقال اني أنزل إلى ابني نائحا إلى الهاوية وبكى عليه أبوه ٣٦ وأما المديانيون فباعوه في مصر لقوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط

هاتان الآيتان في استعباد قافلة من التجار ليوسف (ع م) والتجار به
 ١٩ ﴿وجاءت﴾ ذلك المكان الذي كانوا فيه ﴿سيارة﴾ صيفة مبالغة
 من السير (كجواله وكشافة) أي جماعة أو قافلة وفي سفر التكوين أنهم كانوا من
 الاسماعيليين أي من العرب ﴿فأرسلوا واردم﴾ المختص بورود الماء للاستقاء
 لهم ﴿فأدلى دلوه﴾ أي أرسله ودلاه في ذلك الجب فتعلق به يوسف فلما خرج ورآه
 ﴿قال يا بشرى هذا غلام﴾ يبشر به جماعته السيارة . قرأها الجمهور يا بشرى
 بالإضافة إلى ياء المتكلم والكوفيون بدونها وأمال ألفها حمزة والكسائي . ونداء
 البشري معناه أن هذا وقتها وموجبها فقد آن لها أن تحضر ، ومثله قولهم :
 يا أسفا ويا أسفي ، ويا حسرتا ويا حسرتي ، إذا وقع ما هو سبب لذلك . فاستبشر
 به السيارة ﴿وأسرره بضاعة﴾ أي أخفوه من الناس لئلا يدعيه أحد من أهل
 ذلك المكان لاجل أن يكون بضاعة لهم من جملة تجارتهم . والبضاعة ما يقطع
 من المسال ويفرز للتجار به ، مشتق من البضع وهو الشق والقطع ومنه البضعة
 والبضع من العدد وهي من ثلاث إلى تسع والبضعة من اللحم وهي القطعة . وما
 قيل من أن الذين أسروه هم الوارد الذي استخرجه . ومن كان معه دون سائر
 السيارة أو ان الضمير في أسروه لاختوة يوسف فهو خلاف الظاهر ﴿والله عليم
 بما يعملون﴾ أي بما يعمل هؤلاء السيارة وما يعمل إخوة يوسف فليكل منهم
 أرب في يوسف : السيارة يدعون بالباطل أنه عبد لهم فيتجرون به ، وإخوة يوسف
 أمرهم مع أبيهم في إخفائه وتغريبه ودعوى أكل الذئب إياه معلوم وأنه كيد
 باطل . وحكمة الله تعالى فيه فوق كل ذلك

٢٠ ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ شري الشيء يشريه باعه
 واشتراه ابتاعه ، أي باعوه بثمن قليل ناقص عن ثمن مثله على أنه ليس له مثل ، هو
 دراهم لادنابير ، معدودة لاموزونة ، وإنما يعد القليل وبوزن الكثير ، وكانت
 العرب تزن ما يبلغ الأوقية وهي أربعون درهما فما فوقها وتعد مادونها ، ولهذا

يعبرون عن القليلة بالممدودة ، والبخس في اللغة الناقص والمعيب (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) وروي تفسيره هنا بالجرام وبالظلم لأنه بيع حر فيكون وصفه بدرام معدودة مستقلاً لتفسيراً لبخس وظاهر النظم ان الذين شروه هم السيارة وفي سفر التكوين أن اخوته فرروا بيعه للاسماعيليين ، وقد أخرجه من الجب جماعة من مدين وبعوه لهم وقد بعد ذكرهم ، ويحتمل أن يكون لفظ شروه قد استعمل بمعنى اشتروه وهو مسموع ، ويكون المراد أنهم اشتروه من اخوته بثمن بخس ثم باعوه في مصر بثمن بخس أيضاً ، وهو ادماج من دقائق الابهاز ، وأما الثمن البخس الذي بيع به ففي سفر التكوين أنه كان عشرين (شاقلاً) من الفضة وقدر علماء التاريخ القديم الشاقل بخمسة عشر غراماً من الوزن العشري اللاتيني المعروف في عصرنا فيكون ثمنه ٣٠٠ غرام من الفضة وهي تقرب من ٩٤ درهماً من دراهمنا اليوم ، وعن ابن مسعود (رض) أنه عشرون درهماً ولعله سمعه عن اليهود فظن أن العشرين عندهم هي الدرهم عند العرب ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ أي وكان هؤلاء الذين باعوه من الراغبين عنه الذين يفتون الخلاص منه لئلا يظهر من بظالمهم به لانه حر ، والثمن لم يكن مقصوداً لهم ولهذا فتعوا بالبخس منه

حادثة يوسف مع امرأة العزيز

(٢١) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ (٢٢) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

(هاتان الآيتان تمهيد للقصة في وجهة نظر مشترية فيه وتمكين الله وتعليمه وغلبه على أمره وإبتاؤه حكماً وعلماً وشهادته بإحسانه)

٢١ ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه﴾ لم يبين القرآن اسم الذي اشتراه من السيارة في مصر ولا منصبه ولا اسم امرأته لأن القرآن ليس كتاب حوادث وتاريخ ، وإنما قصصه حكم ومواعظ وعبر وتهذيب ، ولكن وصفه الذسوة فيما يأتي بلقب العزيز وهو اللقب الذي صار لقب يوسف بعد أن تولى إدارة الملك في مصر فالظاهر أنه لقب أكبر وزراء الملك ، ولما فسر بين أقوال في اسمه واسمها واسم ملك مصر ليس للقرآن شأن فيها . وفي سفر التكوين أنه كان رئيس الشرط وحامية الملك وناظر السجون ، وإن اسمه فوطيفار ، ووصف فيه بالخصي ولكن الخصيان لا يكون لهم أزواج فقيل في تصحيحه له لقب لا يقصد به هذا المعنى . وقد تفرس هذا الوزير الكبير في يوسف أصدق الفراسة إذ أوصى امرأته باكرام مثواه ، والثوى مصدر وامم مكان من ثوى بالمكان يشوي (كرمي يرمي) ثواه أي أقام ، فتضمنت هذه الوصية إكرامه وحسن معاملته في كل ما يختص باقامته بحيث يكون كواحد منهم ولا يكون كالعبيد والخدم ، وعمل ذلك بما يدل على أنه ورجائه فيه وهو ﴿عسى أن ينفعنا﴾ بالقيام ببعض شئوننا الخاصة أو شئون الدولة العامة لما يلوح

عليه من مخايل الذكاء والنباهة ﴿أو نتخذة ولدًا﴾ فيكون قرة عين لنا ، ووارثاً لمجدنا ومالنا ، إذا تم رشده وصدقت فراستي في نجاته ، وفهم من هذا الرجاء أن العزيز لم يكن له ولد وما كان يرجو أن يكون له ، وروي أنه كان عقيماً وكان رجاءه هذا كرجاء امرأة فرعون موسى فيه من بعده ، وكانت صالحة ملهمة ، وأما العزيز فكان ذكياً صادقاً فاستدل من كمال خلق يوسف وخلقته ، وذكائه وحسن خلاله ، على أن حسن عشرته وكرمه وفادته وشرف تربيته ، خير متمم لحسن استعداده الفطري ، إذ لا يفسد أخلاق الأذكاء إلا البيئة الفاسدة وسوء

القدوة ، وما كان الا صادق الفراسة ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الارض ﴾ أي وعلى هذا النحو من التدبير والتسخير جعلنا ليوسف مكانة عالية في أرض مصر كان هذا العطف عليه والرجاء فيه من هذا الميز مبدأها ليقع له في بيته ثم في السجن ما يقع من التجارب والاتصال بساقي الملك فيكون وسيلة للوصول اليه ﴿ ولنعلمه من تأويل الاحاديث ﴾ كتعبير الرؤيا ومعرفة حقائق الامور ما ينتهي به إلى الغاية من هذا التمكين ، وقوله للملك (اجعلني على خزائن الارض إني حفيظ علمي) وقول الملك له (إنك اليوم لدينا مكين أمين) ﴿ والله غالب على أمره ﴾ أي على كل أمر يريد ويقدره فلا يقاب على شيء منه بل يقع كما أراد ، فكل ما وقع ليوسف من اخوته ومن مسترقه وبانعيه ومن توصية الذي اشتراه لامرأته باكرام مشواه ومما وقع له مع هذه المرأة وفي السجن قد كان من أسباب ما أرادته تعالى له من تمكينه في الارض ، وان كان ظاهره على خلاف ذلك ، ويجه زان يكون المعنى أو الله غالب على أمر يوسف فهو يدبره ويلهمه الخير ولا يكله الى تدبير نفسه واتباع هواه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ انه تعالى غالب على أمره بل يأخذون بظواهر الامور ، كما استدلت اخوة يوسف بابعاده على أن يخلو لهم وجه أيهم ويكونوا من بعد بعده عنهم قوما صالحين . ويقابل الاكثر في هذا المقام يعقوب عليه السلام ، فقد كان يعلم ان الله غالب على أمره ، وأقواله صريحة في الدلالة على علمه ما تقدم منها وما تأخر في هذه القصة ، ولكن علمه كلي إجمالي لا يحيط بتفصيل الجزئيات المحبوة في مطاوي الاقدار كما قلنا من قبل

بدت هذه القصة ببيان إبتاء الله الحكم والعلم ليوسف عند استكمال سن الشباب وبلوغ الاشد ، وان هذا العطاء جزاء منه سبحانه له على إحسانه في سيرته منذ سن التمييز لم يكن مسيئا في شيء قط ، وختمت بشهادته تعالى بما كان من اقتناع العزيز ببراءته من الخطيئة والوثاقت امرأته بها وحدها قال عز وجل :

٢٢ ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ أي رشدته وكمال قوته وشدته باستكمال نموه البدني

والعقلي ﴿ آتيناها حكما وعلما ﴾ أي وهبناه حكما إلهاميا وعقليا بما يعرض له أوعليه

من التوازل والمشكلات مقرونا بالحق والصواب، وعلما لدنيا وفكريا بمخافتي ما يعنيه من الامور، وهذه السن في عرف الاطباء، تتم في خمس وعشرين سنة، ولا اهل اللغة ورواة التفسير فيها أقوال فعن عكرمة أنها ٢٥ سنة وعن ابن عباس أنها ثلاث وثلاثون سنة ولعله أخذ من قوله تعالى في كمال البنية الانسانية (حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة) فجعلها درجتين بلوغ الاشد وبلوغ الاربعين وهي سن الاستواء كما قال في موسى (٢٨ : ١٤) فلما بلغ أشده واستوى آتيناها حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) فالاول مبدأ استكمال النمو العضلي والعصبي والثاني مستواء، وبه يتم الاستعداد للنبوة ووحى الرسالة وقد ثبت عن علماء النفس والاجتماع ان الانسان يظهر استعداده العقلي والعلمي بالتدرج حتى اذا بلغ خمسا وثلاثين سنة لا يظهر فيه شيء جديد من العلم الكسبي غير ما ظهر من بدء سن التمييز الى هذه السن، وإما بكل ما كان ظهر منه اذا هو ظل مزاولا له ومشتغلا بتكميله، وقد بينا ذلك في تفسير قوله تعالى (١٠ : ١٦) فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) وفصلناه في كتاب الوحي الحمدي وقد ظهر حكم يوسف وعلمه

بعد بلوغ أشده في مصر كما يأتي تفصيله في مواضعه ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أي وكذلك شأننا وسنتنا في جزاء المتحلين بصفة الاحسان، الثابتين عليه بالاعمال، الذين لم يندسوا فطرتهم ولم يدسوا أنفسهم بالاساءة في أعمالهم، نؤتيهم نصيبا من الحكم بالحق والعدل، والعلم الذي يزيه ويظهره القول الفصل، فيكون لكل محسن حظه من الحكم الصحيح والعلم النافع بقدر إحسانه، وبما يكون له من حسن التأثير في صفا، عقله، وجودة فهمه وفقهه، غير ما يستفيده بالكسب من غيره، لا يؤتى مثله الميسئون باتباع أهوائهم وطاعة شهواتهم، وقال ابن جرير الطبري: وهذا وان كان مخرج ظاهره على كل محسن فالمراد به محمد ﷺ يقول له عز وجل كما فعلت هذا بيوسف من بعد ما اتى من اخوته ما اتى... فكذلك أفضل بك فانجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وامكن لك في الارض الخ وأقول لاشك ان هذه السنة في جزاء المحسنين عامة ولكل محسن منها بقدر إحسانه، وإذن يكون حظ محمد ﷺ أعظم من حظ يوسف وغيره من الانبياء عليهم السلام

(٢٣) وَرَوَدَتْهُ النَّبِيُّ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ
 وَقَالَتْ: هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا
 يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٤) وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ
 رَبِّي ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ
 (٢٥) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيِّدَهَا لَدَى
 الْبَابِ ، قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ

(مسألة المرادة والهم والمطاردة)

٢٣ ﴿ ورودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ هذه الجملة معطوفة على
 جملة وصية العزيز لامرأته باكرام مشواه وما عللها به من حسن الرجاء فيه ، وما
 بينه الله تعالى من عنايته به وعمهيد سبيل الكمال له بتمكينه في الأرض ، يقول
 ان هذه المرأة التي هو في بيتها نظرت اليه بغير العين التي نظر اليه بها زوجها ،
 وأرادت منه غير ما أراده هو وما أراده الله من فوقهما ، هو أراد ان يكون
 قهرمانا أو ولدا لها ، والله أراد أن يمكن له في الارض ويجمعه سيد البلاد كلها ،
 وهي أرادت ان يكون عشيقا لها ، ورودته عن نفسه أي خادعته عنها ورادغته
 لأجل ان يروا ويريد منها ما تريد هي منه مخالفا لارادته هو وإرادة ربه ، والله غالب
 على أمره ، قال في المصباح المنير : أراد الرجل كذا إرادة وهو الطلب والاختيار ،
 ورودته على الامر مرادة وروادا من باب قاتل طلبت منه فعله وكأن في المرادة
 معنى المحادعة لان المراد يتلطف في طلبه تلطف المحادع ويحرص حرصه وقال الراغب :

المروءة أن تنازع غيرك في الارادة فتريد غير ما يريد ، أو ترود غير ما يرود ، وذكر شواهد الآيات في هذه القصة ومنها قول إخوة يوسف له (سنرود عنه أباه) أي نحتال عليه ونخدعه عن إرادته ليرسل أخاه معنا. وقال في أساس البلاغة: ورواده عن نفسه خادعه عنها وراوغه ، وقال في الكشاف المروءة مفاعلة من راد يرود اذا جاء ، وذهب ، كأن المعنى خادعته عن نفسه أي فعلت ما يفعل الخادع عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده ، يحتمل أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهي عبارة عن التحيل لمواقفته إياها ولو رأت منه أدنى ميل اليها وهي تخلو به في مخادع بيتها لما احتاجت إلى مخادعته بالمروءة ، ولما خابت في التعريض له بالمغازلة والمهازلة ، تنزلت إلى المكاشفة والمصارحة ، إذ كان كل ما سبقه منها وحدها لم يشار كها فيه ، ﴿وغلقت الابواب﴾ أي أحكمت اغلاق باب الخدع الذي كانا فيه وباب البهو الذي يكون أمام الحجرات والغرف في بيوت الكبراء. وباب الدار الخارجي ، وقد يكون في أمثال هذه القصور أبواب أخرى متداخلة ﴿وقالت هيت لك﴾ أي هلم أقبل وبادر ، وزيادة «لك» بيان للمخاطب كما يقولون هلم لك وسقيا لك. واقتصر على هذا في التنزيل ، وهو منتهى النزاهة في التعبير ، والله أعلم بما زادته من الاغراء والتبهيج الذي تقتضيه الحال ، وتقل رواة الاسرائيليات عنها وكذا عنه من الوقاحة ما يعلم بالضرورة أنه كذب فان مثله لا يعلم الا من الله تعالى أو بالرواية الصحيحة عنها أو عنه ولا يستطيع أن يدعي هذا أحد كما يأتي قريبا وهيت اسم فعل قري. بفتح الهاء وكسر هاء مع فتح التاء وبضمها كحيث ، وروي انها لغة عرب حوران ، وكان سبب اختيارها انها أخصر ما يؤدي المراد بأكل النزاهة اللائقة بالذكر الحكيم ، وهو ما لم يقله أولئك الرواة لما يخالفه ويناقضه ﴿قال معاذ الله﴾ أي أعوذ بالله مما ذآ وأحصن به فهو يعيذني أن أكون من الجاهلين الفاسقين ، كما قال بعد ان استعانت عليه بكيد صواحبا من النسوة (وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين)
وجملة قال معاذ الله الخ بيان مستأنف لجواب يوسف مبني على سؤال تقديره : وماذا قال بعد تسفل المرأة وهي سيدته إلى هذه الدركة من التذلل له ؟ وهو كما قالت

مریم ابنة عمران للملك الذي تمثل لها بشرآ سويا (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) وعلل هذه الاستعاذة بقوله ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾ أي إنه تعالى ولي أمری كله أحسن مقامي عنكم وسخركم لي بما وفقني له من الامانة والصيانة فهو يعيذني ويمصني من عصيانه وخيانتكم ، ويحتمل أنه أراد بربه مالكه العزيز في الصورة وان كان حرا مظلوما في الحقيقة . كما يقال رب الدار ، وكان من عرفهم اطلاقه على الملوك والعظماء كما يأتي في قوله عليه السلام لساقى الملك في السجن (إذ كرتي عند ربك) ولكن الله عاقبه انه لم يذكر حيثئذ ربه ، فكان نسيانه له سببا لطول مكثه في السجن كما يأتي ، ثم إنه قال لرسول الملك . اذ جاءه يطلبه لأجله (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم) وعلى هذا القول وقد جرى عليه الجمهور يكون الضمير في « انه » ما يسمونه ضمير الشأن والقصة أي إن الشأن الذي أنافيه هو ان سيدي المالك لرقبتي قد أحسن معاملتي في اقامتي عنكم وأوصاك باكرام مثواي فلن أجزيه على إحسانه بشر الاساءة وهو خيانته في أهله ، وهذا التفسير تمليل لرد مرادتها بعد الاستعاذة باقائه منها ، لان تمليل الاستعاذة نفسها كالأول ، والفرق بينهما دقيق لما بينهما من العموم في الاول والخصوص في الثاني . ثم علل امتناعه بما هو خاص بنزاهة نفسه فقال ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ لانفسهم وللناس كالتخيانة لهم والتعدي على أعراضهم وشرفهم ، لا يفلحون في الدنيا ببلوغ مقام الامامة الصالحة والرياسة العادلة ، ولا في الآخرة بجوار الله ونعيمه ورضوانه . . . وفي جملة الجواب من الاعتصام والاعتزاز بالامان بالله والامانة للسيد صاحب الدار والتعريض بخيانة امرأته له المتضمن لاحتقارها ما أضرم في صدرها نار الغيظ والانتقام ، مضاعفة لنار الغرام ، وهو ما يبينه تعالى بقوله مؤكداً بالقسم لانه مما ينكره الاخيار من شرور الفجار :

٢٤ ﴿ولقد همت به﴾ أي وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها ، وهي في نظرها سيدها وهو عبدها ، وقد أذات نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه ، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا مطالبة .

ومراودة عن نفسها لامراودة ، حتى ان حماة الانوف من كبراء الرجال ،
ليطشظون الرءوس لفقيرات الحسان ربات الجمال ، ويذلون لمن مايعترزون به من
الجاه والمال ، بل إن الملوك ليدلون أنفسهم لمملوكاتهم وازواجهم ولا يأبون ان
يسموا أنفسهم عبيداً لمن ، كما روي عن بعض ملوك الاندلس :

نحن قوم تذيينا الاعين النج ل على أننا نذيب الحديد
قترانا لدى الكريهة أحرأ رأ وفي السلم للملاح عبيداً

ولكن هذا العبد العبراني الخارق للطبيعة البشرية في حسنه وجماله ، وفي
جلاله وكاله ، وفي إبانته وتألمه ، قد عكس القضية ، وخرق نظام الطبيعة والعوائد
بين الجنسين ، فأخرج المرأة من طبع أنوثتها في إدلالها وتمنئها ، وهبط بالسيدة المالكة
من عزة سيادتها وسلطانها ، ودهور الاميرة (الارستقراطية) من عرش عظمتها
وتكبرها ، وأذلها لعبدها وخادمها ، بما هو نه عليها : قرب الوساد ، وطول السواد (١)
والخلوة من وراء الاستار والابواب ، حتى انها لتراوده عن نفسه في مخدع دارها ، فيصد
عنها علواً ونفارا ، ثم تصارحه بالدعوة إلى نفسها فيزداد عتواً واستكباراً ، معتزلاً
عليها بالديانة والامانة ، والترفع عن الخيانة ، وحفظ شرف سيده وهو سيدها
وزوجها وحقه عليها أعظم ، ان هذا الاحتقار لا يطاق ، ولا علاج لهذا الغائن
المتنرد إلا تذليله بالانتقام ، هذا ماثار في نفس هذه المرأة المفتونة بطبيعة الحال
(كما يقال) وشرعت في تنفيذه أو كادت ، بأن همت بالبش به في ثورة غضبها ، وهو
انتقام مسمود من مثلها ومن دونها في كل زمان ومكان ، وأكثر بما ترويه لنا منه
قضايا المحاكم وصحف الاخبار ، وكاد يرد صياها ويدفعه بمثله وهو قوله تعالى
﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ ولكنه رأى من برهان ربه في سريرة نفسه ،
ما هو مصداق قوله تعالى (والله غالب على أمره) وهو إما النبوة التي تبلي الحكم
(١) السواد بالفتح شخص الانسان وبالكسر مصدر ساوده اذا ساره فقرب
سواده من سواده أي شخصه من شخصه . والكلمة لابنة الخوص اعتذرت بها عن
نفسها بعد ان فتنت فقيل لها : لم ... وأنت سيدة قومك ؟ فقالتا فارسلتها مثلاً يجب أن
يعتبر به الذين يتساهلون في السماح لنسائهم بالخلوة بالرجال من الخدم فضلاً عن غيرهم

﴿يوسف ص ١٢﴾ صرفه تعالى عنه السوء والفحشاء لانه من عباده المخلصين ٣١

والعلم للذين آتاه الله إياهما بعد بلوغ الاشد ، وشاهده قوله تعالى (قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا) وإما معجزتها كما قال تعالى لموسى في آيتي العصا واليد (فذاتك برهانان من ربك) وإما مقدمتها من مقام الصديقية العليا وهي مراقبته لله تعالى ورؤية ربه متجليا له ناظرا اليه ، وفاقا لما قاله أخوه محمد خاتم النبيين في تفسير الاحسان « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فيوسف قد رأى هذا البرهان في نفسه ، لاصورة آية متمثلة في سقف الدار ، ولا صورة سيده العزيز في الجدار ، ولا صورة ملك يغطه بآيات من القرآن ، وأمثال هذه الصور التي رسمتها أخيلة بعض رواة التفسير المأثور بما لا يدل عليه دليل من اللغة ولا العقل ولا الطبع ولا الشرع ، ولم يرو في خبر مرفوع إلى النبي ﷺ في الصحاح ولا فيما دونها ، وما قلناه هو المتبادر من اللغة ووقائع القصة ، ومقتضى ما وصف الله به يوسف في هذا السياق وغيره من السورة ولا سيما قوله في أوله (وكذلك نجزي المحسنين) وما فسر النبي ﷺ به الاحسان ، وقوله في تمليله ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ أي كذلك فعلنا وتصرفنا في أمره لنصرف عنه دواعي ما أرادته به أخيراً من السوء ، وما راودته عليه قبله من الفحشاء ، بحصانة أو عصمة منا تحول دون تأثير دواعيها الطبيعية في نفسه ، فلا يصيبه شيء يخرج به من جماعة المحسنين الذين شهدنا له بأنه منهم ، إلى جماعة الظالمين الذين ذمهم وشهد هو في رده عليها بأنهم لا يفلحون وشهادته حق

﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ بفتح اللام وهم آباؤه الذين أخلصهم ربهم وصفاهم من الشوائب وقال فيهم (٣٨ : ٤٥) واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولي الايدي والابصار ٤٦ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ٤٧ وانهم عندنا لمن المصطفين الاخير) وقد قلنا في أول القصة ، إن يوسف هو الحلقة الرابعة في سلسلتهم الذهبية ، وإن أباه بشره بذلك بعد أن قص عليه رؤياه إذ قال له (وكذلك يجتبيك ربك) فالاجتباء هو الاصطفاء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (المخلصين) بكسر اللام . والقراءتان متلفتان متلازمتان فهم مخلصون لله في إيمانهم به وحبهم وعبادتهم له ، ومخلصون عنده بالولاية والنبوة والعناية

والوقاية من كل ما يبعدهم عنه ويسخطه عليهم، والجملة تمليل اصرف الله السوء والفحشاء عنه، ولم يقل لنصرفه عن السوء والفحشاء فإنه لم يعزم عليهما بل لم يتوجه اليهما فيصرف عنهما، وهم لأول وهلة يدفع صياها لهم بأمر مشروع وجد مقتضيه مقترنا بالمانع منه وهو رؤيته برهان ربه فلم ينفذه، فكان الفرق بين هما وهمه أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها من خيبتها واهانتها لها فلما رأى أماره وثوبها عليه استعد للدفاع عن نفسه وهم به، فكان موقفهما موقف الموثبة، والاستعداد للمضاربة، ولسكنه رأى من برهان ربه وعصمته ما لم تر هي مثله، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذي تتم به حكمته سبحانه وتعالى فيما أعده له، فلجأ إلى الفرار ترجيحاً للمانع على المقتضي، وتبعته هي مرحلة للمقتضي على المانع حتى صار جزءاً، واستبقا باب الدار، وكان من امرها ما يأتي بيانه في الآيه التالية، ونقدم عليه رأي الجمهور في الهم من الجانبين

﴿ رأي الجمهور في همت به وهم بها وبيان بطلانه ﴾

ذهب الجمهور المحدثون بالروايات إلى أن المعنى انها همت بفعل الفاحشة ولم يكن لها معارض ولا مانع منها، وهم هو بمثل ذلك ولولا أنه رأى برهان ربه لا قترتها، ولم يستح بعضهم أن يروى من أخبار احتياجه وتوكله فيه ووصف انها كإسرافه في تنفيذه، وتهتك المرأة في تبذلها بين يديه، ما لا يقع مثله إلا من أوقع الفساق المسرفين المستهترين، الذين طال عليهم عهد استباحة الفواحش وألفتها حتى خلعوا العذار. ونجدوا من جلايب الحياء، وأمسوا عراة من لباس التقوى وحلل الآداب، كما هل مدينة هذا العصر من الرجال والنساء في مواخير البقاء السرية، وما يقرب منه في حمامات البحر الجهرية، حتى كادوا يعيدون للعالم فجور مدينة (بومباي) الرومانية، التي خسف الله بها وأمطر عليها من براكين النار مثلها أمطر على قرية قوم لوط من قبلها، فان مثل هذا الذي اقتروه في قصة هذا النبي الكريم لا يقع مثله من ابتلي بالعصية أول مرة من سليمان الفطرة، ولا من سدج الاعراب الذين لم تغلبهم صورة الشهوة الجالحة على حياتهم الفطرية وإيمانهم وحياتهم من نظر ربهم اليهم.

فضلا عن نبي عصمه الله ووصفه بما وصف وشهد له بما شهد، وقد بلغ بعضهم (كالسدي) الجهل بالدين والوقاحة وقلة الادب ان يزعموا ان يوسف عليه السلام لم يبرهانا واحدا بل رأى عدة براهين من رؤية والده متمثلا له منكر عليه ، وتكرار وعظه له ، ومن رؤية بعض الملائكة ونزولهم عليه باشد زواجر القرآن بايات من سورة ، فلم تنهنه من شبقه ، ولم تنهه عن غيه ، حتى كان أن خرجت شهوته من أظفاره ، ومعنى هذا أنه لم يكف إلا عاجزاً عن الامضاء ، أفبهذا صرف الله عنه سوء والفحشاء ، وكان من عباد الله المتخلصين ، وأنبيائه المصطفين المحبتين الاخيار ؟

ولئن كان عقلاء المفسرين أنكروا هذه الروايات الاسرائيلية الحمقاء ، حماية لعقيدة عصمة الانبياء ، فانه لم يكذب أحد من تأثير بعضها في أنفسهم ، وتسليمهم لهم ان الهمم من الجانبين كان بمعنى العزم على الفاحشة ، إلا من خالف قواعد اللغة فقال ان قوله تعالى (وهم بها) جواب لقوله (لولا أن رأى برهان ربه) ومن قال إن جوابه محذوف دل عليه ما قبله ، فهو على هذين القولين لم يهيم بشيء ، وهو خلاف المتبادر من العبارة أو ظاهرها ، وتأوله بعضهم بأن همم بالفاحشة بمقتضى الداعية الفطرية لا يتنافى العصمة وإنما يتنافى طاعتها بدليل ما صحح في الحديث ان من همم بسيئة ولم يفعلها لم تكتب عليه ، وان امتناعه عنها بترجيح داعية الايمان وطاعة الله تعالى مع طغيانها وإلحاحها الطبيعي عليه أدل على الايمان والطاعة من كونه لم يفعلها كراهة لها وعزوفها عنها لقبحها ، ولهم تأويلات من هذا ولقد كانوا لولا تأثير الرواية في غنى عنها ،

والتأويل الاخير أوله مقبول وآخره مردود ، فهنا مرتبتان إحداهما الكف عن المصيبة جهاداً للنفس وكبحها خوفاً من الله تعالى ، وهي مرتبة الصالحين الابرار ، ومرتبة الكراهة لها والاشتمزاز منها حياء من الله ومراقبة له واستغراق في شهوده ، وهي مرتبة الصديقين والنبيين الاخيار ، الذين اذا عرضت لهم الشهوة المستلذة بالطبع ، بالصورة المحرمة في الشرع ، عارضها من وجدان الايمان ، وتجلي الرحمن ، ما تغلب به روحانيتهم الملكية ، على طبيعتهم الحيوانية ، وهذا مما قد يحصل لمن دون الانبياء منهم ، فكيف بمن يرون برهان ربهم بأعين قلوبهم ، وينعكس نوره عن

بصائرهم فيلوح لأبصارهم ، كما أشرنا اليه في تفسيره آنفا ؟
ولهذه المرتبة درجات منها فقد الشهوة الطبيعية في هذه الحال ، أو فقد الشعور
بالقدرة على وضعها في الموضع المحرم مع وجودها على أشدها ، ولا عجب فقوى
النفس وانفعالها الوجدانية تتنازع فيقلب أوقواها أضعفها . حتى ان من الاباحيين
والاباحيات من أهل الحرية الطبيعية من يملك في مثل تلك الخلوة منع نفسه أن
يبيحها لمن يراوده عنها ، لا خوفاً من الله ولا حياء منه لانه غير مؤمن به أو بمقابله ،
بل وفاء لزوج أو عشيق عاهدته على الاختصاص به فصدقه

حدثنا مصور سوري كان زير نساء فاسق أنه كان في بعض الولايات المتحدة
الامريكانية فأعلن في بعض الجرائد أنه يطلب امرأة جميلة لاجل أن يصورها كما
يشاء يجعل معين من المال وهذا معهود عند الافرنج ، فخاضه عدة من الحسان اختار
إحداهن وخالها في حجرته الخاصة وأوصد بابها ، وأمرها بالتجرد من جميع ثيابها ،
فتجردت فطفق يصورها على أوضاع مختلفة من انتصاب وانحناء ، وميل والتواء ،
وإقبال وإدبار ، وهو لا يفكر في غير إتقان صناعته ، فعرض لها دوار في رأسها ،
فجلست على أريكة للاستراحة فجلس بجانبها ، وأنشأ يلاعبها ويداعبها وهي ساكنة
ساكنة ، فتذبذبه في نفسه من الشعور ما كان غافلا أو نائما ، فراودها عن نفسها ،
فتمنعت بل امتنعت ، فعرض عليها المال فأعرضت ، فقال لها أنت حرة في نفسك
ولكنني أرجو منك أن تجيبيني عن سؤال علمي هو ما بيان سبب هذا الامتناع ؟
قالت سببه أنني عاهدت رجلا يحبني وأحبه على أن يكون كل منا للآخر لا يشرك في
الاستمتاع به أحداً ، ولا يبتغي به بدلا ، فقال لها اني أهنتك وأحترم وفاءك
هذا ، ثم أتم صناعته ونقدها للجعل المعين فأخذته وانصرفت

والراجح عندي ان هذه المرأة لم تشته موآاة هذا الرجل فتجاهد نفسها على
الامتناع ، وان المانع من اشتهاه توطين نفسها على الوفاء لعشيقها الاول حتى لم تعد
تتوجه الى الاستمتاع بغيره ، وتوجيه النفس الى الشيء أو عنه هو صاحب السلطان
الأعلى على الارادة ، وتربية الارادة هي أصل التخلق بالفضائل والتخلي عن
الذائل باتفاق الحكماء والصوفية ، ويسمي هؤلاء سالك طريق الحق مريداً ،

والواصل إلى غايته مرادا ، أي مجتبي مختارا ، وهو لا يكون على كماله الا لاصحاب
 الايمان اليقيني الوجداني ، ومن ذاق عرف ، ومن حرم منحرف ، كما قال استاذنا
 في رسالة التوحيد ، ولقد عجبنا أن أنكر علينا بعض المحرومين عن هذا من
 فعدم بحق من الصالحين قولنا في المقصورة الرشيدية فيمن امتنع من رقية صدر
 فتاة حسناء: أنت فتى خاف مقام ربه مازال ينهى نفسه عن الهوى
 لم يقترف فاحشة قط ولم يعزم ولا هم بها ولا نوى
 بفرقة منها وصغو نية في معزل تشبهه اقصى ما اشتهى
 مما يمينه به شيطانه من حيث لا يطمع منه في خنا
 لكنه استمصم راوبا لها ما امر الله به وما نهى

لاذن المنكر فيه انه فضل نفسه على يوسف عليه السلام ، وأين هذا من ذلك*
 وجملة القول ان أعظم مزايا البشر في قوة الارادة فلولها لكان الانسان
 كالحيوان الاعجم عبد الطبيعة ، ولذلك كانت المرادة احتيالا لتحويل الارادة
 وجعلها خاضعة للاراد ، وإنما يظفر فيها من كانت إرادته أقوى ، وفوق ذلك
 عناية الله تعالى (فتأمل وتدبر)

فاذا كان في أهل الاباحة والحرية المطلقة من تملك إرادتها ولا تلين لمرادها ،
 ولا يغيرها المال وهو العبود الاكبر لامثالها في بلادها ، فيحملها على نقض عهدها
 في مثل تلك الخلوة وذلك التجرد بين يدي مصورها ، ولقد كان من أجل الشباب ،
 وأبرعهم في تصبي النساء ، أفىكثر أو يستغرب في رأي أولئك الرواة أن يكون
 يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم في وراثته الفطرية والادبية ومقام النبوة
 عن آباؤه الاكبرين ، وما اختصه به ربه وكونه هو الغالب على أمره من تربيته وعنايته ،
 وما شهد له به من العرفان والاحسان والاصطفاء ، وما صرف عنه من دواعي
 السوء والفحشاء ، وما قص علينا من شهادة تلك المرأة له على نفسها بقولها (ولقد
 راودته عن نفسه فاستمصم) أي استمسك بعروة العصمة الوثقى التي لا انفصام
 لها ، ثم ما شهد له به صواحبا من المراديات من قولهم (حاش لله ما علمنا عليه
 *) راجع هذه المسألة في ص ٥٤٥ من جزء التفسير التاسع وما قبلها وما بعدها

من سوء) أي ادنى شيء سيء، ثم ما بدت به شهادتهن من قولها (الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) أي أكثر عليه أو يستغرب منه أن يكون أملاك لنفسه من تلك المرأة الاباحية، أو بمنجاة من الهم الذي زعموه، وصوروه بشر ما تصوروه، أو بما صوره لهم مظلوم من زنادقة اليهود ليلبسوا عليهم دينهم، ويشوهوا به تفسير كلام ربهم؟ ثم يكون منتهى شوط المنكرين عليهم أن يتأولوا تفسيرهم تأويلاً، والقرآن يتبرأ منه بلفظه وأسلوبه وأدبه وهدايته والعبرة المرادة منه لخاتم رسله والمؤمنين به، ولا يعزرك إسناد تلك الروايات إلى بعض الصحابة والتابعين، فلو لم يكن لنا من الأدلة على وضعها عليهم أو تصديقهم لقول بعض اليهود فيها إلا بطلان موضوعها في نفسه، وكونه من علم الغيب في القصة التي لم يعلم رسول الله منها غير ما قصه الله عليه في هذه السورة كما صرح به في الآية (١٠٢) آخرها - لو لم يكن لنا من أدلة وضعها غير هذا لكفى، فكيف وهي مخالفة للقرآن في لفظه كمتخالفها له في هدايته أيضاً

رد قول الجمهور في تفسيرهما وهمه عليه السلام

فأنا أرد على جميع من فسروا هم المرأة بغير ما اخترته لاهمه وحده، وأقول لولا الغرور بالروايات الباطلة لم يخطر لاحد منهم غيره، أرد عليهم بعبارة القرآن في مدلولها اللغوي فهو حجة عليهم فأقول:

أجمع أهل اللغة على أن الهم إنما يكون بالأعمال، لا بالشخص والاعيان، وتحقيق معناه أنه مقارنة فعل تعارض فيه المانع والمقتضي فلم يقع رجحان المانع وهو الموافق لقول علماء الاصول في التعارض الأعم، ولكن رجحان المانع هنا قد يكون بإرادة صاحب الهم ومنه هم يوسف، وقد يكون من غيره ومنه هم هذه المرأة: كان ههما واحداً وهو البطش بالضرب أو ما في معناه، وكان المانع منه إرادته هو وعجزها هي بهربه، وهاك الشواهد على القسمين

حكى الله عن المشركين في سورتي الانفال والتوبة أنهم (هموا باخراج الرسول ﷺ من بلده مسكته ولكنهم لم يفعلوا لانهم خافوا ان يستجيب له غيرهم من العرب فيقوم امره فرجحوا المانع بإرادتهم، وحكى عن المنافقين أنهم (هموا بما لم ينالوا) إذ حاولوا أن

يشر دوا به بعيره في العقبة منصرفه من غزوة تبوك ، فلم بناو امرادهم عجزا منهم وحفظا من ربه له صلى الله عليه وسلم وفي معناه قوله تعالى له (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك) ولكنه قدم هنا لولا فكان دليلا على أنهم فكروا في ذلك وما قاربوا . وقال في بعض المؤمنين (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) أي تتركوا المضي مع الرسول للقتال يوم أحد جينا واتباعا لعبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين ، ولكن غلب عليهما داعي الايمان فلم تفشلا وهو المعبر عنه بقوله تعالى (والله وليهما) فرجعنا المانع من الفشل بالمقتضي للجهاد

وفي المسند والصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم هم أن يأمر رجلا يصلي بالناس ثم يأمر من يحرق على المتخلفين عن صلاة الجمعة بيوتهم - وفي حديث أبي هريرة عند أبي داود والترمذي « ثم آتي قوما يصلون في بيوتهم ليست بهم علة فأحرقها عليهم » يعني صلى الله عليه وسلم أنهم يستحقون هذا حتى كاد يفعله ولكنه امتنع ترجيحا للمانع على المقتضي

إذا علم هذا فن الجلي أنه لا يصح تفسير (ولقد همت به) بهذا المعنى الذي أثبتناه بشواهد الكتاب والسنة الا بما قررناه ، وان مقاله الجمهور باطل لمخالفته له ، بل للغة القرآن وهدايتيه ، وإنما خدعتهم به الروايات الباطلة ، وبيانه من وجوه (أولها) ان الهم لا يكون الا بفعل للهام والوقاع ليس من أفعال المرأة فتهم به وإنما نصيها منه قبوله ممن يطلبه منها بتمكينه منه ، وهذا التمكين هو الذي يثبت به دخول الزوجية الذي تستحق فيه المرأة النفقة من زوجها كما هو مقرر في الفقه (ثانيها) أن يوسف عليه السلام لم يطلب من امرأة العزيز هذا الفعل فيسمى قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه منه بما لها ، فان نصوص الآيات قبل هذه الآية وبمدها تبرئته من ذلك بل من وسائله ومقدماته أيضا ، (ثالثها) لو أن ذلك وقع لكان الواجب في التعبير عنه ان يقال : « ولقد هم بها وهمت به » لان الاول هو المقدم بالطبع والوضع وهو الهم الحقيقي ، والهم الثاني متوقف عليه لا يتحقق بدونه (رابعها) أنه قد علم من القصة أن هذه المرأة كانت عازمة على ما طلبته طالبا جازما مصرة عليه ليس عندها أدنى تردد فيه ولا مانع منه يعارض المقتضي له ، فاذن

لا يصح ان يقال إنها همت به مطلقاً حتى لو فرض جدلاً انه كان قبولاً لطلبه ومواناة له ، اذ لهم مقارنة الفعل المتردد فيه ، وهو الذي يصح فيما حققناه من إرادة تأديبه بالضرب على أهون تقدير ، فهذا هو المتبادر من نص اللغة ومن السياق وأقربه قوله عز وجل

٢٥ ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أي فر يوسف من أمامها هاربا الى باب الدار يريد الخروج منه للنجاة منها ترجيحاً للفرار على الدفاع الذي لا يعرف مداه ، وبعته تبغي إرجاعه حتى لا يفلت من يدها وهي لا تدري أين يذهب اذا هو خرج ولا ما يقول وما يفعل ، وتكلف كل منهما ان يسبق الآخر ، فادركته ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ إذ جذبته به من ورائه فانقد، قالوا إن القد خاص بقطع الشيء أو شقه طولاً والقط قطعه عرضاً ﴿وَأَلْفَيْهَا سَيْدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ أي وجدا زوجها عند الباب، وكان النساء في مصر يلقبن الزوج بالسيد واستمر هذا الى زماننا ، ولم يقل سيدهما لان استرقاق يوسف غير شرعي وهذا كلام الله عز وجل لا كلام الرجل السرقة له ، ولعنه كان قد تبناه بالفعل ، فلما دخل وراهما في هذه الحالة المنكرة ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أي شيئاً يسوءك مهما يكن صغيراً أو كبيراً كما يدل عليه تنكير (سوءاً) ﴿إِلَّا أَنْ يَسْجُنَ﴾ أي الا سجن يعاقب به ﴿أَوْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ موجه يؤدبه ويلزمه الطاعة . وكان هذا القول مكرراً وخداعاً لزوجها من وجوه (أحدها) إيهام زوجها ان يوسف قد اعتدى عليها بما يسوءه ويسوءها (ثانيها) انها لم تصرح بذنبه لئلا يشتد غضبه فيعاقبه بغير ما تريده كبيعته مثلا (ثالثها) تهديد يوسف وإنذاره ما يعلم به أن أمره بيدها ليخضع لها ويطيعها، فذا قال يوسف في دفع التهمة الباطلة عنه وإسنادها اليها بالحق ؟ ولولاها لاسبل عليها ذيل السترة ؟

(٢٦) قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنَّ

كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) وَإِنْ

كَانَ قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ نَصْدُ قَيْرَ (٢٨) فَلَمَّا
رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِ كَنْزٍ إِنْ كَيْدُ كَنْزٍ عَظِيمٌ
(٢٩) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَأَتَغْفِرِي لِذَنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتِ
مِنَ الْخَاطِئِينَ

﴿ آيات تحقيق زوجها في القضية ﴾

هذه الآيات الأربع في تحقيق القضية وعلم زوجها به براءة يوسف وثبوت
خطيئتها وبدى. ببيان جوابه الصريح المنتظر بعد اتهامها إياه بالتلميح وهو

٢٦ ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدتني عَنْ نَفْسِي ﴾ فامتنت وفررت كما ترى. فصارت
النازلة أو القضية باختلاف قوليهما موضوع بحث وتحقيق وتشاور بين زوجها
وأهلها لم يبين لنا التنزيل تفصيله لأن المقصود من القصة فيه بيان نزاهة يوسف
وفضائله للعبارة بها وإنما علمنا أن هذا وقع بالفعل، كما نعلم أنه كان متوقفاً بحكم
العادة والعقل، من قوله تعالى ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ أي أخبر عن مشاهدة أو
علم كالشاهدة، وقيل حكم مستدل بما ذكر، وقد اختلفوا في هذا الشاهد كعادتهم في
المبهمات التي يكثر فيها التخيل والاختراع هل كان صغيراً أو كبيراً أو حكماً أو من خاصة
الملك أو حيواناً حتى روي عن مجاهد أنه قال ليس بأقربى ولا جان هو خلق من خلق
الله: مع قول الله إنه من أهلها، ولكن الرواية عن ابن عباس وسعيد بن جبير
والضحاك أنه كان صبياً في المهد يؤيدها ما رواه أحمد وابن جرير والبيهقي في
الدلائل عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة
فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم » وابن جرير عن
ابن هريرة قال « عيسى بن مريم وصاحب يوسف وصاحب جريج تكلموا في
المهد » وهذا موقوف والرفوع ضعيف وقد اختاره ابن جرير وحكاه ابن كثير
بدون تأييد ولا رد، وأما هذه الشهادة وفسرها بعضهم بالحكم فهي قوله

﴿ إن كان قبيصه قدم من قبل ﴾ أي من قدام ﴿ فصدقت ﴾ في دعواها انه أرادها سوءاً فإنه لما وثب عليها أخذت بتلابيبه فحاذبها فاتفق قبيصه وهما يتنازعا ويتصارعا ﴿ وهو من الكاذبين ﴾ في دعواه أنها راودته فامتنع ورفقتمته وجذبته تريد

ارجاعه ﴿ وإن كان قبيصه قد من دبر ﴾ أي من خلف ﴿ فكذبت ﴾ في دعواها انه هجم عليها يريد ضربها ﴿ وهو من الصادقين ﴾ في قوله انه فر منها هاربا وهذه الشهادة ظاهرة على التفسير المختار الذي قررناه، ومشكلة على قول الجمهور كما صرح به بعض المدققين

٢٨ ﴿ فلما رأى قبيصه قدم من دبر قال إنه من كيد كن ﴾ أي ان هذا العمل ومحاوله التنصل منه بالأنه من كيد كن المهود منكن معشر النساء ، فهو لم يخص الكيد بزوجه فيقال إنه أمر شاذ منها يجب التروي في تحقيقه بأكثر مما شهد به أحد أهلها ، وهولا يتهم في التحامل عليها وظلمها ، بل هو سنة عامة فيهن في التفضي من خطيئاتهن ، فقد أثبت خطيئتهما مستدلا عليها بالسنة العامة لمن في أمثلهما ﴿ إن كيد كن عظيم ﴾ لا قبل للرجال به ولا يفظنون لحيلكن في دقائقه

قال بعض المفسرين : ولربما القصور منهن القدر المعلى من ذلك لأنهن أكثر تفرغا له من غيرهن ، مع كثرة اختلاف الكيادات اليهن . وههنا يذكر قول تعالى ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ يستدلون به على ان كيد النساء أعظم من كيد الشيطان ، ولا دلالة فيه وإن فرضنا ان حكاية قول هذا أقرار له ، فال مقام مختلف وإنما كيد النسوان بعض كيد الشيطان ، ثم التفت اليها والى يوسف قائلا

﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ الكيد الذي جرى لك ولا تتحدث به ولا تخف من تهديدها لك ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ أيها المرأة وتوبي إلى الله تعالى ﴿ انك كنت من الخاطئين ﴾ أي من جنس المجرمين مرتكبي الخطايا المتعمدين لها

ولهذا غلب فيه جمع المذكر فلم يقل من المخاطبات . وقد استدلل الكرخي بقول هذا الوزير الكبير لوجه على أنه كان قليل الغيرة وسيأتي ما يؤيده ، وزعم أبو حيان في البحر أن هذا مقتضى طبيعة تربة مصر وبيئتها ، وانها لرخاوتها لا ينشأ فيها الأسد ولو دخل فيها لايبقى . وهذا كلام غير مبني على علم صحيح ، فاما سبب عدم نشوء الاسد في هذا القطر فهو خلوه من الغابات والادغال التي يعيش فيها ، وأما كونه اذا أدخل لا يبقى ، فان صح بالتجربة في الماضي فسببه عدم وجود المأوى له ، وهانحن أولاء نرى الاسود والقهود والنور تعيش وتتناسل في حديقة الحيوان بالجزيرة ، وانما أشرنا الى هذا للرد على زاعميه والاطالة فيه ليست من موضوع التفسير

(٣٠) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَمْهَأُ عَنْ

نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَانَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣١) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣٢) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي

فَأَسْتَفْصِمَ ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٣) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٤) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

(٣٥) ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَ جُنَّتْ حَتَّىٰ حِينٍ

(حادثة مكر النسوة بامرأة العزيز ومرأودة يوسف)

هذه الآيات الخمس في حادثة النسوة من كبار بيوتات مصر اللاتي مكرن بامرأة العزيز لتجمعن بهذا الشاب الذي فتنها جماله ، وأذلها عفافه وكاله ، حتى راودته عن نفسه وهو فتاه ، ودعته إلى نفسها فردها وأبأها ، خشية وطاعة لله ، وحفظاً لأمانة السيد المحسن اليه ، أن يخونه في أعز شيء لديه ، لعله يصبو اليهن ، ويجذبه من جماهن الطاريء المفاجيء له ، مالم يجذبه من جماها الذي ألقه قبل أن يبلغ أشده ، وكان نظره اليها نظر الرقيق إلى سيدهته ، أو الولد إلى والدته ، وقد جاءت في السورة بأبداع صورة من الإيجاز والبلاغة ، وأعلى تمبير من الأدب والنزاهة ، وهو :

﴿٣٠﴾ وقال نسوة في المدينة ﴿النسوة جمع قلة للمرأة من غير مادة لفظها ولم يبين لنا التنزيل عددهن ولا أسماءهن ولا صفاتهن لان الفائدة في العبرة محصورة في أن عملهن عمل جماعة قليلة يعهد في العرف اتمارهن وانفاقهن على الاشتراك في مثل هذا المكر المنكر ، في مدينة كبيرة كعاصمة مصر ، التي بلغت منتهى فن الحضارة ، وما تقتضيه من التمتع بالشهوات والزينة ، ولفظ النسوة مفرد مذكر فيجوز تذكير ضميره للفظه وتأنيته لعنايه

ومن غريب فتنه الروايات الباطلة أن يدعي بمضهم أن اللواتي أجبن دعوتها الآتية منهن كن أربعين امرأة ، وهو مردود بالتعبير عن العاذلات كلهن بجمع القلة ، وكذا ما علم بقريظة الحال والمقال من أنهن من بيوتات كبار الدولة ، فان نساء البيوت الدنيا وكذا الوسطى لا يتسامين بعد الانكار على امرأة العزيز كبير وزراء الملك ، إلى الوصول اليها بالمكر والحيلة ، لمشاركتها في فتنها بل نعمتها ، أو سلب عشيقها منها ؛ ويؤيد ذلك ما يأتي من عاقبة حادثتهن ، وكان من الطبيعي المعهود أن يعرفن نبأها معه ، ويكون حديثهن الشاغل لمن في مجالسهن الخاصة ، وكان خلاصته

الوجيزة المؤدية لمراذهن منه ما حكاه التنزيل عنهن وهو قولهن ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾ هذا خير يراد به لازمه وهو التعجب والانكار الصوري من النواحي أو الجهات الأربع (١) كون المتحدث عنها امرأة عزيز مصر وزير الملك الأكبر في علو مركزها (٢) كونها تهين نفسها وتحقر مركزها بأن تكون مراودة لرجل عن نفسه وشأن مثابها إن سخت بعفتها أن تكون مراودة عن نفسها لامراودة لغيرها كما تقدم (٣) أن الذي تراوده عن نفسه هو فتاها ورقيقها (٤) أنها بعد أن افتضح أمرها وعرف به سيدها وزوجها، وعاملها بالحلم، وأمرها باستغفار ربها، لانزال مصررة على ذنبها، مستمرة على مراودتها، وهو

ما أفاده قولهن (تراود) وهو فعل المضارع الدال على الاستمرار ﴿قد شفعتها حبا﴾ أي قد اخترق حبه شفاف قلبها أي غلافه المحيط به، وغاص في سويدائه، فلك عليها أمرها، حتى انها لا تبالي ما يكون من عاقبة تهتكها، واللائق بمقامها الكتمان، ومكابرة الوجدان ﴿إنا نراها في ضلال مبين﴾ أي إنا نراها بأعين بصائرنا وحكم رأينا غائصة في غمرة من الضلال البين الظاهر البعيد عن محجة الهدى والصواب. وهن ما قلن هذا إنكارا للمسكر وكرها للذيلة، ولا حبا في المعروف ونصرا للفضيلة، وإنما قلنه مكرًا وحيلة، ليصل اليها فيحملها على دعوتهن، وإرائتهن بأعين أبصارهن، ما يبطل ما يدعين رؤيته بأعين بصائرهن، فيعذرنها فيما عدلنها عليه، فهو مكر لا رأي

٣١ ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ وكان من المتوقع أن تسمعه لما اعتيد بين هذه البيونات، من التواصل بالزيارات، واختلاف الخدم من كل منها إلى الآخر، وهن ما قلنه إلا لتسمعه فإن لم يصل اليها عفوا، احتلن في إيصاله قصدا، فكان ما أردنه ﴿أرسلت اليهن وأعدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً﴾

أي دعتهن إلى الطعام في دارها ، ومكرت بهن كما مكرن بها ، بأن أعدت وهيات
لهن ما يتكئن عليه إذا جلسن من الكرامى والأرائك وهو المعتاد في دور الكبراء
قال تعالى في صفة الجنة (متكئين فيها على الأرائك) وكان ذلك في حجرة مائدة
الطعام ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ليقطعن به ما يأكلن من لحم أو فاكهة ،
وروي عن بعض مفسري السلف تفسير المتكأ بالطعام الذي يتكأ عليه أي يعتمد
عليه لا جل قطعه كالجامد وتشديد القوام ، دون الرخو كاللوز الناضج من
الفاكهة والحساء من الطعام ، والاتكأ على الشيء هو التمكن بالجلوس عليه
أو الاعتماد عليه باليد أو اليدين ، قال في المصباح المنير : وتوكل على عصاه اعتمد
عليها واتكأ جلس متمكناً وفي التنزيل (وسررا عليها يتكئون) أي يجلسون
وقال (وأعدت لهم متكأ) أي مجلساً يجلسن عليه . قال ابن الأثير : والعامية
لا تعرف الاتكأ إلا الميل في القعود معتمداً على أحد الشقين ، وهو يستعمل في
المعنيين جميعاً ، يقال اتكأ إذا أسند ظهره أو جنبه إلى شيء معتمداً عليه ، وكل
من اعتمد على شيء فقد اتكأ عليه وروى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن
جبير تفسير المتكأ هنا بالاترج أو الأترنج ^١ لأنه لا يقطع إلا بالاتكأ عليه ،

وفي السنة أنه صلى الله عليه وسلم ما كان يأكل وهو متكئ ﴿ ﴿ ﴾ وقالت أخرج عليهن ﴿ ﴿ ﴾
أي أمرت يوسف بالخروج عليهن وكان في حجرة أو مخدع في داخل حجرة
الطعام التي كن فيها محجوباً عنهن ، ولو كان في مكان خارج عنها لقاتل ادخل
عليهن ، فلم من هذا أنها تعمدت أن يفجأهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه
عامة بما يكون لهذه الفجأة من تأثير الدهشة ، وهو ما حكاه التنزيل عنهن من قوله تعالى

(١) الأترج بالجيم المشددة ويقال أترنج وترنج ثم من جنس الليمون الحامض
كبير مستطيل بشكل بطيخ الشام يسمى العوام الكباد (بتشديد الباء) حامضه في
جوفه قليل وسائرهُ يؤكل بعد إزالة قشرة سطحه اللاصقة بحجمه الذي يؤكل إذا نضج

﴿ فلما رأيته أكبره ﴾ أي أعظمه ودهشن لذلك الحسن الرائع ، والجمال البارع ، وغبن عن شعورهن ﴿ وقطن أيديهن ﴾ بدلا من تقطيع ما يأكلن ، ذهولا عما يعملن ، بأن استمرت حركة السكاكين الارادية بعد فقد الارادة على ما كانت عليه قبل فقدها ، ولكنها وقعت على أ كف شمانهن وقد سقط منها ما كان فيها من استرخائها بذهول تلك الدهشة فقطعتها أي جرحتها ، ولولا استرخاؤها لا بانها ، والظاهر ان مضيفتين تمدت جمعها مشحودة فوق العمود في سكاكين الطعام مبالغة في مكرها بهن ، لتقوم لها الحجة عليهن بما لا يستطعن انكاره ، واختلف المفسرون في هذا القطع هل كان قطع إبانة انفصلت به السكف من المعصم أو الاصابع من الكف ؟ أم قطع جرح أطلق فيه لفظ بدء الشيء على غايته من باب المبالغة ، وهو ما يسميه علماء البيان بالمجاز المرسل ؟ الا كثرون على الثاني وهو مستعمل الى اليوم بالارث عن قدماء العرب فيمن يحاول قطع شيء فتصيب السكين يده فتجرحها يقول كنت أقطع اللحم أو الحبل (مثلا) فقطعت يدي ، كأنه يقول كاد ما اردته من قطع اللحم يكون بيدي مما أخطأت ، ولا يقال فيمن جرح عضوا منه أو من غيره كالطبيب قاصدا جرحه إنه قطعه إلا إذا بالغ فيه ، يقال أراد أن يجرح رجله ليخرج منها شظية نشبت فيها فقطعها ، يريد أنه بالغ فكاد يقطعها ، وقد أشار الزمخشري الى مثل هذا القيد في استعمال القطع بمعنى الجرح فقال : كما تقول كنت أقطع اللحم فقطعت يدي يريد فأخطأت فجرحتها حتى كدت أقطعها ﴿ وقن حاش لله (١) ما هذا بشرا ﴾ أي قلن هذا تعجبا وتنزيها لله تعالى أن يكون خلق هذا الشخص العجيب في جماله وعفته من نوع البشر وهو عالم

(١) كلمة حاش لله قرئت في السبع المتواترة بالالف (حاشا) وبدونها على ظاهر رسم المصحف الامام وهي حرف تقييد معنى التبريد والبرائة في باب الاستثناء. يقال أخطأ القوم حاشا زيد وزيدت فيه اللام للخطاب كما تقدم في : هيت لك

يعهد له في الناس مثل، إنه ليس بشرا مثلنا ﴿ إن هذا إلاملك كريم ﴾ أي ما هذا
إلاملك من الملائكة الروحانيين تمثل في هذه الصورة البديعة التي تدهش الابصار
وتغلب الالباب (كما كان يصور لهم صنائعهم الرسامون والنحاتون أرواح الملائكة
والآلهة بالصور والتماثيل لتكريمها وعبادتها) وأحسن كلمة رويت في الآية عن
مفسري السلف قول ابن زيد بن أسلم المدني : أعطتهن أترنجبا وعسلا فكن
يحززن الترنج بالسكين وبأكلته بالمثل ، فلما قيل له : أخرج عليهن خرج فلما رأينه
أعظمته وتهيمن به حتى جعلن يحززن أيدين بالسكين وغيبا الترنج ولا يعقلن ولا
يحسبن الا أنهن يحززن الاترنج قد ذهبت عقولهن مما رأين وقن (حاشا لله
ما هذا بشرا) ما هكذا يكون البشر ما هذا إلاملك كريم اه ففسر قطع الايدي
يحزها والحز أقل ما يحدثه السكين كما فرض في الخشبة ، وهنا يتساءل المتسائلون :
ماذا قالت هن ، وقد غلب مكرها مكرهن ؟ وصار حالها وحالهن كما قال الشاعر :

أبصره عاذلي عليه ولم يكن قبلها رآه

فقال لي لو عشقت هذا ما لامك الناس في هواه

فظل من حيث ايس يدري يأمر بالعشق من نهاء

٣٢ ﴿ قالت فذلكن الذي لمتني فيه ﴾ أي حينئذ قالت لن ما يعلم شرحه
من قرينة الحال ، لما جاء في التنزيل من ايجاز واجمال : اذا كان الامر مارأيتن بأعينكن ،
وما أكبرتن في أنفسكن ، وما فعلتن بأيديكن ، وما قتلتن بأستكن ، فذلكن هو
الامر البعيد الغاية الذي لمتني فيه ، وأسرفتن في عذلي عليه ، إذ قتلتن من قبل ما قتلتن ،
فالشار اليه بكاف البعد هو أمر لومهن لها ، أو يوسف البعيد في حقيقته البديع
في صورته عما تصورونه به ، فما هو عبراني أو كنعاني مملوك ، وخادم صملوك ، قد
شغف مولاته المالك لترقه حبا وغراما ، فهي توأوده عن نفسه ضلالا منها وهياما ،
بل هو أكبر من ذلك وأعظم ، هو ملك روحاني ، نجلى في شكل إنساني ، أو تي

من روعة الجمال ماخلب ألبابكن في الوهلة الاولى من ظهوره لكن ، فاقولكن
 بني أمري معه واقتناني به ، وانما ترعرع في داري ، وبلغ أشده واستوى بين سمي
 وبصري ، فأنا أشاهده في قموده وقيامه ، ويقظته ومنامه ، وطعامه وشرابه ،
 وحركته وسكونه ، وأخوبه في ليلى ونهاره ، فأراه بشراً سوياً ، إنسيا لاجنياً ،
 وجسداً لاملِكاً روحانياً ، فأترامى له في زينتي ، وأعرض على نظره ماظهر وما
 خفي من محاسني ، فيعرض عنها احتقاراً ، فأتصباها بكل ماأملك من كلام عذب
 يخجل اللب ، وابن قول وخشوع صوت يرفق القلب ، فلا يصبو إليّ ، وأمد عيني
 إلى محاسنه جاممة فيها كل ما يكتنه قلبي من صبابة وشوق وخلاعة ، مع فتور
 جفن ، وانكسار طرف ، وطول ترنيق ومحديق ، فلا يرفع إلي طرفاً ، ولا يميل
 نحوي عطفاً ، بل تتجلى فيه الروح الملكية بأظهر مجالها ، والعبادة الالهية بأكل
 معانيها ، أمثل هذا الملك القاهر يسمى عبداً طامعاً ، ومثل هذه المرأة المقهوره
 تسمى سيدة مالكة ، تأمر بل تشير فتطاع ، وينكر عليها ان تراود فترد ، ثم
 تريد إظهار ساطانها فتعجز ؟ لقد انكشف القناع ، فلا أمر لمن لا يطاع

❦ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ❦ أي استمسك بعروة عصمته التي ورثها

عن نشوا عليها ، كأنه يطلب مزيد الكمال منها

هنا أقول : والله ما عجيبي من يوسف أن راودته مولاته فاستعصم وأن
 قالت له « هيت لك » فقال « أعوذ بالله » فكم قال هذا من ليس له مقامه في معرفته
 بالله ومراقبته لله ، وقد روي أن رجلاً راود أعرابية في ليلة ليلاء ، وقال انه
 لا يرانا غير كواكب هذه السماء ، فقالت وأن مكوكبها ؟

وإنما عجيبي بل اعجابي بيوسف عليه السلام أن نظره إلى الله أو نظر الله
 اليه لم يدع في قلبه البشري مكاناً خالياً لنظرات هذه العاشقة التي شغفها حباً ،
 لتصيبها به قبل أن يخونها صبرها فتغفره بمصارحتها ، وان من أقوى غرائز البشر
 حب الانسان لمن يمتقد أنه يحبه ، وان كان مشغول القلب عنه بحب من لا يحبه ، كما قيل

ونظرة المحبوب للمحب والله عن انسان عين القلب
وأما الخالي فلايكاد يسلم من تأثير التعجب في استمائه كما قالت عليّة بنت المهدي
العباسي * تعجب فإن الحب داعية الحب * فالحب أقوى غرائز البشر، وأكبر ما يقين
الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وان من الحب لصادقا وكاذبا، وان من العشق لعذريا
عفيفا، وشهويا فاسقا، وان مفاسده في الحضارة لكبيرة، وان فتنه لعظيمة، وسنعمده
فصلا في باب العبرة بالقصة في اجمال تفسير السورة * ولئن لم يفعل ما أمره * به، أقسم
لكن آكد الايمان، ولتسمع ذلك منه الاذنان * ليسجنن وليكونن من الصاغرين *
أي الأذلة المقهورين، تعني ان زوجها العزيز يعاقبه بما تريد من إلقائه في السجن
وهو المدير له المتولي لأمره، ومن جعله كغيره من العبيد بعد تكريم مثواه وجعله
كولده، وهذا أشد مما أنذرتة أولا إذ قالت لزوجها عند التقائهما به لدى الباب
(ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجنن أو عذاب أليم) هنالك أنذرتة
أحد العقابين : سجن غير مؤكده، أو عذاب أليم منكرة غير معرف، قد يكون ذلك
السجن المطلق بأخف صورته وأقلها، والعذاب المنكر بأهون أنواعه وألطفها
فذاك يجبسه في حجرة من الدار، وهذا بلطمة يحتمد بها ما في خديه من الاحمرار
وهنا أنذرتة الجمع بينهما، وأكدت السجن بالقسم وبنون التوكيد الثقيلة، وفسرت
العذاب بالصغار الذي تأباه الانفس الكبيرة، واكتفت فيه بالنون الخفيفة (١) وهو
أشق على مثل يوسف من العذاب الاليم بالأعمال الشاقة، لانها أهون على كرام الناس
من الهوان والصغار باحتقار النفس، وفعله صغر كتعب، وأما صغر كضخم فهو خاص
بصغر الجسم، ومن الاول قوله تعالى (٢٨:٩) حتى يمطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)
وفي هذا التهديد من ثقة هذه المرأة بسلطانها على زوجها الوزير الكبير على علمه
بأمرها، واستعظامه لكيدها، ما حقه أن يخيف يوسف من تنفيذ إرادتها، ويثبت
عنده عدم غيرته عليها، كما هو شأن كثير من الوزراء المترفين، ولا سيما العاجزين عن
(١) وكتبت في المصحف الامام (وليكونن) بالالف (كنسفا) على حكم
الوقف لشبهها بالتنوين

إحسان أزواجهن، والمحرومين من نعمة الأولاد منهم، وماذا فعل يوسف وما قال وقد علم أن هذه المرأة الماكرة قد عبل صبرها، وهتكت سترها، وكشفت نسوة كبار بلدها بما تسر وما تعلان من أمرها؟ ورأى أنهم توأطأوا معها على كيدها، وراودته عن نفسه كما راودته عن نفسها، وهو توأطؤ لا قبل لرجل به، إلا بمعونة ربه وحفظه

٣٣ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴿١﴾ أي قل: أي ربي، الغالب على أمري، العالم بسري وجهري، أن الحبس والاعتقال في السجن مع المجرمين حيث شظف العيش أحب إلي نفسي وآثر عندي على ما يدعونني إليه هؤلاء النسوة من الاستمتاع بهن في ترف هذه القصور وزينتها، والاشتغال بحبهن عن حبك، وبقربهن عن قربك، وبمقارلتهم عن مناجاتك، وإنما يفسر ويشرح هذا بما يعلم من سياق القرآن، ومن طباع الرجال والنسوان، ومن التاريخ العام، والسنن الاجتماعية والاخلاق والمعادن، وسيرة الصالحين والأنبياء دون حاجة إلى ما لا سند له ولا دليل عليه من الروايات ودسائس الاسرائيليات، ومنه أنه ليس في السجن إلا الاعتبار بأحكام الملوك وأعوانهم من الوزراء والقضاة على من يسخطون عليهم بحق أو بغير حق، مما يزيدني إيمانا بقضائك، وصبراً على بلاتك، وشكراً لنعمانك، وعلما بشئون خلقك، ويفتح لي باب الدعوة إلى معرفتك وتوحيدك، والاستعداد لإقامة الحق، ونصب ميزان العدل، فيما عسى أن تخولني من الامر، إذا مكنت لي كما وعدتني في الارض

هذا ما يتبادر إلى الفهم من توجيه التفضيل في الحب تدل عليه حالة يوسف وسابق قصته ولا حقا بغير تكلف ولا تحكم، كما هو أدبنا في كل ما نفسر به هذه القصة وغيرها، وهو يصدق في جعل اسم التفضيل هنا لا مفهوم له أو على غير بابيه كما يقال، فليس المراد أن ما يدعونني إليه محبوب عندي والسجن أحب إلي منه، وإنما معناه أن هذين الامرين إذا تعارضا وكان لا بد من أحدهما فالسجن آثر وأولى بالترجيح لأن ما فيه من المشقة له فائدة عاجلة، وعاقبة صالحة، وأما مجاهدة هؤلاء النسوة مع المكث معهن، فهو أشق على المؤمن العارف بربه، وليس له من الفائدة والعاقبة ما للسجن، فهو أي اسم التفضيل من قبيل قول المحدثين في بعض الاحاديث الضعيفة

هو أصح ما في هذا الباب ، يعنون أقوى ما فيه وإن كانت كلها غير صحيحة ، بل هو كقوله الآتي (أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار)

وقيل يجوز أن يكون المراد من التفضيل ترجيح الاحب بمقتضى الايمان وحكم الشرع ، على المحبوب بمقتضى العريضة وداعية الطبع ، فإن الانبياء والصلحاء كسائر البشر يحبون النساء ويشتهون الاستمتاع بهن ، ولكنهم يكرهون أن يكون من غير الوجه المشروع ، وشراء الاعتداء على نساء الناس ، ولما قال النبي ﷺ للفقراء « وفي يضع أحدكم صدقة » قالوا يارسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال « أرأيتم اذا وضعها في حرام كان عليه وزر ؟ كذلك اذا وضعها في الحلال كان له أجر » رواه مسلم من حديث أبي ذر . وفي حديث السبعة الذين يظلمهم الله في ظله حيث لا ظل إلا ظله في موقف القيامة « ورجل دعت امرأته ذات جمال ومنصب الى نفسها فقال اني أخاف الله » وهو حديث متفق عليه . وذلك بأن للمرأة ذات المنصب سلطانا على قلب الرجل فوق سلطان الوضعية في طبقتها وان كانت جميلة الصورة فيثقل على طبعه وتضعف ارادته أن يرد طلبها فكيف بها اذا جمعت بين سلطان الجمال وسلطان المنصب ثم ذات له ودعته الى نفسها ؟

(فان قيل) إن المرأة إذا ابتدأت نفسها فبذاتها الرجل بذلا ، وتحول دلتها عليه مهانة وذلا ، فانه يحتقرها ، وتتحول رغبته فيها رغبة عنها (١) وكلما تمتعت عليه ازداد حبا لها وشوقا اليها ، كما قال الشاعر :

(١) قد جرى بحث علمي خلقي في هذه المسألة في محفل أدبي من استاذي المدارس فقلت انني استغرب أن يهبط فساد الفطرة البشرية ببعض الفساق فيقودهن الى مواخير البغاء كيف لا يقرفون من رؤية من فيها وإن تصور حالهن أو رؤية تبذلن لتحقيق بأن ينفر الطبع السليم من جنس النساء ، فقال استاذ خبير بحال هذه الطبقات صار بعد ذلك من كبار رجال وزارة المعارف : إن افسدهؤلاء الفاسقين الأزدلين فطرة لا يكاد يغشى هذه المواخير الا وهو سكران ، لا يشعر بشيء يمتاز به الانسان على الحيوان ، وانما اذكر امثال هذه المسائل في تفسير القرآن الشريف لانه هداية وعبرة لجميع المكلفين فيجب أن يكون للدعاة الى هدايته علم بكل ما ابتلوا به من فساد في الجملة ، وهذه السورة من سوره هي المبينة للقذوة العليا في موضوع افتتان الرجال بالنساء والنساء بالرجال .

منعت شيئاً فأكثر الولوع به أحب شيء إلى الإنسان ما منعا

(قنا) نعم إن هذا مقتضى الطبع السليم كما أن رد ذات الجمال والمنصب من ضعف الرجل أمام المرأة، ولكن المرادة قلما تبلغ من هؤلاء حد الوقاحة في الصراحة فتكون منفرة، وقد علمت أنها احتيال ومراوغة لتحويل الإرادة، وإن لنساء الأكارب في الأمصار التي أفسدتها الحضارة كيداً فيها وخداعاً، وإن لأستاذهن الشيطان مسالك من إغواهن والاعواء بهن بخرافى الرجال تجاهها صريماً، ولكن عباد الله المحلصين ليس له عليهم سلطان، وعناية ربهم بهم تغلب غوايته ومكر النسوان، وقد لجأ يوسف عليه السلام إلى هذه العناية، إذ عرض له كيد بضع نسوة من ذوات الجمال والمنصب لا بضاعتهن إلا أبضاعهن، فقال ﴿وإن لا تصرف عني كيدهن أصب إليهن﴾ يعني إن لم تحول عني ما ينصبه لي من شرك الكيد، ويمدده من شباك الصيد، لم أسلم من الصبوة إليهن، وهي الميل إلى موافقتهن على أهوائهن، يقال صبا يصبو صبواً وصبوة إذا مال إلى اللهو وما يطيب للنفس من اتباع الهوى، ومنه ريح الصبا وهي التي تهب على بلاد العرب من مشرق الشمس لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها، حتى أن تغزل شعرانهم بها ليضاهي، تغزلهم بعشيقاتهم رقة وصبابة، ولا سيما إذا اقترنا وامتزجا كقول بعضهم:

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه فقد كاد رباها يطير بلبه

وإيا كما ذاك النسيم فإنه إذا هب كان الوجد أيسر خطبه

﴿وأكن من الجاهلين﴾ أي من صنف السفهاء الذين تستخفهم أهواء النفس فيمملون السوء بجهالة وهي بخالف مقتضى الحلم والأناة، أو مقتضى العلم والحكمة، فإن من يعيش بين أمثال هؤلاء النسوة الماكرات المثلي لا مفر له من الجهل إلا بصمتك وحفظك بما هو فوق الأسباب المعتادة، وهذا نص صريح منه (ع.م) بأنه ما صبا إليهن، ولا أحب أن يعيش معهن، وإنما بين مقتضى الاستهداف لكيد هؤلاء النساء، وسأل ربه أن يديم له ما عوده في قوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء).

٣٤ ﴿فاستجاب له ربه﴾ مادعاه به وطلبه منه الذي دل عليه هذا الابتهال

والالتجاء اليه وطوى ذكره إيجازاً ﴿فصرف عنه كيدهن﴾ فلم يصب اليهن ،
 فيحتاج إلى جهاد نفسه لكفها عن الاستمتاع بهن ، وعصمه أن يكون من الجاهلين
 باتباع هواهن ﴿إنه هو السميع﴾ المحيب لمن أخلص له الدعاء ، جامعا بين مقامي
 الخوف والرجاء ﴿المليم﴾ بصدق إيمانهم ، وما يصلح من أحوالهم ، فمطف
 استجابة ربه له وصرف كيدهن عنه بالفاء الدالة على التعقيب وتعليلها بأنها مقتضى
 كمال صفتي السمع والعلم ، دليل على أن ربه عز وجل لم يتخل عن عنايته بتربيته ،
 أقصر زمن يهتم فيه بأمر نفسه ومجاهدته ، ومؤيد لقوله تعالى في أول سياق هذه
 الفتنة (والله غالب على أمره)

٣٥ ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات﴾ بدأ هذه من البداء (بالفتح) لا من
 البدو المطلق ، أي ثم ظهر لهم من الرأي ما لم يكن ظاهرا من قبل ، ومنه كلمة سيدنا علي
 البليغة [فا عدا مما بدا] أي فا عداك و صرفك عما كنت فيه مما بدا لك الآن وكان
 خفيا عنك قبله ، ولذلك عطفت الجملة بضم التي تفيد الانتقال مما كانوا فيه الى طور
 جديد بعد التشاور والتروي في الامر ، وضمير [لهم] يرجع الى أهل دار العزير
 وامرأته ومن يعنيه أمرها كالشاهد الذي شهد عليها من أهلها ، والمراد بالآيات
 مشهوده واختبروه من الدلائل على أن يوسف انسان غير الأنامي التي عرفوها في
 عقيدته وإيمانه وأخلاقه من عفة ونزاهة واحتقار للشهوات والزينة والإيراف المتبع
 في قصور هذه الحضارة ، ومن عنايته ربه الواحد الأحد به كما يؤمن ويعتقد ، فمن هذه
 الآيات أن تغتن سيدته في مرادته لم يحدث أدنى تأثير في جذب خلسات نظره ،
 ولا في خفقات قلبه ، بل ظل معرضا عنها متجاهلا لها ، حتى اذا ما صارحت بكلمة
 [هيت لك] أقشع جلده ، واستعاذ بربه ، رب آبائه الذين يفتخر باتباع ملتهم ،
 وعيرها بالخيانة لزوجها (ومنها) أنها لما غضبت وهمت بالبطش به هم بمقاومتها
 والبطش بها وهي سيدته ، وما منعه من ذلك الا ما رأى من البرهان في دخيلة نفسه ،
 مؤيدا لما يعتقده من صرف ربه السوء والفحشاء عنه (ومنها) أنها لما أهمت

بالتعدي عليها وأرادوا التحقيق في المسألة شهد شاهد من أهلها هو جدبر بالدفاع عنها ،
يعا تضمن الحكم عليها بأنها كاذبة في اتهامها إياه بإرادة السوء بها ، وأنه صادق فيما
ادعاه من مرادتها إياه عن نفسه (ومنها) مسألة انتشار خبرها معه وخوض نساء
المدينة في افتتانها به وإذلال نفسها ببذلها له مع إعراضه عنها (ومنها) مسألة أمكر هؤلاء
النسوة وأعمقهن كيداً معه ، إذ حاولن رؤيته وتواطأن عن مرادته ، ودهشتن مما
شاهدن من جماله ، حتى قطعن أيديهن بدلا مما في أيديهن وهن لا يشعرن . فجميع
هذه الآيات تثبت أن بقاءه في هذه الدار بين ربته وصديقاتها من هؤلاء النسوة مشار
مفتنة للنساء لا ندرك غايتها ، وإن الحكمة والصواب في أمرها هو تنفيذ رأيها الأول في
سجنه - وإن كانت سيئة النية ماكرة فيه - لا إخفاء ذكره ، وكف أسنة الناس عنها في

أمره ، فأقسموا ^١ ليسجننه حتى حين ^٢ أي إلى أجل غير معين حتى يكونوا
مطلقين الحرية في طول مكثه وقصره وإخراجه ، ويروا ما يكون من تأثير السجن
فيه وحديث الناس عنه . وهذا القرار يدل على أن هذه المرأة كانت مالكة لقياد
زوجها الوزير الكبير تقوده بقرنيه كيف شاء هواها ، وأنه كان فاقدا للغيرة
كأمثاله من كبراء الدنيا صغار الأنفس عبيد الشهوات . وقد أعجبني فيه قول
الزمخشري على قلة ما أعجبني من أقوال المفسرين في هذه القصة التي شوهتها عليهم
الروايات الامراتيلية المخترعة والعناية باعرايها . قال في تفسير مارأوا من الآيات:
وهي الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا باستئصال المرأة لزوجها ، وقتلها منه
في الذروة والغارب ^(١) وكان مطواعها ، وجملا ذلولا زمامه في يدها ، حتى أنساه

(١) مثل يضرب لمن يتلطف في خداع غيره حتى يتمكن من تدليله وقياده ، والذروة
بالكسر والضم أعلى الشيء والمراد هنا أعلى سنام البعير ، والغارب ما بين العنق والسنام
منه وهو الذي يلقي عليه الحطام وهو بالكسر جبل يوضع في عنقه ويثنى في خطمه
أي أنه ليقاد به بسهولة . وأصل هذا القتل فيها ان يجسي الرجل بالحطام فيخفيه
عن البعير لئلا يمتنع من وضعه ويأخذ بقتل ذروته وغاربه فيلذ له ذلك حتى يأنس به
فاذا تمكن منه وضع له الحطام وقاده به فاقتاد

ذلك ما عين من الآيات ، وعمل برأيها في سجنه لالحاق الصغار به كما أوعدته ،
وذلك لما أيست من طاعته ، وطمعت في أن يذلل السجن ويسخره لها اه
وجملة القول في هذه الحادثة ان يوسف (ع.م) كان أكمل مثل للعفة والصيانة
والامانة من أولها الى آخرها ، وهي في سفر التكوين ناقصة ومخالفة لما هنا في
دعوى المرأة ، والله اعلم من مؤلف سفر التكوين المجهول بما كان وبما ينفع الناس*
﴿

﴿ عبارة سفر التكوين في الحادثة من الاصحاح ٣٩ ﴾

*) وحدث بعد هذه الامور أن امرأة سيده رفعت عينها إلى يوسف وقالت :
اضطجع معي ٨ فأبى وقال لامرأة سيده هوذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت
وكل ماله قد دفعه إلى يدي ٩ ليس هو في هذا البيت أعظم مني . ولم يمسك عني
شيئا غيرك لانك امرأته . فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطي إلى الله . ١٠ وكان
اذ كلمت يوسف يوما فيوما انه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها
١١ ثم حدث نحو هذا الوقت انه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من
أهل البيت هناك في البيت ١٢ فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معي . فترك ثوبه
في يدها وهرب وخرج الى خارج ١٣ وكان لما رأت انه ترك ثوبه في يدها وهرب
الى خارج ١٤ انها نادت أهل بيتهما وكلمتهم قائلة : انظروا قد جاء الينا برجل
عبراني ليداعبنا دخل الي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم ١٥ وكان لما سمع
اني رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبني وهرب وخرج الى خارج
١٦ فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته ١٧ فكلمته بمثل هذا الكلام
قائلة دخل الي العبد العبراني الذي جئت به الينا ليداعبني ١٨ وكان لما رفعت صوتي
وصرخت انه ترك ثوبه بجانبني وهرب الى خارج
١٩ فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام
صنع بي عبدك ان غضبه حيي ٢٠ فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن
المكان الذي كان اسرى الملك محبوسين فيه . وكان هناك في بيت السجن
٢١ ولكن الرب كان مع يوسف وبسط اليه لطفًا وجعل نعمة له في عيني
رئيس بيت السجن ٢٢ فدفع رئيس بيت السجن الى يد يوسف جميع الاسرى
الذين في بيت السجن . وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل ٢٣ ولم يكن
رئيس بيت السجن ينظر شيئًا البتة مما في يده لان الرب كان معه ومهما صنع كان
الرب ينجحها اه

(٣٦) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي
 أَعْصِرُ خَمْرًا، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ
 الطَّيْرُ مِنْهُ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) قَالَ
 لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا
 ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
 وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٨) وَاتَّبَعَتْ مِثْلَةَ آبَائِي إِذْ هُمْ
 وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَٰلِكَ مِنْ
 فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

(سيرة يوسف عليه السلام في السجن)

هذه الآيات الثلاث في إظهار معجزة النبوة ، والتمهيد لدعوة الرسالة

٣٦ ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ هذا عطف على مفهوم ما قبله أي فسجنوه
 ودخل معه السجن بتقدير الله الخفي الذي يعبر عنه جاهلوه بالمصادفة والاتفاق :
 فتيان مملوكان تبين فيما بعد انها من فتيان ملك مصر . روي عن ابن عباس ان
 أحدهما خازن طعامه والآخر ساقبه ، فماذا كان من شأنه معهما ؟ ﴿ قال أحدهما
 إني أراي أعصر خمرا ﴾ أي رأيت في المنام رؤيا واضحة جلية كأنني أراها في اليقظة
 الآن وهي اني أعصر خمرا ، أي عنبا ليكون خمرا لا يشرب الآن ، وقراءة ابن
 مسعود وأبي في الشواذ «عصر عنبا» تفسير لا قرآن ، وما كل العنب يمصر لأجل
 التخمير فما نقل من أن عرب غسان وعمان يسمون العنب خمرا فمحمول على هذا النوع
 المحصوص منه لكثرة مائه وسرعة اختاره ، دون ما يؤكل في الغالب تفكها لكبر

حجمه واكتناز شحمه وقلة مائه، ولكل منهما أصناف ﴿وقال الآخراني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه﴾ الطير جمع واحده طائر، وتأنيثه أكثر من نذ كبره، وجمع الجمع طيور وأطيبار ﴿نبشنا بتأويله﴾ أي قال له كل واحد منها نبشني بتأويل ما رأيت، أي بتفسيره الذي يؤول اليه في الخارج إذا كان حقاً لا من أضغاث الأحلام، ويصح إعادة الضمير المفرد على الكثير كاسم الإشارة بمعنى المذكور أو ما ذكر، ومنه قول الراجز: فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجسم توليع البهق

﴿إنا نراك من المحسنين﴾ عللوا سؤالهم إياه عن أمرهم بهم ويعينهم دونه، برؤيتهم إياه من المحسنين بمقتضى غريزتهم الذين يريدون الخير والنفع للناس وإن لم يكن لهم فيه منفعة خاصة ولا هوى، وقيل من المحسنين لتأويل الرؤى، وما قالوا هذا القول إلا بعد أن رأوا من سعة علمه وحسن سيرته مع أهل السجن ما وجه إليه وجوهها، وعلق به أملهما. وهذا من إيجاز القرآن الخاص به

أقرص يوسف (ع. م) ثقة هذين السائلين بعلمه وفضله وإصفاها لقوله وإهتمامهما بما يسمعان من تأويله لرؤاهما فبدأ حديثه بما هو أهم عنده وهو دعوتهما وسائر من في السجن إلى توحيد الله عز وجل، فعلم من هذا أن وحي الرسالة جاءه بعد دخول السجن فحقق قوله (رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه) كما أن وحي الإلهام جاءه عند إلقائه في غيابة الحب على ما سبق، وحكمة هذا من ناحيته عليه السلام ظاهرة بما بيناه من أن الله تعالى جعل له في كل محنة ظاهرة، منحة باطنة، وفي كل بداية محرقة، نهاية مشرقة، لتحقيق ما فهمه أبوه من اجتناب ربه له الخ. وحكمته من ناحية دعوة الدين أن أقوى الناس وأقربهم استعداداً لفهمها والاهتمام بها: هم الضعفاء والمظلومون والفقراء، وأعتابهم وأبعدهم عن قبولها هم المترفون والمتكبرون، بدأ يوسف بالدعوة بعد مقدمة في بيان الآية الدالة على صدقه والثقة بقوله وهي إظهار ما من الله به عليه من تعليمه ماشاء من أمور الغيب وأقربها إلى اقتناعهم ما يختص بمبشيتهم، فكان هذا ما يقتضيه المقام وتوجيه الرسالة من جوابهم، وهو:

٣٧ ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ وهو ما لا تدرون من حيث لا تدرون،

وإني وإياكم في هذا السجن المحجوبون ﴿ إلا نبأناك بما تأويله قبل أن يأتيكما ﴾ أي أخبرتكما به وهو عند أهله وبما يريدون من إرساله وما ينتهي إليه بعد وصوله اليكما: أنبئكما بكل هذا من شأن هذا الطعام قبل أن يأتيكما ، روي أن رجال الدولة كانوا يرسلون الى المجرمين أو المتهمين طعاما مسموما يقتلونهم به وأن يوسف أراد هذا، وما قلته يشمل هذا إذا صح ، وهو ما يفهم من تسمية إبنائها به تأويلا ، فان التأويل الاخبار بما يؤل إليه الشيء وهو فرع معرفته ، ولذلك قال بعضهم إنه سماه تأويلا من باب المشاكاة لما سألاه عنه من تأويل رؤاها ، وقال بعضهم أن المراد لآثران في النوم طعاما يأتيكما إلا نبأناك بما تأويله، وهو بعيد . وفسر الزمخشري ومن قلده تأويله [ببيان ماهيته وكيفيته لان ذلك يشبه تفسير المشكل والاعراب عن معناه] اه وهو تكلف سرى إليه من مفهوم التأويل في اصطلاح علماء الكلام وأصول الفقه لا من صميم اللغة ﴿ ذلكما بما علمني ربي ﴾ أي ذلك الذي أنبئكما به بعض ما علمني ربي بوحى منه إلي ، لا بكمهاتولا عرافولا تنجيم ، ولا ما يشبهها من طرق صناعية أو تعليم بشرى يلتبس به الحق بالباطل ، ويشبهه الصواب بالخطأ ، فهو آية له كقول عيسى لبني إسرائيل من بعده (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ﴾ خالق السموات والارض وما بينهما كما يجب له من التوحيد والتنزيه ، أي تركت دخولها واتباع أهلها من عابدي الأوثان المنتحلة على كثرة أهلها ودعوتهم اليها ، وليس المعنى أنه كان متبعا لها ثم تركها ، فقوله تعالى (أيحسب الانسان أن يترك سدى ؟) أي بعد موته فلا يبعث ، ليس معناه أنه كان سدى قبله ، فترك الشيء يصدق بعدم ملابسته مطلقا ، وبالتحول عنه بعد التلبس به ، ويفرق بينها بقريئة الحال أو المقال أو كليهما كاهنا . والمتبادر أنه أراد بهؤلاء القوم الكنعانيين وغيرهم من سكان أرض اليماد التي نشأ فيها ، والصربيين الذين هو فيهم وبينهم ، فانهم اتخذوا من دون الله آلهة معروفة في التاريخ أعظمها الشمس واسمها عندهم (رع) ومنها

فراعتهم والنبيل وعجلهم (أبيس) وإنما كان التوحيد خاصا بحكمتهم وعلماهم
 ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي وهم الآن يكفرون بالمعنى الصحيح للآخرة
 فان المصريين وان كانوا يؤمنون بالآخرة والحساب والجزاء الذي دعا اليه الانبياء
 إلا أنه فشا فيهم تصوير هذا الايمان بصور مبتدعة ومنها ان فراعتهم يعودون
 الى الحياة الاخرى بأجسادهم المحنطة ويعود لهم السلطان والحكم ولهذا كانوا يدفنون
 أو يضعون معهم جواهرهم وغيرها، ويبنون الاهرام لحفظ جثثهم وما معها، واهله
 لهذا أكد الحكم بالكفر بها باعادة الضمير «هم» ليبين ان ايمانهم بالآخرة على
 غير الوجه الذي جاءت به الرسل فهو غير صحيح

٣٨ ﴿واتبعت ملة آبائي﴾ أنبياء الله الذين دعوا الى توحيد الخالص

وبين أسماءهم من الأب الأعلى الى الأدنى بقوله ﴿ابراهيم وإسحاق ويعقوب﴾
 فلفظ الآباء يشمل الجدود وإن علوا، وبين أساس ملتهم التي اتبعها وراثتها وتلقينا
 فكانت يقيناله وهم ووجدانا، بقوله ﴿ما كان لنا﴾ أي ما كان من شأننا معشر

الانبياء (١) ولا مما يقع منا ﴿أن نشرك بالله من شيء﴾ نتخذة ربا مدبراً أو إلهة
 معبوداً معه لا من الملائكة ولا من البشر (كالفراعنة) فضلا عما دونها من البقر
 (كالمجل أبيس) أو من الشمس والقمر، أو ما يتخذ هذه الآلهة من التماثيل والصور

﴿ذلك من فضل الله علينا﴾ يهدايقنا إلى معرفته وتوحيده في ربوبيته وألوهيته بوحيه
 وآياته في خلقه ﴿وعلى الناس﴾ بارسالنا اليهم ننشر فيهم دعواته، ونقيم عليهم حجته،
 ونبين لهم هدايته ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ نعم الله عليهم، فهم يشركون

(١) في سفر التكوين الذين يعدونه من التوراة أن عيسو بن اسحق البكر كان
 يعبد الاصنام وان اياه كان يفضل في الحب على أخيه وتوأمه يعقوب الموحد
 لله، وان يعقوب احتال على ابيه اسحق حتى اعطاه بركة البكورية التي هي
 حق عيسو لأنه خرج من بطن أمه قبله، فتأمل الفرق بين هداية القرآن وهدايته 111

به أربابا وآلهة من خلقه ، يذلون أنفسهم بعبادتهم ، وهم مخلوقون لله مثلهم أو أدنى منهم ، ثم صرح لها ببطلان ماها عليه من الشرك ونههم إلى برهان التوحيد فقال

(٣٩) يَصْحَبِي السَّجْنِ ۚ أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ
 الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤٠) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا
 أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا لِلَّهِ
 أَمْرًا أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يَعْلَمُونَ

﴿ الدعوة الى التوحيد الخالص برهانه ﴾

٣٩ ﴿يا صاحبي السجن﴾ أضافها إلى السجن بمعنى ياساكني السجن أو بمعنى
 يا صاحبي في السجن كما قيل * ياسارق الليلة أهل الدار * أي سارقهم فيها
 ﴿أرباب متفرقون﴾ هذا استفهام تقرير بعد تحيير ، ومقدمة لأظهر برهان
 على التوحيد ، وكان المصريون المخاطبون به يعبدون كغيرهم من الأمم أربابا متفرقين
 في ذواتهم ، وفي صفاتهم المعنوية التي ينعتونها بها ، وفي صفاتهم الحسية التي
 يصورها لهم الكهنة والرؤساء بالرسوم المنقوشة والتماثيل المنصوبة في المعابد
 والهياكل ، وفي الاعمال التي يسندونها اليهم بزعمهم ، فهو يقول لصاحبيه «أرباب
 متفرقون» أي عديدون هذا شأنهم في التفرق والاقسام ، وما يقتضيه بطبعه من
 التنازع والاختلاف في الاعمال ، والتدبير المفسد للنظام ، هو ﴿خير﴾ لكما وتغير كما
 من الافراد والاقوام ، فيما تطلبون ويطلبون من كشف الضر وجلب النفع ، وكل
 ما تحتاجون فيه إلى المونة والتوفيق من عالم الغيب ﴿أم الله﴾ الواجب الوجود ، الخالق

لكل موجود ﴿الواحد﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، المنفرد الخلق والتقدير والتسخير، الذي لا ينازع ولا يعارض في التصرف والتدبير ﴿القهار﴾ بقدرته التامة وإرادته العامة، وعزته الغالبة، لجميع القوى والسنن والنواميس التي يقوم بها نظام العوالم السماوية والارضية، كالنور والهواء والماء الظاهرة، والملائكة والشياطين الباطنة، التي كان الجهل بحقيقتها، وسبب اختلاف مظاهرها، هو سبب عبادتها والقول ربوبيتها؟ الجواب الذي لا يختلف فيه عاقلان أدركا السؤال: بل هو الله الواحد القهار، لا رب غيره ولا إله سواه، ولذلك رتب عليه قوله

﴿٤٠﴾ ما تعبدون من دونه ﴿أي غير هذا الواحد القهار﴾ إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ﴿من قبلكم أي وضعتموها لمسميات لمحتموها صفات الربوبية وأعمال الرب الواحد، فاتخذتموها أرباباً وما هي بأرباب تخلق ولا ترزق، ولا تضر ولا تنفع، ولا تدبر ولا تشفع، فهي في الحقيقة لا مسميات لها بالمعنى المراد من لفظ الرب الاله المستحق للعبادة، حتى يقال إنها خير أم هو خير﴾ ما أنزل الله بها ﴿أي بتسميتها أرباباً على أحد من رسله﴾ من سلطان ﴿أي أي نوع من أنواع البرهان والحجة فيقال إنكم تتبعونه بالمعنى الذي أراده تعالى منه، تعبداً له وحده وطاعة لرسله، فيكون اتباعها أو تعظيمها غير مناف لتوحيده، كاستلام الحجر الأسود عند الطواف بالكعبة المعظمة مع الاعتقاد بأنه حجر لا ينفع ولا يضر كما ثبت في الحديث — فهي تسمية لا دليل عليها من النقل السماوي فتكون من أصول الايمان، ولا دليل عليها من العقل فتكون من نتائج البرهان

وأقول إنه لما قامت هذه الحجة على النصارى بطلان ثالوثهم الذي اتبعوا فيه ثالوث قدماء المصريين والهنود ادعوا أن له أصلاً من الوحي الذي أنزله الله على المسيح عيسى بن مريم أو تلاميذه، وأنه بهذا لا ينافي التوحيد فالثلاثة واحد والواحد ثلاثة، والذي حققه علماء الافرنج المؤرخون تبعاً للمسلمين أنه لا أصل له

من الوحي ، وان كلمات الآب والابن وروح القدس لها معان عند الذين آمنوا بالمسيح في حياته هي غير المعاني الاصطلاحية عند كنائس الكاثوليك والارثوذكس والبروتستانت الجامعة لاكثر النصارى ، والاحرار العقليون من نصارى الافرنج يرفضونها كاهم وهم ملايين ولكن ليس لهم كنيسة جامعة ، وإنما يقولون في المسيح ماقرره الاسلام فيه وأكثرهم لايعلمون ذلك ، ولو عرفوا حقيقة الاسلام لكانوا كلهم مسلمين ، ولكنهم سيعلون ويسلمون اتباعا ، كما أسلموا فطرة وعقلا

﴿ إن الحكم لإلا لله ﴾ أي ما الحكم الحق في الربوبية ، والمعائد والعبادات الدينية ، إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله ، لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه ولا بعقله واستدلاله ، ولا باجتهاده واستحسانه ، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على أسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والامكنة

ثم بين أول أصل نبي عليها لانه أول ما يجب أن يسأل عنه من عرفها فقال

﴿ أسرأن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ بل إياه وحده فادعوا واعبدوا ، وله وحده فاركعوا واسجدوا ، واليه وحده فتوجهوا ، حنفاء لله غير مشركين به ملكا من الملائكة الروحانيين ، ولا ملكا من الملوك الحاكمين ، ولا كاهنا من المتعبدين ، ولا شمسا ولا قمر ، ولا نجما ولا شجرا ، ولا نهرا مقدسا كالكنج والنيل ، ولا حيوانا كالمجلى أبيس ، فالمؤمن الموحد لله لا ينزل نفسه بالتعبد لغير الله من خلقه بدعاء ولا غيره ، لا يمانه بأنه هو الرب المدبر المسخر لكل شيء ، وأن كل ما عده خاضع لارادته وسننه في أسباب النافع والمضار ، لا يملك لنفسه ولا لغيره غير ما أعطاه من القوى التي هي قوام جنسه ومادة حياة شخصه (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فالإله وحده الملجأ في كل ما يعجز عنه الانسان أو يجمله من الاسباب ، واليه المصير للجزاء على الاعمال يوم الحساب

﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي الحق المستقيم الذي لا عوج فيه من جهالة الوثنيين ، الذي دعا اليه جميع رسل الله أقوامهم ومنهم آباي : ابراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك حق العلم لا اتباعهم أهواء آباهم الوثنيين ،

الذين اتخذوا لأنفسهم أربابا متفرقة ليس لها من الربوبية أدنى نصيب ومن العجيب أن هذه الحقيقة التي بينها القرآن في أمثالات من الآيات البينات تلى في السور الكثيرة بالاساليب البليغة ، صار يحفلها كثير من الذين يدعون اتباع القرآن ، فمنهم من يحفل حقيقة التوحيد نفسه فيتوجهون إلى غير الله إذا مسهم الضر أو عجزوا عن بعض ما يحبون من النفع فيدعونهم خاشعين راغبين من دون الله ، ويسمونهم شفعاء ووسائل عند الله ، كما كان يفعل من كان قبلهم من المشركين ، ومنهم من يعرف معنى التوحيد ولكنهم يحفلون أن جميع رسل الله دعوا إليه جميع الامم ، زاعمين ان هذه الدعوة انفرد بها ابراهيم والرسل من ذريته فقط كما يفهمون من كتب أهل الكتاب والافرنج ، فهم يكتبون هذا في الصحف وفي أسفار التاريخ وفيما يسمونه فلسفة الدين أو فلسفة التفكير ، فهم يزعمون ان البشر نشأوا على الاديان الوثنية حتى كان اول من دعاهم الى التوحيد ابراهيم عليه السلام من زهاء أربعة آلاف سنة ، والقرآن حجة عليهم بتصريحه ان الله تعالى أرسل في جميع الامم رسلا دعوهم إلى التوحيد أولهم نوح عليه السلام ، فان قومه كانوا أول من عبد الصالحين الميتين واتخذوا لهم الصور والاصنام ، وكان البشر قبلهم على الفطرة وتوحيد آدم عليه السلام (١) (فان قيل) ان يوسف عليه السلام لم يدع صاحبيه في السجن وسائر من كان معها فيه إلى غير التوحيد من شرع آباؤه فما سبب ذلك ؟ (قلت) ان أهل مصر كانوا أصحاب شريعة تامة لم يبعث لئسحتها ولا لتغييرها ، وهي في الاصل سماوية وإنما طرأت الوثنية على توحيدهم لله تعالى وأحدثوا تقاليد خيالية في البعث ، فهو قد دعاهم الى أصل الدين الذي كان عليه جميع رسل الله وهو التوحيد والآخرة وما فيها من الحساب والجزاء ، وقد طرأ عليها عندهم ما أشرنا إليه آنفا في تفسير قوله

(١) عند كتابة هذا جاء في الجزء ٨: ٦ من مجلة الشبان المسلمين التي صدرت في شهر المحرم سنة ١٣٣٤ فإذا فيه مقالة عنوانها (الاسلام منذ ٨٠٠٠ سنة في وادي النيل) ذكر فيها كاتبها ان سكان مصر الاولين كانوا قبائل همجية على الفطرة وان الوافدين اليها من غرب آسية (اي بلاد العرب) كانوا على شيء من المعارف الدينية وغيرها وهم الذين ادخلوها الى هذه البلاد واهمها التوحيد والبعث

(وهم بالآخرة هم كافرون) يعني كفرهم بأن الجزاء يكون في عالم آخر بعد فناء هذه الاجساد وبعضهم في نشأة أخرى لا في هذه الدنيا كما يزعمون ، وعقائدهم في هذه المسألة مدونة في التاريخ المأخوذ من آثار الفراعنة وأشهرها انهم كانوا يحفظون أجسادهم لاجل أن تعود اليها الحياة التي فارقتها ، وكان ملوكهم يحفظون في أهرامهم وغيرها من قبورهم حلبيهم وحللمهم ومتاعهم لاجل أن يتمتعوا بها في النشأة الأخرى حيث يعودون ملوكا كما كانوا ، فهذه أباطيل طرأت على العقائد الأصلية المنزلة ، وتقاليدهم هذه منقوشة من مواضع من الأهرام وتوابيت الموتى وصفائح القبور ، ومنها ما هو خاص بنعيم العوام ومنه أنهم يتشكلون بالصور التي يحبونها . وتشكل الأرواح في الصور هو الأصل العلمي المقبول لمقيدة البعث في هيكل أثري يلبس جسدا كثيفا كالجسد الدنيوي كما روي عن الامام مالك رحمه الله ، ومنه ما صح في الحديث من تشكل أرواح الشهداء في صور طير خضر تسرح في الجنة . وانما يكون التشكل على أكمله في الجنة جعلنا الله من خير أهلها

وأما الركن الثالث من دين الرسل وهو العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات فكان يوسف عليه السلام يكتمني منه بما كان خير قدوة فيه كما علم من قصته في بيت وزير البلاد وفي السجن ثم في ادارته لأموار الملك ، وكان يقرم على سائر شريعتهم كما سيأتي في احتياله على أخيه الشقيق بمقتضى شريعتهم الاسرائيلية يقول الله تعالى (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) الخ وبعد أن أدى يوسف رسالة ربه عبر لصاحبيه رؤياهما بقوله

(٤١) يَصْحَبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ أَفَيْسِي رَبِّي خَمْرًا ،
وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَمَا كُلُّ الطَّيْرِ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي
فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤٢) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ
رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ

﴿ تاويله لمنامي صاحبي السجن ووصيته للناجي منهما ﴾

٤١ ﴿ يا صاحبي السجن أما أحذرك ﴾ وهو الذي رأى أنه يمصر خيراً

﴿ فيسقي ربه خيراً ﴾ يعني ربه مالك رقبته وهو الملك لا ربوبية العبودية فملك مصر في عهد يوسف لم يدع الربوبية والالوهية كفرعون موسى وغيره، بل كان من ملوك العرب الرعاة الذين ملكوا البلاد عدة قرون ﴿ وأما الآخر ﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل خبزاً تأكل الطير منه ﴿ فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ أي الطير التي تأكل اللحوم كالحداة، وهذا التأويل قريب من أصل رؤيا كل منهما وقد يكون من خواطرهما النومية وتأويلهما على كل حال من مكاشفات يوسف ويؤكدها قوله ﴿ قضى الامر الذي فيه تستفتيان ﴾ فهذا نبأ زائد على التعبير رؤياهما ورد مورد الجواب عن سؤال كان يحظر بياهما أو أسئلة في صفة ذلك التعبير وهل هو قطعي أم ظني يجوز غيره ومتى يكون؟ فهو يقول لها ان الامر الذي يهكما أو يشكل عليكما وتستفتيان في فيه قد قضى وبت فيه وانتهى حكمه . والاستفتاء في اللغة السؤال عن المشكل المجهول ، والفتوى جوابه سواء أكان نبأ أم حكماً ، وقد غلب في الاستعمال الشرعي في السؤال عن الاحكام الشرعية ، ومن الشواهد على عمومه (افتوني في رؤياي) وهي مشتقة من الفتوة الدالة على معنى القوة والمضاء والثقة

قلت ان هذه الفتوى من يوسف عليه السلام زائدة على ما عبر به رؤياهما داخلية في قسم المكاشفة ونبأ الغيب مما علمه الله تعالى وجعله آية له ليشقوا بقوله وهم أولو علم وفن وسحر ، ومعناها انه علم بوحى ربه أن الملك قد حكم في امرهما بما قاله لامن باب تاويل الرؤيا على تقدير كون ما رأيا من النوع الصادق منها لامن أضعاف الاحلام] وسنين الفرق بينهما في التفسير الاجمالي لسكليات السورة ان شاء الله تعالى [

٤٢ ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما ﴾ وهو الذي اول له رؤياه بأنه يسقي ربه خيراً ، وتأويلها يدل على نجاته دلالة ظنية لا قطعية ، فان كانت فتواه بعده عن وحي نبوي كما رجحنا لا تنمة لتأويلها فيجوز أن يكون التعبير عن نجاته

بالظن لان ما علم من قضاء الملك بذلك يحتمل ان يعرض ما يحول دون تنفيذها ، وقد بينا في الكلام على رؤيا يوسف وما فهمه أبوه منها من أمر مستقبله ان علم الانبياء ببعض الامور المستقبلية اجمالي الخ وقال جمهور المفسرين ان الظن هنا بمعنى العلم وفي هذه الدعوى نظر وقد بينا تحقيق الحق في الفرق بين الظن والعلم لغة واصطلاحا في موضع آخر فلا محل لاعادته هنا ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ أي عند سيدك الملك بما رأيت وسمعت وعلمت من أمري عسى أن ينصني من ظلمي ويخرجني من السجن ، وهذا الذكر يشمل دعوته بإمام إلى التوحيد وتأويله للرؤيا وإنباءهم بكل ما يأتيهم من طعام وغيره قبل إتيانه، وآخره فتواه الصريحة فهي جدوة بأن تذكره به كلما قدم للملك ثمابه ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ أي أنسى الساقى تذكر ربه وهو أن يذكر يوسف عنده على حد (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ منسيا مظلوما ، والغاء على هذا للسببية وهو المتبادر من السياق ، والحاري على نظام الاسباب ، ويؤيده قوله تعالى الا تي قريبا (وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة) أي تذكر ، إلا أن هذا الاستعمال يحتاج إلى حذف وتقدير . ووجهه بأنه أضاف المصدر اليه للملازمة له أو انه على تقدير : ذكر إخبار ربه ، فحذف المضاف وهو كثير كما ان الاضافة لأدنى ملازمة كثير في كلامهم

وقيل ان المعنى ان الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه وهو الله عز وجل فمأقبه الله تعالى بابقائه في السجن بضع سنين (١) وقالوا إن ذنبه الذي استحق عليه هذا العقاب انه نوسل إلى الملك لاخراجه ولم يتوكل على الله عز وجل ، وجاءوا عليه بروايات لا يقبل في مثلها إلا الصحيح المرفوع أو المتواتر منه ، لانها تتضمن الطعن في نبي مرسل ، ولكن قبلها على علاقتها بالجمهور كعادتهم وهو خلاف الظاهر من وجوه : (الاول) عطف الانساء على ما قاله للساقى بالغاء يدل على وقوعه عقبه ، ومفهومه أنه كان ذا كرا لله تعالى قبله الى أن قاله فلو كان قوله ذنبا عوقب عليه لوجب (١) استشهدت بهذا القول المشهور في تفسير (إنه ربي أحسن مثواي) وهو خطأ

أن يعطف عليه بجملة حالية بأن يقال: وقد أنساه الشيطان ذكر ربه — أي في تلك الحال — فلم يذكره بقلبه ولا بلسانه، فاستحق عقابه تعالى باطالة مكثه على خلاف ما أراده من ملك مصر وحده

(الثاني) أن اللائق بمقامه أن لا يقول ذلك القول إلا من باب مراعاة سنة الله تعالى في الاسباب والمسببات كما وقع بالفعل فإنه ماخرج من السجن إلا بأمر الملك، وما أمر الملك باخراجه إلا بعد أن أخبره الساقى خبره، وما آتاه ربه من العلم بتأويل الرؤى وبغير ذلك مما وصاه به يوسف، فإذا كان قد وصاه بذلك ملاحظاً أنه من سنن الله في عبادته متذكراً ذلك وهو اللائق به، فلا يعقل أن يعاقبه ربه تعالى عليه، وعطف الانساء بالفاء يدل على وقوعه بعد تلك الوصية فلا تكون هي ذنباً ولا مقترنة بذنب فيستحق عليها العقاب

(الثالث) إذا قيل سلطنا أنه كان ذا كراً لربه عند ما أوصى الساقى ما أوصاه به ولكنه نسيه عقب الوصية وانكل عليها وحدها (قلنا) إن زعمتم أنه نسي ذلك في الحال واستمر ذلك النسيان مدة ذلك العقاب وهو بضع سنين أو تتمها كنتم قد أهمتم هذا النبي الكريم تهمة فظيعة لا تليق بأضعف المؤمنين إيماناً، ولا يدل عليها دليل، بل يبطلها وصف الله له بأنه من المحسنين ومن عبادته المخلصين المصطفين، وبأنه غالب على أمره، وأنه صرف عنه السوء والفحشاء، وكيد النساء وإن زعمتم أن الشيطان أنساه ذكر ربه برهة قليلة عقب تلك الوصية ثم عاد إلى ما كان عليه من مراقبته له عز وجل وذكره فهذا النسيان القليل، لا يستحق هذا العقاب الطويل، ولم يعصم من مثله نبي من الانبياء كما يعلم من الوجهين الرابع والخامس (الرابع) جاء في نصوص التنزيل في خطاب الشيطان (١٥: ٤٢) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) وقال تعالى (٧: ٢٠) ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فالتذكر بعد النسيان القليل من شأن أهل التقوى

(الخامس) ان النسيان ليس ذنباً يعاقب الله تعالى عليه، وقد قال تعالى لخاتم

النبيين (٦: ٦٨) وإما ينسبناك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين)
يعني الذين أمره بالاعراض عنهم إذا رآهم يخوضون في آيات الله
(السادس) إنهم ما قالوا هذا إلا لأنهم رَووا فيها حديثا مرفوعا على قلة جرأة
الرواة على الاحاديث المرفوعة المسندة في التفسير وهو ما أخرجه ابن جرير الطبري
في تفسير الآية عن سفيان بن وكيع عن عمرو بن محمد عن ابراهيم بن يزيد عن
عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعا قال قال النبي ﷺ « لو لم
يقبل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبغى الفرج من
عند غير الله » ونقول ان هذا الحديث باطل ، قال الحافظ ابن كثير وهذا الحديث
ضعيف جداً : سفيان بن وكيع ضعيف و ابراهيم بن يزيد هو الجوزي أضعف
منه أيضا . وقد روي عن الحسن وقتادة مراسلا عن كل منهما . وهذه الرسائل
ههنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الوطن والله أعلم اه
وأقول أولا إن ما قاله في هذين الراويين للحديث هو أهون ما قيل فيها
ومنه أنها كانا يكذبان ، وثانيا إنه يعني بقوله [ههنا] الطعن في نبي مرسل بأنه كان
يبغى الفرج من عند غير الله وهو الجدير بأن لا يحجبه الاسباب الظاهرة عن واضعها
ومسخرها وخالفها عز وجل . ويعني بقوله [لو قبل المرسل من حيث هو] ما هو
الصحيح عند علماء الاصول وهو عدم الاحتجاج بالمراسيل . وستنكلم على المراسيل
في التفسير في الكلام الاجمالي عن روايات هذه السورة وأمثالها في الخلاصة
الاجمالية لتفسيرها ان شاء الله تعالى ، وما رواه الكافي وغيره عن وهب ابن منبه
وكعب الاحبار من خطاب الله تعالى وخطاب جبريل ليوسف وتوبيخه على الاستشفاع
بأدنى مثله فهي من موضوعات الراوي والمروي عنها جزاهم الله ما يستحقون
فتبين بهذا أن التفسير المأثور في الآية باطل رواية ودراية وعقيدة ولغة وأدبا
وقد اختلف المفسرون في مدة لبث يوسف في السجن بناء على الاختلاف في
تفسير البضع واختلاف الرواة . فالتحقيق ان البضع من ثلاث الى تسع ، وأكثر ما يطلق
على السبع ، وعليه الاكثرون في مدة سجن يوسف من أولها الى آخرها ، وما قالوه
من أن السبع كانت بعد وصيته للساقى وانه لبث قبلها خمس سنين فلا دليل عليه

(٤٣) وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ، يَأْتِيهَا أَمْسَلًا افْتَمُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَى بَاطِلِينَ يَا تَعْبَرُوزَ (٤٤) فَأَلْوَا أَضْفَتْ أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَلَمِينَ (٤٥) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٦) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ، لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٧) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٩) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ

(رؤيا ملك مصر وتأويل يوسف لها بالقول والفعل)

كان ملك مصر في عهد يوسف من ملوك العرب المعروفين بالرعاة [الهكسوس] كما يأتي في التفسير الاجمالي، وقد رأى رؤيا عجز رجال دولته من الوزراء والكهنة والعلماء عن تأويلها، فكان عجزهم سبباً للجوء إلى يوسف عليه السلام واتصاله بالملك وتولية منصب الوزير المفوض عنده كما بين في الآيات مبدأ وغاية، قال تعالى ٤٣ ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾ هذا السياق عطف على سياق صاحبي السجن وما قالاه في قص رؤياهما على يوسف ﴿ إِنِّي أَرَى ﴾ أي رأيت فيما يرى النائم رؤيا جليلة ماثلة

أما ي كأني أراها الآن ﴿ س سبع بقرات سما ﴿ ج جمع سمينة وكذا سمين كما يقال رجال ونساء كرام وحسان ﴿ ب أكهن سبع عجاف ﴿ أ ي سبع بقرات مهزبل في غاية الضعف والهزال، وهو جمع عجفاء معاً لا قياساً فان جمع أفعل وفعلاء وزان فعل بالضم كحمر وخضر، وحسنه هنا مناسبة لسما ﴿ و سبع سنبلات خضر ﴿ ع عطف على سبع بقرات وهي جمع سنبله كقنفذة ما يخرج من الزرع كالقمح والشعير فيكون فيه الحب ﴿ و آخر يابسات ﴿ ع عطف على ما قبله، واليابس من السنبلة ما آن حصاده، واستغني عن إعادة سبع هنا بدلالة مقابله في البقرات عليه ﴿ ي أيها الملائ ﴿ ي مخاطب رجال دولته وأشراف قومه ﴿ أ فتوني في رؤياي ﴿ م ما معناها وما تدل عليه فيكون ما لا لها ﴿ ب إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴿ أ أي تعبرونها ببيان المعنى الحقيقي المراد من المعنى الخيالي، كمن يعبر النهر بالانتقال من الضفة الى أخرى فاللام فيها للبيان والتقوية، فعبورها وعبورها بمعنى تأويلها وهو الاخبار بما لها الذي يقع بعد

٤٤ ﴿ ق قالوا أضغاث أحلام ﴿ أ أي هي أو هذه الرؤيا من جنس أضغاث الاحلام أي الاحلام المختلطة من الخواطر والأخيلة التي يتصورها الدماغ في النوم فلان رمي إلى معنى مقصود، وأصل الاضغاث جمع ضفت بالكسر وهو الحزمة من النبات أو العيدان، والاحلام جمع حلم بضمين ويسكن للتخفيف وهو ما يرى في النوم يقال حلم كنعصر واحتلم، ومنه بلوغ الحلم، والحلم قد يكون واضح المعنى كالأفكار التي تكون في اليقظة وقد يكون - وهو الأكثر - مشوشاً مضطرباً لا يفهم له معنى وهو الذي يشبه بالتضاعيف كأنه مؤلف من حزم مختلفة من العيدان والحشائش التي لا تناسب بينها، وهو ما تبادل الى أفهامهم من نوعي البقر والسنايل ﴿ و ما نحن بتأويل الاحلام بعالمين ﴿ ي يحتمل قولهم هذا انهم ليسوا بأولي علم بتأويل هذه الاحلام المختلطة المضطربة وإنما يعملون تأويل غيرها من المنامات المعقولة المفهومة، ويحتمل نفي العلم بجنس الاحلام لانها مما لا يعلم أو مما لا يكون له معنى بعيد تدل عليه الصور المتخيلة في النوم وتنتهي اليه، كما ينكر أهل العلم المادي الآن أن

يكون لشيء من هذه الرؤى والاحلام تأويل صحيح ، ولكن قدماء المصريين كانوا يعنون بها . وسندين الحق في ذلك في الخلاصة الكلية لتفسير السورة كما تقدم

٤٥ ﴿ وقال الذي نجا منها ﴾ أي من صاحبي السجن وهو الساقى أحد

أركان القصة ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾ أي والحال انه تذكر بعد طائفة طويلة من الزمن وصية يوسف إياه بأن يذكره عند سيده الملك فأنساه الشيطان ذلك (وأصل ادكر اذتكر - افتعال من الذكر أبدلت تاؤه دالا مهملة لقرب مخرجها وأدغمت

فيها الذال المعجمة ، وهو الفصح ، وقري في الشواذ بالذال المعجمة وهي لغة ﴿ أنا أنبؤكم بتأويله ﴾ أي أخبركم به أو بمن عنده علم تأويله ﴿ فأرسلون ﴾ إليه أو إلى السجن فهو فيه ، وروي عن ابن عباس ان السجن كان خارج البلد . وفي خطط المقرئ :

قال القاضي سجن يوسف ببوصير من عمل الجزيرة أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان وفيه أثر نبيين أحدهما يوسف سجن فيه المدة التي ذكر أن مبلغها سبع سنين ، والآخر موسى ، وقد بنى على أثره مسجد يعرف بمسجد موسى

الخ وأمثال هذه الاخبار لا يوثق بها

٤٦ ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ أي قال فأرسلوني إليه فأرسلوه إليه فجاءه فاستفتاه

فما عجز عنه الملامن تأويل رؤيا الملك ، مناديا له باسمه وما ثبت عنده من لقبه [الصديق] وهو الذي بلغ غاية الكمال بالصدق في الأقوال والأفعال وتأويل الاحاديث وتعبير الاحلام ، شارحا له رؤيا الملك بنصها - وهو بسط في محله بعد إيجاز في

محله - قائلا ﴿ أفنتا في سبع بقرات سنان يأكلن سبع عجاف و سبع سنبلات خضر وأخر يابسات ﴾ وعلل هذا الاستفتاء بما يرجو أن يحقق ليوسف أمه بالخروج من السجن وانتفاع الملك وملائه بعلمه فقال ﴿ لم لي أرجع الى الناس ﴾ أولي الامر ،

وأهل الحل والعقد ، بما تلقيه إلي من التأويل والرأي ﴿ لعلمهم يعلمون ﴾ مكاتك من العلم فينتفعون به ، أو يعلمون ما جهلوا من تأويل رؤيا الملك وما يجب أن يعملوا

بعد العلم به ، فلعل الاولى تعليل لرجوعه اليهم بافتائه ، ولعل الثانية تعليل لما يرجوه من علمهم بها ، والرجاء توقع خير بوقوع أسبابه

٤٧ ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا ﴾ أي قال يوسف مبينا للملأ ما يجب عليهم عمله لتلافي ما تدل عليه هذه الرؤيا من الخطر على البلاد والعباد قبل وقوع تأويلها الذي بينه في سياق هذا التدبير العملي ، وهذا ضرب من بلاغة الاسلوب والايجاز ، لا نجد له ضريبا في غير القرآن ، خاطب أولي الأمر بما لقنه للساقى خطاب الأمر للعامة الحاضر ، فأوجب عليهم الشروع في زراعة القمح دائبين عليه دأبا مستمرا كما قال تعالى (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) سبع سنين بلا انقطاع . قال الزمخشري [تزرعون] خبر في معنى الأمر كقوله تعالى (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون) وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد الأمور به ، فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه ، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله ﴿ فما حصدم فذروه في سنبله ﴾ أي فكل ما حصدم منه في كل زرة فآثر كوه أي ادخروه في سنبله بطريقة تحفظه من السوس بعدم سريان الرطوبة اليه ، الحب لغذاء الناس والتبن لغذاء البهائم والدواب : ﴿ إلا قليلا مما تأكلون ﴾ في كل سنة من هذه السنين مع مراعاة القصد والاكتفاء بما يسد حاجة الجوع فان الناس يقنعون في سني الخصب والرخاء بالتقليل ، فهذه السنين السبع تأويل للبقرات السبع السماء ، والسنبلات السبع الخضر على ظاهرها في كون كل سنبلة تأويل لزرع سنة

٤٨ ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ﴾ أي سبع سنين شداد في تحاهن وجدبهن ﴿ يأكلن ما قدمتم لهن ﴾ أي يأكل أهلن كل ما قدمتم لهم ، وهو من إسنادهم الى الزمان والدهر ما يقع فيه ، ويكثر إسناد العسر والجوع الى سني الجذب : يقال أكلت لنا هذه السنة كل شيء . ولم تبق لنا خفا ولا حافرا ، ولا سبدا ولا ابدا . أي لا شعرا ولا صوفا . وهذا تأويل للبقرات السبع العجاف وأكلهن للسبع السماء ، وللسنبلات اليابسات ﴿ إلا قليلا مما تحصنون ﴾ أي تحرزون وتدخرون للبذر

٤٩ ﴿ ثُمَّ بَأْنَى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكر وهو السبع الشداد ﴿ عام فيه

يفات الناس ﴾ أي فيه يفتيهم الله تعالى من الشدة آثم الاغاثة وأوسعها وهي تشمل جميع أنواع المعونة بعد الشدة: يقال غاثه بغوثه غوثا وغوثا (بالفتح) وأغاثه إغاثة إذا أعانه ونجاه ، وغوث الرجل : قال « واغوثاه » واستغاث ربه استنصر وسأله الغوث ، ويجوز أن يكون من الغيث وهو المطر إذ يقال غاث الله البلاد غيثا وغياثا إذا أنزل فيها المطر ، والاول أعم وهو المتبادر هنا ، ولا يقال ان الثاني لا يصح ، لان خصب مصر يكون بفيض النيل لا بالمطر فان فيضانه لا يكون الا من المطر الذي يمدّه في مجاريه من بلاد السودان ، فاعتراض بعض المستشرقين من الافرنج وزعمه أن الكلمة من الغيث وأنها غير جائزة جهل زينه لهم الشيطان تلذذاً بالاعتراض على لغة القرآن ﴿ وفيه يعصرون ﴾ ماشأنه أن يعصر من الأدهان التي يأندمون بها ويستصبحون كلزيت من الزيتون والقرطم وغيره ، والشيرج من السمسم وغير ذلك ، والاشربة من القصب والنجيل والعب . والمراد ان هذا العام عظيم الخصب والاقبال ، يكون للناس فيه كل مايبغون من النعمة والاراف ، والانباء بهذا زائد على تأويل الرؤيا لجواز أن يكون العام الاول بعد سني الشدة والجذب دون ذلك ، فهذا التخصيص والتفصيل لم يعرفه يوسف إلا بوحى من الله عز وجل لا مقابل له في رؤيا الملك ولا هو لازم من لوازم تأويلها بهذا التفصيل ، وقرأ حمزة والكسائي تعصرون بالخطاب كترزعون وتحصنون ، وقرأة الجمهور عطف على يفات الناس ، وفائدة القراءتين ، بيان المنة على الفريقين من غائب محكي عنه ، وحاضر مخاطب بما يكون منه

(٥٠) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ

إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ؟ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥١) قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ

تَفْسِيهِ؟ فَلَنْ حَشَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ، قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ
الَّتِي حَصَّصَ لَهَا الْحَقَّ، أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ
(٥٧) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ

من العلوم بالقرينة أن الرسول بلغ الملك وملاه ما قاله له يوسف عليه السلام
وأنهم فهموا منه أن الخطب جليل، وأن هذا الرجل ذو علم واسع، وتدبير لا يستغنى
عنه فيما يصفه من حالي السعة والشدة، وقد طوي ذلك إيجازاً لأنه يعلم من قوله تعالى
٥٠ ﴿وقال الملك انتوني به﴾ لا أسمع كلامه بأذني، وأختبر تفصيل رأيه

ودرجة عقله بنفسه ﴿فلما جاءه الرسول﴾ وبلغه أمر الملك ﴿قال ارجع إلى ربك

فاسأله﴾ قبل شخصي إليه ووقوف بين يديه ﴿مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾

أي ما حقيقة أمرهن معي، فالبال الأمر الذي يهتم به ويبحث عنه، فهو يقول سله

عن حالهن ليبحث عنه ويعرف حقيقة فلا أحب أن آتية وأنا منهم بقضية عوقبت

عليها أو عقبها بالسجن وطال مكثي فيه وأنا غير مذنب فأقبل منه العفو ﴿إن ربي

يكيدهن عليهن﴾ وقد صرفه عنى فلم يمسي منه سوء معهن، وربك لا يعلم ما علم ربي منه،

وفي هذا التريث والسؤال فوائد جلييلة في أخلاق يوسف عليه السلام وعقله

وأدبه في سؤاله (منها) دلالة على صبره وأناة، وجدب من لقي مألقي من الشدائد

أن يكون صبورا حلما، فكيف إذا كان نبياً وارثاً لإبراهيم الذي وصفه الله بالأواه

الحليم؟ وفي حديث أبي هريرة في السنن والصحيحين مرفوعاً «ولو لبثت في السجن

مأبث يوسف لأجبت الداعي» وفي لفظ لآحمد «لو كنت أنا لأمرعت الاجابة

وما ابتقيت العذر» وأما ما رواه عبد الرزاق عن عكرمة في تعجب النبي من صبره

وكرمه وكونه لو كان مكانه لما أول لهم الرؤيا حتى يشترط عليهم أن يخرجوه من السجن ، ولو أتاه الرسول لبادرهم الباب .. فهو مرسل لا يحتاج به (ومنها) عزة نفسه وحفظ كرامتها إذ لم يرض أن يكون متها بالباطل حتى يظهر براءته ونزاهته (ومنها) وجوب الدفاع عن النفس وإبطال التهم التي تخل بالشرف كوجوب اجتناب مواقفها (ومنها) مراعاته النزاهة بعدم التصريح بشيء من الظن على النسوة وترك أمر التحقيق إلى الملك يسألن ما بالظن قطعن أيديهن وينظر ما يجيب به (ومنها) أنه لم يذكر سيدته معهن وهي أصل الفتنة وفاء لزوجها ورحمة بها لأن أمر شفغها به كان وجدانا قاهرا لها ، وإنما آتمها أولا عند وقوفه موقف التهمة لدى سيدها وطمئنها فيه دفاعا عن نفسه ، فهو لم يكن له يد منه

٥١ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه الخطب الشأن العظيم الذي يقع فيه التخاطب والبحث لغرابته أو إنكاره ومنه قول ابراهيم للملائكة (فما خطبكم أيها الرسولون) وقول موسى في قصة العجل (فما خطبك يا سامري؟) وقوله للمرأتين اللتين كانتا تذودان ماشيتهما عن مورد السقيا (ما خطبكما) وهذه الجملة بيان لجواب سؤال مقدر دل عليه السياق كأمثاله. والمعنى ان الرسول بلغ الملك قول يوسف وأنه لا يخرج من السجن استجابة لدعوته حتى يحقق مسألة النسوة ، فجمعهن وسألن : ما خطبكن الذي حملكن على مراودته عن نفسه هل كن عن ميل منه اليكن ، ومغازلة لكن قبلها ، وهل رأيتم منه مواتاة واستجابة بعدها ؟ أم ماذا كان سبب إلقائه في السجن مع الجرمين ؟ ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ أي معاذ الله ما علمنا عليه أدنى شيء يشينه ويسوءه لا كبير ولا صغير ، ولا كثير ولا قليل ، هذا ما يدل عليه نفي العلم مع تنكير سوء ودخول « من » عليها وهو أبلغ من نفي رؤية السوء عنه ﴿ قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق ﴾ أي ظهر بعد خفائه وانحسرت رغبة الباطل عن محضه ، وهو تكرار من حصصه إذا قطع منه حصه بعد

حصه (بالكسر) وهي النصيب لكل شريك في شيء، مثل ككب وكفكف الشيء إذا كبه وكفه مرة بعد أخرى، فهي تقول إن الحق في هذه القضية كان في رأي الذين بلغهم موزع التبعة بينما مشر النسوة وبين يوسف، لكل منا حصه، بقدر ما عرض فيهما من شبهة، والآن قد ظهر الحق في جانب واحد لا خفاء فيه ولا شبهة عليه، فإن كان عواذلي شهدن بنفي السوء عنه وهي شهادة نفي، فشهادتي له على نفسي شهادة إثبات؟ أنا راودته عن نفسه وهو لم يراودني، بل استعصم وأعرض عني، وأنه لمن الصادقين، فيما اتهمني به من قبل، وحمله أدبه الأعلى ووقاؤه الاسمى لمن أكرم مشواه وأحسن إليه — على السكوت عنه الآن، ونحن جزيناها بالسيئة على الاحسان، وقد أقر الخصم وارتفع النزاع

٥٢ ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب، أي ذلك لإقرار الحق له، والشهادة بالصدق الذي علمته منه، ليعلم الآن — إذ يبلغه عني — أنني لم أخنه بالغيب في حال غيبته عني وغيبتي عنه منذ سجن إلى الآن بالنيل من أمانته، أو الطعن في شرفه وعفته، بل صرحت لجماعة النسوة بأنني راودته فاستعصم وهو شاهد، وها أنا ذا أقرب هذا أمام الملك وملائته وهو غائب وان الله لا يهدي كيد الخائنين من النساء والرجال، بل تكون عاقبته الفضيحة والنكال، ولقد كدنا له فصرف ربه عنه كيدنا، وسجنناه فبرأه وفضح مكرنا، حتى شهدنا له في هذا المقام السامي على أنفسنا، وهذا تلميح آخر لإقرارها ثم إنها على تبرئة نفسها من خيانتها بالغيب اعترفت في الآية التالية بأنها لا تبري نفسها من السكيد له بالسجن، وإن ذلك كان من هوى النفس الامارة بالسوء، لأن المراد منه تدليله لها، وحمله على طاعتها،

وفيها وجه آخر وهو أنها تقول: ذلك الذي حصل أقررت به ليعلم زوجي أنني لم أخنه بالفعل فيما كان من خلواتي بيوسف في غيبته عنا، وأن كل ما وقع أنني راودت هذا الشاب الفاتن الذي وضعه في يدي، وخلي بينه وبينني، فاستعصم وامتنع، فبقي عرضه أي الزوج مصوناً، وشرفه محفوظاً، ولئن برأت يوسف من

الاشم فما أبريء منه نفسي، فان النفس لا مارة بالسوء الا مارحم ربي، وسيأتي أن من رحمته تعالى ببعض الأنفس صرفها عن الامر بالسوء وهو أعلى الدرجات، ومنها حفظه إياها من طاعة الامر بوازع منها، وهي دون ما قبلها، ومنها عدم تيسير عمل السوء لها بامتناع من يتوقف عليه ذلك العمل على حد (ان من العصمة ألا تجرد)

هذا هو المتبادر من نظم الآيتين المناسب للمقام بقير تكلف، ولكن ذهب الجمهور اتباعا للروايات الخادعة الى أنها حكاية عن يوسف عليه السلام بقول: ذلك الذي كان مني إذ امتنعت من إجابة الملك واقترحت عليه التحقيق في قضية النسوة ليعلم العزيز من التحقيق أنني لم أخنه في زوجه بالغيب الخ وأنه صرح بعد ذلك بأنه لا يبريء نفسه من باب التواضع وهضم النفس، وهذا المعنى يبرأ منه السياق والنظم ومرجع الضمير. ومن العجب ان ابن جرير اقتصر عليه، ولكن قال الهادي ابن كثير على كثرة اعتماده عليه مرجحا للقول الاول: وهذا هو القول الأشهر والاليق والانسب بسياق القصة ومعاني الكلام وقد حكاها الماوردي في تفسيره وانتدب لنصره الامام ابو العباس ابن تيمية رحمه الله فأفرد به بتصنيف على حدة هو. وشيخ الاسلام ابن تيمية من أعلم المحدثين بنقد الروايات فهو ما نصر هذا القول إلا وقد فند روايات القول الآخر وقد علم من جملة الكلام أن يوسف عليه السلام كان مثل الكمال الاقناني الاعلى للاقتداء به في العفة والصيانة، لم يمسه أدنى سوء من فتنة النسوة، وان امرأة العزيز التي اشتهرت في نساء مصر بل نساء العالم بسوء القدوة في التاريخ القديم والحديث كان أكبر أثرها على زوجها، وكانت هي ذات مزايا في عشقتها الذي كان اضطراريا لاعلاج له إلا الخيلولة بينها وبين هذا الشاب الذي بلغ منتهى الكمال في الحسن والجمال، فمن مزاياها انها لم تتطلع إلى غيره من الرجال إجابة لداعية الجنسية للقسلي عنه بعد اليأس منه، وأنها لم تنتمه بالجنوح للفاحشة قط، وكل ما قالته لزوجها إذ فاجأها لدى الباب (ماجزاء من اراد بأهلك سوءا) تعني به همه بضر بها، وانها في خاتمة الامر أقرت بذنبها في مجلس الملك الرسمي ايثاراً للحق وإثباتا لبراءة المحق،

فأية مزايا أظهر من هذه لمن ابتليت بمثل هذا العشق؟ وفي تاريخ الفردوسي أديب الفرس أنه صنف قصة غرامية في (زليخا ويوسف) صور فيها العفة بأجمل صورها، وزليخا (بالفتح) اسم امرأة العزيز في أشهر تواريخنا وقيل إن اسمها راعيل. وسنفضل عبر القصة في التفسير الاجمالي للسورة إن شاء الله تعالى

(٥٣) وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ

هذه الآية تنمة إقرار امرأة العزيز على الراجح المختار وقيل من قول يوسف (ع.م) ويرده عطفه على إقرارها وعطف أمر الملك بالانتيان به من السجن عليه ، وقد جعلت أول الجزء ، لأن تقسيم القرآن إلى الاجزاء والاحزاب مراعى به مقادير الكلم العددي دون المعاني ، وهذا لا يمنع من يجعل ورده من القرآن جزءاً في كل يوم ليختمه في كل شهر أن يزيد أو ينقص في القراءة آية أو أكثر ليقف عند ما يتم به سياق سابق أو معنى فيه، ثم يبدأ بعده بسياق آخر أو معنى مستقل منه في ورد اليوم الذي بعده

تقدم أن قولها (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) يجوز أن يراد به يوسف (ع.م) لأن كلامها في جواب الملك عما سألها هي وسائر النسوة عن خطبهن في مراودته. ويجوز أن تعني به زوجها للعلم به من قرينة الحال وان لم يذكر ، والأول أظهر ، وهذه الآية في معنى الاستدراك على ذلك النبي فهي تقول

٥٣ ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ في دعوى عدم خيانتي إياه بالغيب من كل سوء وعيب غير هذه الحيانة وما عرف أمره ﴿ إن النفس لامارة بالسوء ﴾ أي النفس البشرية لكثيرة الأمر بعمل السوء بداعي الشهوات البدنية والاهواء الغضبية

ونزغات الوسوسة الشيطانية، ومنها التحريض على سجن يوسف وسوء النية فيه، وكانت مما يسوءه ويسوء الزوج من ناحيتين مختلفتين ، وعن ابن كثير وناقم قراءة (بالسوء)

بشديد الواو على لغة من يقلب الهمزة واوا ويدغمها في الواو ﴿إلا ما رحم ربي﴾ أي إلا نفسا رحما ربي رحمة خاصة فصرفت عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف هذا هو المعنى المتبادر من سياق القصة ، ويجوز في الجملة نفسها أن يجعل الاستثناء منقطعا بمعنى لكن رحمة ربي هي التي قد تكفها عن الأمر بالسوء أو تحفظها من إجابة دعوته وطاعة أمره أو تحول دونه ، وأن تكون (ما) زمانية ، والمعنى أن من شأن النفس أن تكون أماراة بالسوء في عامة الاوقات إلا وقت رحمة ربي الذي يوفقها فيه لمراقبته والاعمال الصالحة التي ترضيه ﴿إن ربي غفور رحيم﴾ لتعليل للاستثناء بأن مقتضى مغفرته ورحمته تعالى ان يصرف بعض الانفس عن الامر بالسوء أو عن طاعتها فيه أو يصرف السوء نفسه عنها ويحول بينه وبينها ، وأن يغفر لمن يطيع أمرها فيقترب السوء ثم يتوب إليه منه

وقد أخذ علماء النفس وصفاتها من آيات القرآن أن أنفس البشر على ثلاث درجات أدناها الامارة بالسوء ، وأعلىها النفس المطمئنة بذكر الله الراضية عنه المرضية عنده ، وهي التي يخاطبها تعالى في آخر سورة الفجر بقوله (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) الخ ، وبينها التي سماها في أول سورة القيامة بالنفس اللوامة ، وهي التي تلوم صاحبها على كل ذنب وتقصير في طاعة الله ومعرفته ، ومن التقصير في طاعته التقصير في حقوق عباده الشرعية ولا سيما أولي القربى والجيران والمحتاجين إلى البر ، وكذا الحقوق العامة للملة والأمة . وبعضهم يجعل النفس الراضية والنفس المرضية قسمين من أقسام النفس المطمئنة ، ولقهاء الصوفية تفصيل لهذه الانفس وتربيتها فيه علم يزيد المطلع عليه بصيرة في دينه وتربية نفسه ونفس غيره من ولد وتلميذ ومريد وفي معرفة ربه

كان الفصل الاول من قصة يوسف (ع . م) في نشأته وما وقع بينه وبين إخوته وانتهى بيعة بثمن بخس ، والفصل الثاني في حياته الاولى في مصر وهو قسمان

أحدهما في بيت عزيز مصر وثانيهما في السجن ، وكانت هذه الاطوار كلها اطوار
يوثس وشدائد ، ربه الله تعالى بها أكمل تربية ، وجعله خير أسوة لأفراد الناس
في عفته ونزاهته وصدقه وأمانته، وخير أهل لما بعدها من إدارة ملك مصر، وإتمام
النعمة عليه وعلى آل يعقوب كما تنبأ أبوه من قبل ،

الفصل الثالث

(من قصة يوسف ، توليته حكومة مصر وما وقع لاختوته معه فيها)

٤٤) وَقَالَ الْمَلِكُ اآتُونِي بِهِ اَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ
اِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ اَمِينٌ (٥٥) قَالَ اَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ
الْاَرْضِ اِنِّي حَفِيظٌ عَالِمٌ

٤٤) وقال الملك ﴿ بعد انتهاء التحقيق في أمر النسوة وظهور براءة يوسف
فيه من كل سوء وهو ما اشترطه في قبول الدعوة أول مرة ﴾ ائتوني به أستخلصه
لنفسي ﴿ أي أحضروه من السجن الي وقدوفينا له بما اشترطه لمجيئه - أجعله خالصاً
لنفسي لا يشار كني أحد فيه من وزير يدخل بيننا في إدارة الملك ولا حاجب يبلغه
عني ويبلغني عنه - فأتوه به ﴿ فلما كلمه ﴾ وسمع ما أجابه به ﴿ قال إنك اليوم
لدينا مكين أمين ﴾ أي إنك في هذا الزمن لدى حضرتنا الملكية الخاصة ذو مكانة
ثابتة ومنزلة عالية ، وأمانة نامة موثوق بها ، فأنت مفوض في إدارة ملكنا غير
منازع في تصرفك ولا متهم في أمانتك، وفي الآية تنبيه إلى تأثير الكلام في إظهار
معارف الانسان وإرادته وأخلاقه وإقناع مخاطبه بما يريد منه

فهم الملك استحقاقه لهذه الثقة من فحوى كلامه وما كان من أمانته في بيت وزيره
العزيز على ماله وعرضه وحسن تصرفه في كل ذلك ، ومن سيرته الحسنة في السجن ،
وما علم عنه فيه من علم وفهم، وتأويل الرؤيا بما يعبر عن معناها، ويرشد إلى ما يجب

من العمل فيما تدل عليه من التدبير، ثم ما كان من حرصه على إظهار شرفه وكرامته في مسألة النسوة، فدلته جملة هذه الاعمال والاحوال والاخلاق على ما استحق به تلك المكانة والامانة. وهذا يدل على أن ذلك الملك كان وافر العقل، محبا للعدل، بصيرا بمزايا الرجال، وهذه الاخيرة يقل في الملوك من يقدرها قدرها، ويعطيها حقها، فلا تصرفه عنها الاحوال العارضة ككون الرجل غريبا أو اجنبيا أو فقيرا أو مملوكا أيضا، وما قام ملك ولا سقط الا بهم، وقد قال عمر اذ ظهر له خطؤه في تقدير رجل: رحم الله أبا بكر كان أعرف مني بالرجال

والظاهر أن الملك كلمه مشافهة بدون ترجمان بينهما، وكذلك كان يوسف يكلم العزيز وامراته من أول يوم وكذا كلم النسوة اللاتي دعتهن امرأة العزيز لرؤيته عندها وصاحبيه في السجن بالاولى، وذلك أن لغة يوسف كانت فيما يظهر لغة جده ابراهيم وأولاده وأحفاده وهي لغة حكام وطنه الكلدانيين وكانوا من العرب القحطانيين، ثم تفرعت من هذه العربية الاسماعيلية فالمصرية والعبيرية والسريانية والفينيقية، وكان ملوك مصر وكبراء حكامها في ذلك العهد من أولئك العرب أيضا وهم الذين يسمونهم الرعاة (الهكسوس) وفي التواريخ العربية أن ملك مصر هذا كان يسمي الوليد بن الربان، ولو لاهذا وذلك لكان المتبادر أن يوسف تعلم لغة مصر في هذه المدة الطويلة في مصر وكلمه ملكها بها، على أن العربية أصيلة وعريقة في مصر لغة وأدبا، وعرقا ونسبا، وإنما كان الفرعنة وأشياهم يعدون ملوك الرعاة العرب غرباء وأجانب لعصية الملك، وقد أثبت المرحوم أحمد باشا كمال العالم الاثري أن الهيروغليفية مزوجة بالعربية المصرية من قبلهم، ولو عرفت العربية القحطانية القديمة لجاز ان تكون هي أصلها، ويرى بعض علماء العرب أن اللغة العربية ما غلبت بعد الاسلام وثبتت إلا في بلاد الشعوب التي هي عربية الاصل أو للعرب فيها عرق واشيخ، ونسب راسخ

٥٥٥ قال اجمعني على خزائن الارض ﴿ هذا جواب سؤال تقديره ماذا قال يوسف للملك وقد سمع منه ما سمع ورأى من تأثير لقائه وكلامه في نفسه ما رأى؟ أي قال واني خزائن أرضك كلها أكن المشرف عليها لا يمكن من تنفيذ ما أولته من رؤياك بنفسى

(يوسف: ١٢) أم الصفات التي يمكن الله بها ليوسف في الأرض - النظام المالي ٨١

فيكون منقذاً للبلاد والعباد من المجاعة والمراد بالخزائن - وهي جمع خزينة - الأهرام التي تخزن فيها غلات الأرض أو ما يشمل كل مال (إني حفيظ عليم) أي شديد الحفظ لما يخزن فيها بحيث لا يضيع منه شيء أو يوضع في غير موضعه، راسخ العلم بطرق حفظه ووجوه نصرته والانتفاع به، فهو قد طلب أهم ما تتوقف عليه إدارة الملك وسياسته - تنمية العمران وإقامة العدل فيه، فكان مضطراً إلى تزكية نفسه بالحقوقه فالجملته لتعليل لما قبلها، ونحن نرى دهشة الأفرنج في كل بلاد يستولون أو يسيطرون عليها، يعنون بادىء ذي بدء بالاستيلاء على إدارة الأمور المالية فيها، لأنه يتوقف على تنظيمها تنظيم غيرها من أمور الدولة، وبهذا ترسخ أقدامهم فيها، فإذا لم يسرفوا في تحويل الثروة إلى أنفسهم وأبناء جلدتهم فضلهم أهل البلاد على أنفسهم أي على ملوكهم وحكامهم، أو يهديمهم الله للعدل وحسن الإدارة فتعود الأمة إلى تفضيلهم بعد الثقة بهم. وأما الجاهلون الظالمون فأنهم يسرفون في إفساد النظام المالي واحتكار الثروة لأنفسهم حتى يمتهم أبناء جلدتهم ويفضلوا الأجني عليهم، وما أضاع ملك المسلمين وغيرهم من الشرقيين في هذه القرون الأخيرة إلا الجهل والتقصير في إدارة النظام المالي وتدبير الثروة وحفظها سواء في ذلك الدولة والأمة

(٥٦) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ

يَشَاءُ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

(٥٧) وَلَا جُرْأَخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ

هذا بيان لسنة الله تعالى في تأسيس الرياسة الفضلى والحكومات المثلى في الأمم، ونيل الأفراد المناصب العالية فيها وإن كان أهلها غرباء عنها وافدين عليها. يقول تعالى

﴿٥٦﴾ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴿٥٧﴾ أي ومثل هذا التمكين الذي سبق

بيان أسبابه ومقدماته مكنا ليوسف في أرض مصر وقد جيء به مملوكا فأصبح مالكا ، فهذا التشبيه في « كذلك » ينبيء عن علم عزير هو موضع العبرة في القصة ، وهو إعداده تعالى إياه بما تحلى به من الصبر واحتمال الشدائد والعفة والامانة والصدق ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ يقال أصابه الشيء وأصابه الله به ، أي نخص برحمتنا من إعطاء الملك والرياسة والغنى وغير ذلك من نعم الدنيا من نشاء من عبادنا بمقتضى سنننا في الاسباب السكسية ، وموافقة الاحداث السكونية والاجتماعية ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ في أعمالهم بشكر هذه الرحمة والنعم بل نأجرهم عليها في الدنيا بالزيادة والهناء فيها ، فان نعم الدنيا مبذولة لكل من يطلبها من طرقها وأسبابها ، ولكن المحسنين للتصرف فيها هم الذين لا يضيع عليهم شيء من أجرها في الدنيا كالذي يصيب المسيئين من المنغصات ، وغوائل الاسراف والبطر والخيلاء ، وإثارة أضعاف المظلومين والحساد ، والخوف على النعم منهم ومن غيرهم . ولما يصيب المحسنين الشاكرين شيء من هذا . وما عسى أن يصيبهم منه يكون عليهم أخف ، ويكونون عليه أصبر ، ولانفس هنا قوله تعالى في يوسف (٢٢) ولما بلغ أشده آتيناها حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) وقوله حكاية عن صاحبي السجن (٣٦ إنا نراك من المحسنين)

٥٧ ﴿ ولا أجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ هذه جملة مؤكدة بالقسم مثبتة أن أجر الآخرة وهو نعيمها الذي يكون فيها للجامعين بين الايمان والتقوى خير لهم من أجر الدنيا لاهلها وإن بلغوا سلطان الملك ومتاعه ، ليكون المؤمنون المتقون المحرومون من هذا النعيم راضين عن الله عز وجل ، موقنين بأن ما أعد لهم في الآخرة يصغر ويتضاءل نجاحه كل ما في الدنيا من مال وجاه وزينة وشهوات ولا شك أن الجامعين بين السعادين أكمل ، وفضل الله عليهم أعظم ، اذا هم أعطوا النعمة حتمها من الشكر ، قال فقراء المهاجرين (رض) للنبي ﷺ يارسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم قال « ماذا ؟ قالوا يصلون كإصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون كما نتصدق ويعتقون ولا نفق

قال عليه السلام « أفلا اعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون احد افضل منكم ، إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ » قالوا بلى يا رسول الله قال « تسبحون وتكبرون وتحمدون الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة » راواه الشيخان عن ابي صالح عن ابي هريرة قال ابو صالح فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا سمع اخواننا اهل الاموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »

(٥٨) وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ قَدْ خَلَوْا عَلَيْهِ فَمَرَقَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٩) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ؟ (٦٠) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦١) قَالُوا سَنُرَوِّدُكَ عَنْ أَبِيهِ وَإِنَّا لَمَعْلُونَ (٦٢) وَقَالَ لِفَتَاتِهِ اجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

جاء في كتب التاريخ وأقدمها سفر التكوين أن يوسف عليه السلام عني أشد العناية بتنفيذ ما ذكره من التدبير في تأويل رؤيا الملك فبنى الأهرام العظيمة وخرن فيها الحبوب التي استكثر منها مدة سني الخصب السبع الأولى فلما جاءت السبع الشداد وعم الفحط مصر وغيرها من الاقطار القريبة منها وأقربها اليها فلسطين من بلاد الشام، واشتهر ما فعله يوسف (ع.م) في مصر وما فيها من الخير وحسن التصرف في بيع الغلال، أمر يعقوب (ع.م) أولاده بأن يرحلوا الى مصر ويأخذوا معهم ما يوجد في بلادهم من بضاعة ونقد فضة ويشتروا به قمح لان المجاعة أوشكت أن تقضي عليهم، والمقصود من العبرة الدينية والادبية في هذه الاخبار هو ما وقع بين يوسف وإخوته في مصر فاقتصر عليه في التنزيل وهو

٥٨ ﴿ وجاء إخوة يوسف ﴾ أي جاءوا مصر يمتارون ﴿ فدخلوا عليه ﴾ لأن أمر الميرة وشراء الغلال بيده ورهن أمره ﴿ ففرهم ﴾ إذ دخلوا بلا تردد ولا طول تأمل كما يفهم من العطف بالفاء إذ كان عددهم وشكلهم وزيمهم محفوظا في خياله للنشوة بينهم، وما قاساه منهم في آخر عهده بهم وكان في سن السادسة عشرة على رواية سفر التكوين وقد استكثرناها، ويجوز أن يكون هنالك سبب آخر لسرعة هذه المعرفة كأن يكون عمال يوسف وعبيده لا يدخلون عليه إلا من عرفوا أمرهم وعرضوم عليه ونالوا إذنه بادخالهم ﴿ وهم له منكرون ﴾ أي والحال أنهم كانوا إذ دخلوا عليه منكربن له لتغير شكله بالدخول في سن الكهولة، ولما كان عليه من عظمة الملك وزيه وشارته وما كان من حاجتهم كغيرهم لبره وعطفه، وكل ذلك مما يحول دون إطالة النظر اليه والتثبت من معارف وجهه، وكانوا يظنون انه هلك أو طوحت به طوائح الزمن بالانتقال من سيد الى آخر، فلو فطنوا لبعض ملاحظه وتذكروه بها امدوها مما يتشابه فيه بعض الناس ببعض عادة، ولم يخطر ببالهم ان أخاهم وصل الى هذه العظمة

٥٩ ﴿ فلما جهزهم بجهازهم ﴾ أي أصلحهم بعدتهم وهي عدة السفر من الزاد وما يحتاج اليه المسافرون وأوفر ركائبهم بما جاؤا له من الميرة اه من الكشف قال الفيومي في المصباح المنير : جهاز السفر أهنته وما يحتاج إليه في قطع المسافة بالفتح وبه قرأ السبعة (وذكر الآية) والكسر لغة قليلة، وجهاز العروس والبيت بالفتين أيضاً يقال جهزها أهلها بالثقل، وجهزت المسافر بالثقل أيضاً هيأت له جهازه وما يحتاج إليه في قطع المسافة اه فتجهز يوسف بإيام بالجهاز اللائق بهم الكافي لهم هو غير الميرة التي جاؤا لامتيارها أي الطعام الذي جاؤا لشرائه، وهو يدل على أنهم أخذوا الميرة أيضاً فهو من إيجاز القرآن الدقيق، وجعله الزمخشري شاملا له بالمعنى لاستلزامه إياه . وقد نقل البيضاوي عبارته ثم قال والجهاز ما يمد من الامتعة للنقلة كعدة السفر وما يحمل من بلد إلى آخر وما تزف به المرأة إلى زوجها اه فجعل الميرة وغيرها من البضائع داخلة في معنى الجهاز وليس كذلك في أصل

اللغة . ﴿ قال اتنوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ يريد شقيقه بنيامين ، وفي سفر التكوين أنه كان استنبأهم عن أنفسهم متكرراً لهم إذ عرفهم ولم يعرفوه واتهمهم بأنهم جواسيس جاؤا ليروا عورة البلاد فأنكروا ذلك وأخبروه خبرهم (١٣: ٤٢) فقالوا نحن عبيدك اثنا عشر أخاً نحن بنو رجل واحد في أرض كنعان ، وهو ذا الصغير عند أيدينا اليوم والواحد مفقود ١٤ فقال لهم يوسف ذلك ما كنتكم به قائلاً : جواسيس أنتم ١٥ بهذا تمتحنون ، وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمعجزة أخيك الصغير (إلى هنا) الخ (٢٥) ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحاً وترد فضة كل واحد إلى عدله ، وأن يعطوا زاداً للطريق ، ففعل لهم هكذا) اه وهو بمعنى ما قلنا وبدل عليه قوله ﴿ ألا ترون أني أوفي السكيل ﴾ أي أنه وأجعله وافياً كافياً ﴿ وأنا خير المتزين ﴾ أي وأنا على هذا خير المضيفين للضيوف ، وكان قد أحسن ضيافتهم ومن تمامها نجحهم بالزاد الكافي لهم مدة سفرهم ، والميرة لا تقتضي هذا ولا تستلزمه ، يقال أنزلت الضيف نزلاً وخير منزل بضم الميم وفتح الزاي فهو نزيل - فمبيل بمعنى مفعول - والنزل بضمين طعام النزيل الذي يهيا له ، وهو مستعمل في التنزيل ، واستدل بقوله هذا على ضعف رواية اتهامه إياهم بالتجسس على كون هذه التهمة لا تليق بمن دون الصديق النبي وهو يعلم بطلانها إلا أن تكون ذريعة لفرض صحيح كأنها مهم بالسرقة

٦٠ ﴿ فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ﴾ فاذا عدتم تمارون لا هللكم ولم يكن معكم منع جنس السكيل أن يكال لكم في حضرتي أو ملكي فضلاً عن إيفائه وإكاله الذي كان لكم بأمرى ﴿ ولا تقربون ﴾ بكسر النون الدالة على إياء المتكلم المحذوفة ، وهو يجوز أن يكون نفياً معطوفاً على ما قبله وأن يكون نفياً عن القرب منه فضلاً عن إنزاله إياهم في ضيافته خير ضيافة لا توجد عند غيره ، وناهيك بما بين منزلته من الملك والحكم ، ومنزلتهم فيمن لا يحصى من الجائعين المتارين من البعد

٦١ ﴿ قالوا سنراود عنه أباه ﴾ أي سنبدل جهدي في مراوغة أبيه وروده وتحويله

عن إرادته في إبقائه عنده إلى إرادتنا وإرادتك حتى نقتعه بارساله معنا كما يحب

﴿ وإنا لفاعلون ﴾ ذلك قطعاً وعداً مؤكداً لا نفساه ولا نتوانى فيه

٦٢ ﴿ وقال لغتيان ﴾ أي غلمانة الكياليين ، وهذه قراءة حمزة والكسائي وحفص ، وهو جمع كثرة لغتي ، وقرأ الباقون (لغتيته) وهو جمع قلة فهما كاخوة وإخوان ولا وجه للتفاضل بينهما ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ التي جاؤا بها لشراء الطعام ﴿ في رحالم ﴾ أي أوعيتهم وهي جمع رحل بالفتح يطلق على كل ما يعد للرحيل (السفر) من وعاء للمتاع ومرآب وحلس للبعير ورسن ﴿ لعلمهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ﴾ أي رجاء أن يعرفوا لنا حق إعادتها إليهم وجعل ما أعطيناهم من القلة مجازاً بغير ثمن إذا هم رجعوا إلى أهلهم وفتحوا متاعهم فوجدوها فيه فانهم انما يفتحونها هنالك ﴿ لعلمهم يرجعون ﴾ البينا طمعا في برنا وإن كانوا غير محتاجين إلى امتياز آخر لضرورة القوت . ويجوز أن يكون رجاء الرجوع منوطاً بمعرفة البضاعة من غير تقدير معرفة حق ردها إليهم وما فيه من المنة والكرم ، وهو أن يمتدوا أن فتیان يوسف نسوها أو وضعوها في رحالم خطأ؟ وهم لا يستحلون أكلها بالباطل فيرجعون لإعادتها وإبصالها إلى أهلها

(٦٣) فَلَمَّ رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ

فَارْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتُمُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٤) قَالَ هَلْ آتَيْنَاكُمْ

عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنَّاكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ؟ قَالَتْ خَيْرٌ حَفِظْنَا وَهُوَ

أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

٦٣ ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل ﴾ أي صدر حكم العزيز

ولي الأمر في مصر بمنع الكيل لنا في المستقبل ، وأخبروه بما قاله لهم ورتبوا عليه

قولهم ﴿ فأرسل معنا أخانا ﴾ بنيامين ﴿ نكتل ﴾ أي تتمكن من أخذ ما نطلب من الطعام بالكيل المعلوم بأن نرفع المانع من الكيل ونكتال من الطعام بقدر عددنا ، وقرأ حمزة والكسائي (يكتل) بالياء يعنون أخاه بنيامين أي يكتل لنفسه كما يكتال كل منا لنفسه فإن الكيل لنا مشروط بارساله ورؤية العزيز له ، تقول كت له الطعام إذا أعطيته واكتلت منه وعليه إذا أخذت منه أو توليت الكيل بنفسك يقال كال الدافع ، واكتال الآخذ ، قاله في المصباح ﴿ وإناله لحافظون ﴾ في ذهابه وإبابه فلا يناله مكروه نخافه ، كأنهم كانوا يعتقدون أن أيام لا يزال يعتقد أنهم يحسدونه كما كانوا يحسدون يوسف معه فقالوا له مثل ما قالوا لما طلبوا إرسال يوسف معهم يرتع ويلعب ، فماذا قال هو لهم ؟

٦٤ ﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ إذ قلتم (يا أبا ناس) مالك لا تأمننا على يوسف وإننا له لناصحون ؟ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإننا له لحافظون) ثم ختمه وكذبتم فأضتم يوسف فالحالة واحدة ووعدهم بحفظه لا يوثق به « ما أشبه الليلة بالبارحة » ﴿ فالتة خير حافظا ﴾ فن لم يحفظه فلا حافظ له ، قرأ الجمهور (حفظا) على التمييز وحمزة والكسائي (حافظا) وهو يحتمل التمييز والحال ، والكلمة كتبت في المصحف الامام بدون الف ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ فأرجو أن برحمي بحفظه ولا يجمع علي الابتلاء بفقد أخيه يوسف معاً فرحمته أوسع وأعظم ، وفي قوله هذا ابن وميل الى ارساله لشدة الحاجة ولكنه غير صريح

(٦٥) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْيِي هَذِهِ بِيضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَبِعِيرُ أَهْلِنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٦) قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَمَّا تُثْبِتُنِي بِهِ إِنْ أُنْجِيَ بِكُمْ ، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ

٦٥ ﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم ﴾ أي فتحوا رحالهم من غرائر وغيرها وجدوا فيها ما كانوا أعطوه من بضاعة ونقد ثمنا للطعام كما توقع يوسف إذ أمر فتياته بوضعها في رحالهم ولم يعلموا بذلك من قبل ﴿ قالوا يا أبا ناس ما نبغي ؟ ﴾ استفهام في سياق استئناف بياني ، يعنون أي إكرام نطلب وراء هذا الذي فعل معنا عزيز مصر ، أو نفي للمبالغة فيما حدثوه به من كرمه وحسن ضيافته ، أي ما نبغي ولا نسرف فيما حدثناك عن كرم هذا الرجل ، ثم استدلووا على هذا بقولهم مستأنفاً أيضاً ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ بعينها على حقايرتها لم يأخذ العزيز شيئاً منها ، وكل ما جئنا به على غلانه وعظم قيمته فهو هبة منه لنا أو صدقة علينا ﴿ ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ﴾ هذا عطف على محذوف تدل عليه القرينة ، أي فنحن ننتفع ببضاعتنا ونمير أهلنا بما نجلبه من الميرة من مصر مجاناً ونحفظ أخانا بعنايتنا كلنا به مع عدم المخاوف التي تخشى ان تغلبنا عليه ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ أي حمل حمل يكال لأخينا ويفهم منه ان يوسف ما كان يعطي أحداً أكثر من حمل بعير حتى لا يسرف الناس في الطعام ، وقد أشار في تعبير رؤيا الملك إلى ما يجب من الاقتصاد ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ أي ان حمل البعير كيل سهل لا عسر فيه على عزيز مصر الجواد المحسن ، او قليل لا يكثر على سخائه ولا يشق عليه وإن كان يعلم ان كل ما أخذ له لبيت واحد ، فالشار إليه حمل البعير ، والكيل بمعنى المكيل ، واليسير له معنيان أحدهما السهل وهو ضد العسير ومنه قوله تعالى (يوم عسير على الكافرين غير يسير) وقوله (وكان ذلك على الله يسيراً) والثاني القليل من كل شيء ، حتى الزمن ومنه قوله تعالى (وما تلبثوا بها إلا يسيراً) وقال الزمخشري وتبعه البيضاوي : أي ذلك مكيل قليل لا يكفيننا ، يعنون ما يكال لهم فأرادوا أن يزدادوا اليه ما يكال لأخيهم ، أو يكون ذلك إشارة إلى (كيل بعير) أي ذلك الكيل شيء قليل يجهيننا اليه الملك ولا يضايقنا فيه ، أو سهل عليه متيسر لا يتعاطفه ، ويجوز أن يكون من كلام يعقوب وان حمل بعير واحد شيء يسير لا يخاطر مثله

بالولد ه وهذا بعيد ولو كان من قوله لعطف عليه ما بعده ولكنه جاء مفصولا مستأنفا على الاصل في جواب سؤال مقدر كأمثاله وهو :

٦٦ ﴿ قَالَ اِنْ اَرْسَلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اَللّٰهِ ﴾ أي حتى تمظوني عهداً موثقاً بالقسم بالله ﴿ لَتَأْتُنِيَّ بِهِ ﴾ جواب القسم أي لترجمن به إلي على كل حال تعرض لكم ﴿ اِلَّا اَنْ يَحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا في حال واحدة وهي أن تغلبوا على أمركم بعدوا أو بلاه يحيط بكم فتملكوا دونه فلا تستطيعوا الايمان به مجتمعين ولا متفرقين أو لا يسلم منكم أحد ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أي أعطوه العهد الموثق الذي اشترطه عليهم ﴿ قَالَ اَللّٰهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أشهد الله تعالى على ما قاله واشترطه وما أجابوه به، يعني أنه سبحانه رقيب عليه وعليهم ، وأمرهم موكل اليه فهو الكفيل الذي يوفق للوفاء بالعهد ، والصدق بالوعد ، فقول القول خبر في اللفظ إنشاء في المعنى

(٦٧) وَقَالَ يَبْنَئِي لَاتَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَاَدْخُلُوا مِنْ اَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا اَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ ، اِنْ اَلْحَكْمُ اِلَّا لِلّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ اَمَرَهُمْ اَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ اِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ، وَاِنَّهُ لَكُدُو عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمَاهُ وَاَلَكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

﴿ ٦٧ ﴾ وقال يابني لا تدخلوا ﴿ مصر مجتمعين ﴾ من باب واحد ﴿ كبيتكم هذه بناء على أنه كان لمصر عدة ابواب لكبرها وكثرة طرقها ، وقيل انه أراد بالابواب الطرق ، والراجح عندي أنه أراد الابواب التي يدخل الناس منها على

العزير في قصره أو الوسائل الموصلة اليه ، فالابواب تطلق على المداخل الحسية
والعنوية ومنه (فتحنا عليهم ابواب كل شيء) ومنه ابواب جهنم وهي امهات اجناس
الباطيل والمعاصي التي هي سبب دخولها، وكذا ابواب العلم والكتب (وادخلوا من
ابواب متفرقة) بحيث لا يراكم من هنالك مجتمعين فيحسدكم الحاسدون ، ويكيد
سئم انظانون ظن سوء ، فاذا وقع بكم مكروه بحسدهم وكيدهم أو بسبب آخر
خشيت أن يصيبكم كلكم فيحاط بكم ﴿ وما أغني عنكم ﴾ وما أدفع عنكم بوصيتي
هذه ﴿ من الله ﴾ أي مما قضاه الله وقدره في علمه وسنن خلقه ﴿ من شيء ﴾ قل
أو كثير، فما قضاه وحكم به لا بد من وقوعه ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أي ما الحكم
في تدبير العالم ونظام الاسباب والمسببات إلا لله وحده ﴿ عليه توكلت ﴾ دون
غيره ودون علمي ووصيتي ، وحولي وقوتي ﴿ وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ كلهم
لاعلى أمثالهم من المخلوقين ولا على أنفسهم ، بل يجب على كل عاقل يؤمن به أن
يتخذ لكل أمر ما يقدر عليه من الاسباب ، وأن يوصي بها بعضهم بعضاً ، وأن
يكون اتكالم في النجاح وقضاء الحاج عليه ، فان من الاسباب ما يخفى عليهم
ومالا تصل اليه أيديهم

٦٨ ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾ وهو الابواب المتفرقة ﴿ ما كان

يفني ﴾ يمنع أو يدفع دخولهم أو أمره لهم وامتثالهم له ﴿ من الله من شيء ﴾ أي
أدنى شيء من المكروه الذي من شأنه أن يحول دون رجوعهم بنيامين ، وقد أخذ
عليهم الموثق بان يأتوه به إلا اذا أحيط بهم فلم يبق منهم أحد ، وانما يقع هذا
في العادة الغالبة اذا كانوا مجتمعين ﴿ إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴾ هذا
استثناء منقطع بالاتفاق والمعنى أن يعقوب كان يعلم أن الحذر لا يدفع القدر ،
ولكن كانت هنالك حاجة تعتلج في نفسه ، قضت الحكمة الا يكشف بها أحداً
منهم ، هي وراء ما يخطر بالبال من أسباب الاحتياط لسلامة بنيامين والعودة

به قضاها بوصيته لاولاده من حيث لا يظنون لها ﴿ وانه لذو علم ﴾ خاص به ربأمثاله الأنبياء ﴿ لما علمناه ﴾ لأجل ما أعطيناه من علم الوحي وتأويل الرؤيا الصادقة والالهام وذلك عندهم فوق صحة الفكر وسلامة العقل ، فهو يعلم به أن يوسف حي سيكون له شأن ، وأن الانسان يجب عليه في كل أمر يحاوله أن يتخذ له كل ما يصل اليه علمه من أسبابه حتى ما كان منها احتياطيا ثم يتوكل على الله في تسخير ما لم يصل إليه علمه مما لا تم المقاصد بدونه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ما نختص به رسلنا من علمنا اللدني ، فهم يتكلمون على ما يظنون أو يتوهمون من الاسباب ، والواجب الجمع بين الاسباب الصحيحة وبين الاتكال على الله وهو ما فعله يعقوب عليه السلام

هذا ما يدل عليه ظاهر الآيتين من تفسيرها الظاهر المتبادر من لفظهما ، وتلك الحاجة التي كانت في نفس يعقوب تفسير باطن لا يفهمه إلا من عرضها على أول القصة وآخرها ، وهو ما فهم يعقوب من رؤيا يوسف عليهما السلام من أن ربه يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب به ، وما جزم به من تكذيب إخوته في قولهم أكله الذئب ، فقد كان يعلم أن يوسف حي باق وينتظر تحقيق رؤياه له ولآل يعقوب ، وقد قلنا إن علم يعقوب بهذا كان علما قطعيا ولكنه مجمل مبهم لا يتناول مكانه بعد أخذ السيارة له ولا ما فعل الله به ، فلما قص عليه أولاده ما كان من ضيافتهم وكرامهم في قصر ملك مصر ووزيره العزيز المفوض ، ومطالبته إياهم بأن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، وأكد هذا الطلب وألح فيه وأنذرهم الحرمان من الكيل لهم إن لم يأتوه به ، ترجح عنده أن هذا العزيز العطوف الرؤف المحسن المضيف لاولاده دون الوفود التي تفد عليه من مصر وغيرها لطلب الرزق هو يوسف بعينه ، ولم يكن له أن يجزم بذلك عقلا ، ولم يخبره الله به وحيا ، لأن كل شيء عنده تعالى بقدره ، ولكل قدر أجل ، فلحق يعقوب أبناءه وصيته رجاء أن تنكشف بها الحقيقة أو تزداد قوة إلى أن يكشفها الله تعالى الكشف الاخير بتأويل رؤيا يوسف التام

قال يا بني لا تدخلوا على هذا الملك الكريم أو الوزير العزيز من باب واحد من أبواب الوصول اليه ، بل ادخلوا عليه متفرقين من أبواب متعددة ، وأراد بذلك أن يروا بأعينهم ما يكون من تأثير كل طائفة منهم في نفسه وما يظهر على أسارير وجهه وحرارة عينيه ولعائنها عند رؤية شقيقه فيمن يدخل معهم ، إذ لا يعلم هذا إذا دخلوا عليه كلهم كوكبة واحدة ، وقد ابهم أمر الوصية عليهم ولم يشر إلى سببها ، وانتظر أن يخبروه بما سيقع لهم بعد وقوعه

ويؤيد هذا قوله تعالى بعدما تقدم (فلما دخلوا على يوسف) فعمل منه أن المراد من الدخول الاول دخولهم عليه لا على مصر ، ثم يؤكده أنه لم يصدقهم في قولهم (إن ابنك سرق) وقال لهم (بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا) ثم قوله (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) ثم قوله (إني لأجد ريح يوسف) الخ ثم انكشاف الامر كله بما تمت به القصة

هذا ما تبادر إلى فهمي أنه الحق الموافق للسياق والجمع بين أول القصة وآخرها وفهمها بنظر العقل المستقل في الحكم ، بعد أن توجهت إلى الله أن يلهمني الصواب في تلك الحاجة في نفس يعقوب ، كما أتوجه اليه وأدعوه دائما في الاسحار وفي غيرها أن يوقفتي في تفسير كتابه لما يحبه ويرضاه من الحق ونفع الخلق

والمشهور عند الخواص والعوام من حاجة يعقوب التي كانت في نفسه أنه كان يخاف على اولاده إصابة العين وهو أول ما قرأته في تفسير الجلالين ثم رأيت في الدر المنثور مرويا عن أشهر علماء التفسير المأثور من الصحابة والتابعين كابن عباس ومحمد بن كعب القرظي ومجاهد وقتادة والضحاك . ولكن روي عن ابراهيم النخعي في ذلك أن يعقوب أحب أن يلقى يوسف أخاه في خلوة . وهذا الذي قارب الصواب ولم يقرطس في هدفه فزعم أنه كان يعتقد أن يوسف ملك مصر ، ولو صح هذا لما قال بعده (يا أسفا على يوسف وايبضت عيناه من الحزن)

فما الخوف من العين ففيه أنه مخالف للسياق القريب الدال على الحرص على سلامة بنيامين والاحتياط للاتبان به ، فان الخوف عليهم من العين إذا دخلوا من باب واحد يعني به الجماعة دون الافراد ، ولا يظهر فيه شيء يخص بنيامين ، وهم

قد دخلوا مصر أول مرة من باب واحد فلم تصبهم العين، ولو صح ما في سفر التكوين من اتهام يوسف إياهم بالتهجس لجاز أن يقال إن رؤيتهم مجتمعين هو الذي أوقع الشبهة عليهم ، وهم إنما اجتمعوا عند يوسف لافي باب من أبواب مصر ، وحوادث الاصابة بالعين عند المصدقين لها قليلة واكثرها وهمية ولم يرو عنهم أنها بلغت أن يقتلها جماعة من الناس اشداء كاخوة يوسف، وهم فريقان أحدهما يرى أنها تقع من تأثير بعض الانفس الشريرة الحسود فيما تتوجه اليه توجهها قويا ، والآخر يسلكها في خوارق العادات أو الحوادث المجهولة السحرية، والمؤمن بالله من كل منهما لا يقيم لتأثيرها وزنا ، بل منهم من يقاوم تأثيرها بعد وقوعه بالتوجه الى الله والدعاء والرقية ، فان تأثير الايمان والتوجه الى الله تعالى ودعائه وذكره والرقية بما يعتقد تأثيره قد يكون أقوى من تأثير النفس الشريرة ومنها العين كما بيناه في موضعه، ونظرية التأثير النفسي ومنه التنويم المغناطيسي مبنية على تأثير القوي من الافس في الضعيف ، واقد رأيت في استانبول رجلا نوم امرأة تنويما مغناطيسيا فقلت له ان استطعت أن تنومي فلك حلك في أو ما شئت من الدراهم ، فاعترف بمجزه ، وعلاه بأن نفسي أقوى من نفسه

وقد صح في وصف الذين يدخلون الجنة بغير حساب في الحديث الصحيح أنهم « الذين لا يسمرقون وعلى ربهم يتوكلون » فالرقية تنافي التوكل لانها سبب وهمي ضعيف، ولكن الاخذ بالاسباب القوية المطردة الثابتة بالتجارب المنتظمة في سنن الله تعالى لا ينافي التوكل ، بل تركها هو الذي ينافي التوكل كما قررناه في موضعه من هذا التفسير وغيره وقد صرح بمعقوب عليه السلام في هذا المقام بتوكله على الله وحده ، وهو دليل على أن ما قصده بتوصيته لأولاده لا ينافي التوكل ومنه الخوف من العين ، وفي الصحيحين وغيرها ان « العين حق » والاذن أو الامر بالاسترقاء من العين، وسنحقق المسألة في خلاصة تفسير السورة إن شاء الله تعالى

(٦٩) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا

أَخُوكَ فَلَا تَبْتَلِسْ بِمَا كَانُوا يَـمْلُونَ (٧٠) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ

جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتَهَا الْمِيرُ إِنَّا كُنْمُ
 لَسَارِقُونَ (٧١) قَالُوا وَأَقْبُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ؟ (٧٢) قَالُوا نَقْدُ
 صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٣) قَالُوا
 تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ
 (٧٤) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ؟ (٧٥) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ
 وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَّالِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٦) فَبَدَأَ
 بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَتَأَهُ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاؤِ أَخِيهِ، كَذَّالِكَ
 كَذَّنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ،
 تَرَفَعَ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

٦٩ ﴿ولما دخلوا على يوسف﴾ في مجلسه الخاص به بعد دخولهم البلد أو
 باحة القصر من حيث أمرهم أبوم ﴿أوى إليه أخاه﴾ أي ضم إليه أخاه الشقيق
 وهو بنيامين من دونهم، وهذا ما كان يتوقع يعقوب أو أكثر مما كان يتوقع من
 حذب عليه يظهر أثره في وجهه أو عناية يختصه بها ﴿قال إني أنا أخوك﴾ يوسف
 الذي فقدتموه في صغره. وقيل إنه لم يصرح له بأنه أخوه الشقيق وإنما قال هذا من
 باب التجوز والتشبيه، ويرد هذا تأكيد الجملة الخبرية الاسمية بإي وبتأكيد ضمير
 المتكلم، وبدل على الحقيقة قوله ﴿فلا تتأس بما كانوا يفعلون﴾ أي فلا يرهقك
 بعد الآن بؤس أي مكروه ولا شدة بسبب ما كانوا يفعلون من الجفاء وسوء
 المعاملة بحسدهم لي ولك. فالابتئاس افتعال واهتمام بالأسباب التي تجلب البؤس والشقاء.
 وفي سفر التكوين أن أباهم أرسل معهم هدية إلى الرجل فوق الفضة التي
 يشترون بها القمح والفضة التي كانت ردت اليهم لاحتمال أن تكون ردت سهواً
 وقال لهم ﴿٤٢: ١٣﴾ وخذوا أخاكم وقوموا ارجعوا إلى الرجل ١٤ والله القدير

يعطيك رحمة أمام الرجل حتى يطلق لكم أخاكم الآخر (١) وبنيامين وأنا إذا
 عدت الاولاد عدمتهم ١٥ فأخذ الرجال هذه الهدية وأخذوا ضعف الفضة في
 أيادهم (كذا) وبنيامين وقاموا ونزلوا الى مصر ووقفوا أمام يوسف ١٦ فلما رأى
 يوسف بنيامين معهم قال للذي على بيته أدخل الرجال إلى البيت واذهب ذبيحة وهي،
 (طعاما) لان الرجال يأكلون معي عند الظهر ففعل الرجل كما قال يوسف وفيه انهم
 لما أدخلوا إلى بيت يوسف خافوا أن يقع بهم ويأخذ عبيدهم وحميرهم فقصوا على الرجل
 قصتهم ومنها ما وجدوه في رحالهم من الفضة المعادة اليهم فطأ بهم وأخرج اليهم أخام
 شمعون وأكرمهم إلى أن جاء يوسف وقت الظهر ليأكل معهم ، فلما جاء قدموا له
 الهدية وسجدوا له إلى الارض وسألهم عن سلامتهم وسلامة أبيهم أحي هو ؟ (٢٨)
 فقالوا عبدك أبونا سالم هو حي بعد وخرنا وسجدنا ٢٩ ورفع عينيه ونظر بنيامين
 أخاه ابن أمه وقال : أهذا أخوكم الصغير الذي قاتم لي عنه ؟ ثم قال الله ينعم عليك
 يا ابني ٣٠ واستعجل يوسف لأن أحشاه حنت إلى أخيه وطلب مكانا ليبيكي ،
 فدخل الخدع وبكى هناك ٣١ ثم غسل وجهه وخرج وتعجل . وقال قدموا طعاما
 ٣٢ قدموا له وحده ، ولهم وخدم ، وللمصريين الآكلين عنده وخدم ، لان
 المصريين لا يقدر أن يأكلوا طعاما مع العبرانيين ، لانه رجس عند المصريين ٣٣
 فجلسوا قدامه البكر بحسب بكريته والصغير بحسب صفه فبهت الرجال بعضهم
 الى بعض ودفع حصصا من قدامه اليهم فكانت حصص بنيامين أكثر من حصص
 جميعهم خمسة أضعاف » وهذه الرواية ذكرها الزمخشري بما هو ألطف مما في سفر
 التكوين ولم يذكر المصريين بل ذكر انه اجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين
 وحده فبكى وقال لو كان أخي يوسف حيا لأجلسني معه ، فقال يوسف : بقي أخوكم
 وحيداً ، فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ، وقال أنتم عشرة فليزل كل اثنين منكم
 بيتا (أي حجرة) وهذا لا ثاني له فيكون معي ، فبات يوسف يضمه إليه وبشم رائحته
 حتى أصبح ، وسأله عن ولده فقال لي عشرة بنين اشتقت أسماءهم من اسم أخ لي
 هلك ، فقال أنجب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال من يجد أخا مثلك ؟
 (١) يعني بأخيهم الآخر شمعون إذ كان على روايته قد أمسكه عنده رهننا ليأتونا بنيامين

ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام اليه وعانقه وقال له (إني أنا أخوك) الخ وهذا قريب من العقل والفطرة، وفيه من عواطف الرحم وإيثار الأخ الشقيق على غيره ما سنتكلم عنه في الخلاصة الاجمالية إن شاء الله تعالى

٧٠ ﴿فلما جهزهم بمبهازم﴾ تقدم مثله قريبا ﴿جعل السقاية في رحل أخيه﴾ السقاية بالكسر: المكان الذي يسقى فيه الناس، وولاية سقيهم حيث تكون حرفة (أو مصلحة كما يقال في عرف هذا العصر) ومنه سقاية الحاج المعروفة قبل الإسلام وبعده إلى أن كثرت الماء بمكة وكثر الحجاج. قالوا: وتطلق على إناه أو وعاء يسقى به وهو الذي عبر عنه في الآية ٧٢ بصواع الملك، وهو كالصاع مكيال معلوم يكال به الحب وغيره، ويلوح لي أنه يسمى سقاية إذا كيل به الشراب الذي يوزع على المستقين كالحجاج إذ كانوا يسقون نبيذ التمر (أي تقيعه) فيكفي عدة منهم، لا أنه ما يكفي الواحد كالكأس والكوب، وقد أطلقه المفسرون على المكيال الذي يسمى المكوك (مذكر) وهو ثلاث كيلجات، والكيلجة بكسر الكاف وفتح اللام: كيل معروف لأهل العراق وهي منا وسبعة أثمان منا، والمنا رطلان اهـ من المصباح. وفي الافصح ان المكوك نصف الوية وهي اثنان وعشرون مدا بمد النبي ﷺ أو ثلاث كيلجات، والمد مكيل وهو رطلان أو رطل وثلاث وهو أيضا ربع الصاع اهـ فالمكوك على هذا كيلة مصرية، فالسقاية والصواع إذا كيل من ١٢ من الاردب المصري المعروف الآن، والظاهر أن إضافته إلى الملك يراد به أنه المكيال الرسمي الذي صدر به أمره، لا كما يفهم من أكثر التفاسير أنه كان كأسا من الذهب أو الفضة لشربه، فما المناسبة بين كأس الشراب، ومكيل بيع الطعام؟ وفي سفر التكوين انه طاس ليوسف من الفضة كان يشرب فيه ولولم يسم إلا بالسقاية لصح أن يوافق هذا المعنى. والصاع يصح أن يشرب منه لا به

وأما رواية التفسير المأثور فأخرجوا عن ابن عباس في السقاية قال: هو الصواع وكل شيء يشرب منه فهو صواع، وفي رواية أخرى عنه في صواع الملك قال شيء يشبه المكوك من فضة كانوا يشربون فيه، وفي رواية ان نافع بن الأزرق قال له اخبرني عن قوله [صواع الملك] قال الصواع الكأس الذي يشرب فيه. قال وهل

تعرف العرب ذلك؟ قال نعم أما سمعت الاعشى وهو يقول :
 له درمك في رأسه ومشارب وقدر وطباخ وصاع وديسق
 وفي رواية عنه : صواع الملك كان من نحاس ، وعن عكرمة كان من ذهب على
 ما يذكرون ، وفي رواية أخرى عنه كان من فضة ، وعن سميد بن جبير في صواع
 الملك هو المسكوك الذي يلتقي طرفاه كانت تشرب فيه الاعاجم الخ وفي رواية أنه
 كان فضة مموهة بالذهب . وهذه الروايات لا يمكن أن تكون مأخوذة من اللغة كما
 علمت وإن ذكرت أقوالهم في بعض كتبها ، وبيت الاعشى لا يدل على أن الصواع
 الكأس الذي يشرب الناس به ، وروى عن بعضهم أنهم كانوا يسقون به الخمر
 وهو أقرب ، ولا من التاريخ إلا ما ذكرناه من عبارة سفر التكوين زادوا عليها
 ما زادوا مما لا دليل عليه . وليس فيها حديث مرفوع صحيح ولا ضعيف ،
 فهي إذاً من الاسرائيليات التي لا قيمة لها

﴿ ثم أذن مؤذن ﴾ أي نادى مناد وقف بينهم ليسمعوا كلهم من التأذين وهو
 تكرار الاذان وكثرته ، ومعناه الاعلام بالشيء الذي تدركه الاذن ، يقال آذنه
 بالشيء أي بذنا : أي أعلمه به ، وأذن الناس بكذا أي أعلمهم المرة به بعد المرة ومنه
 المؤذن بالصلاة ﴿ أيتها العير انكم لسارقون ﴾ العير بالكسر الابل التي عليها الاحمال
 لانها تعبر أي تنجي ، وتذهب ، وقيل هي قافلة الخمر ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير ،
 كأنها جمع عير بالفتح (كبيت) وهو الخمار ، وفي سفر التكوين ان قافلتهم كانت من
 الخمر — أي نادى يا أصحاب العير قد ثبت عندنا انكم سارقون فلانر حلوا حتى ننظر
 في أمركم ، والظاهر من السياق أن يوسف (ع.م) وضع السقاية في رحل أخيه بيده
 ولم يكله الى أحد من فتياته كتجهيزهم الاول والثاني لثلاث يطعموا على مكيدته ،
 وكان من شأنهم أن افتقدوا السقاية لانها الصواع الذي يكيلون به للمتارين فلم
 يجدوها ، فأذن مؤذنتهم بذلك أي كرر النداء به كدأب الذين ينشدون المفقود
 في كل زمان ومكان ، وليس في العبارة ولا في السياق ما يدل على أنه قال هذا بأمر
 يوسف حتى يقال كيف أمره بالكذب ويحتاج الى تأويله كما تكلفه بعض المفسرين .
 وسرق من باب ضرب والمصدر السرق بالتحريك والاسم السرقة والسرقة بكسر الراء

٧١ ﴿قُلُوا أَوْ اقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي قال إخوة يوسف لجماعة المؤذن (المنادي) وقد تركوا رحلهم وأقبلوا عليهم ﴿ماذا تفقدون؟﴾ من فقد الشيء الموجود أي غاب عنه وعدمه فلم يجده حيث يمهده ، وتفقدته تعهده وفقدت عنه حيث يمهده

٧٢ ﴿قَالُوا نَفَقَدَ صَوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أي نفقد الصواع الرسمي الذي عليه شارة الملك ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ أي وسق حمل من الطعام وهو القمح وهذا يدل على أن عيرهم كانت الابل لا الحمير إلا أن يقال إن الاحمال كانت تقدر بما يحمله البعير وان حملت على غيره ﴿وأنا به زعيم﴾ يقول المؤذن وأنا كفيل بحمل البعير أجعله حلوانا للذي يجي به ، يعني ان كان مفقوداً غير مسروق أو جاء به غير سارقه

٧٣ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ القسم بالتاء خاص باسم الجلالة وسمع : ترب الكعبة ، أي لقد علمتم بما خبرتموه من أمرنا وسيرتنا في امتيارنا الاول وفي عودتنا وإعادةتنا لبضاعتنا التي ردت اليها مع غيرها لما نبغيه من الميرة الثانية اننا ﴿ما جئنا لنفسد في الارض﴾ أي في أرض مصر بسرقة ولا غيرها من الاعتداء على الحقوق ﴿وما كنا سارقين﴾ أي وما كان من شأننا ولا مما يباح في ديننا وأدبنا أن نسرق ، فهذا من نفي الشأن وهو أبلغ من نفي الفعل كما بيناه مراراً

٧٤ ﴿قَالُوا إِنَّمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي قال فتيان يوسف لهم فما جزاء الصواع على سارقه أو ما جزاء سارقه ان كنتم كاذبين في جحودكم للسرقة وادعائكم البراءة والنزاهة ؟

٧٥ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وَجْدٍ فِي رَحْلِهِ﴾ أي جزاؤه أخذ من وجد في رحله وظهر أنه هو السارق له وجعله عبداً لصاحبه ﴿فهو جزاؤه﴾ تقرير للحكم وتأكيده في شرع يعقوب وآله وهو أن يسرق السارق سنة ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ للناس بسرقة أمتعتهم وأموالهم في شرعنا ، فنحن أشد الناس عقاباً لهم ، وهذا زيادة في تأكيد قولهم لثقتهم ببراءة أنفسهم ، ولا يجوز أن يجعل هذه الجملة من كلام فتيان يوسف كما قيل

٧٦ ﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه﴾ أي فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم التي تشتمل عليها رحلهم ابتعاداً عن الشبهة وظن التهمة بالحيلة ﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ أي ثم انه بعد الفراغ من تفتيش أوعيتهم قنص وعاء أخيه فأخرج منه السقاية ، وقيل يصح عود الضمير المؤنث الى الصواع لانه يذكر ويؤنث كما قال الزجاج ، ولكن لا يناسب تأنيث ضميره بعد تذكيره في قوله (ولمن جاء به حمل بعير)

ومن دقائق القرآن التي يعز استخرجها على غير مهرة الفواصين على اللاكيء قوله تعالى (استخرجها) بدلا من أخرجها ، فان الاستفعال في أصل اللغة طلب الفعل لا لإيجاده ، والطلب يكون بالقول ويكون بالفعل ، ونكتة البلاغة فيه هنا ان يوسف فعل الاسباب التي انتهت الى خروج السقاية من وعاء أخيه سواء فعل ذلك بيده أو بأمره فلعلناه وأتباعه ، فهذا ابتغاء وطلب لها بفعل أسبابها ومقدماتها ، ومن أخرج الشيء من الشيء ابتداء بغير تكلف أسباب ولا مقدمات لا يصح أن يقال استخرجه : يقال أخرج يدك من جيبيك ولا يصح أن يقال استخرجها ، وقالوا استخرجت الشيء من المعدن بمعنى خلصته من ترابه ، فصيغة الاستفعال هنا على أصلها كالتي في الآية ، ومنه المستخرجات عند المحدثين فتأمل

﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ مثل هذا الكيد الخفي - وهو التدبير الذي يخفي ظاهره على ناظره والمتعاملين به حتى يؤدي الى باطنه المراد منه - كدنا ليوسف أي ألهمناه إياه وأوحينا اليه أن يفعله ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ هذا استئناف لبيان علة الكيد لمعناه أنه ما كان من شأنه ولا مما يبيحه له أمانته لملك مصر أن يخالف دينه أي شرعه الذي يدين الله تعالى به في أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرجوع معهم وهو ملتزم له بتفويضه الحكم في بلاده به ، فأخذه بغير جرم يبيحه له ظلم واستبداد ، وللسرقة عقاب دون أخذ السارق واسترقاقه ،

بيان هذا الكيد الالهي انه لما كان استبقاء بنيامين عند يوسف مصلحة اقتضتها الحكمة الربانية في تربية إخوته وعقابهم بما فرطوا في يوسف وتمحيصهم وتصفيتهم

واصطفاه أبيضاً أيضاً واستحقاقهم إتمام النعمة عليهم يتوقف على أخذه بصفة غير استبدادية وغير مانقضية شريعة الملك ، وما هو إلا أن يكون بحكم اختياري من إخوته على أنفسهم بمقتضى شريعتهم ، يذوقون به ألمه ومرارته فيما لا لوم به على أحد غير أنفسهم ، ولا سبيل إلى هذا الحكم منهم إلا وقوع شبهة السرقة على بنيامين من حيث لا يؤذيه ذلك ولا يؤلمه وقد أعلمه أخوه يوسف به وبغاياته . ولما كانت هذه الوسيلة الوحيدة إلى تلك الغاية الشريفة منكراً الظاهر لأنها تهمة باطلة وكان من شأن يوسف أن يتأثم بها ويتحاماها إلا بوحي من الله تعالى بين تعالى أنه فعل ذلك بمشيئته وإذنه فقال ﴿ **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ فهو نص صريح في أنه فعل ذلك بإذن الله تعالى ووحيه لأنه هو الذي اخترع هذه المكيدة ، واحتال بها لمخالفة الشريعة ، كما يزعمه علماء السوء أصحاب الحيل التي يخترعونها لاتباع أهوائهم والخروج عن حكمة ربهم وحكمه معاً ﴿ **تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ** ﴾ في العلم والإيمان كما رفعنا درجة يوسف ﴿ **فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ** ﴾ أوسع إحاطة وأرفع درجة منه في العلم المطلق إما علمه وإما غير علمه الذي تفوق فيه كما تدل عليه قصة موسى مع الخضر ، فلا يوجد أحد من علماء الخلق يحيط علماً بكل شيء . فيكون فوقهم كلهم ولا يكون فوقه أحد ، وإنما الذي أحاط بكل شيء علماً وهو فوق كل ذي علم على الإطلاق فهو الله رب العالمين عز وجل الذي أحاط بكل شيء علماً

- (٧٧) قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ ، فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ، قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ
- (٧٨) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ
- إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٩) قَالَ مِمَّا ذَلَّلَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَمَّنًا عِنْدَهُ إِنْ أَدَّا لظَالِمُونَ

ماذا قال اخوة يوسف العشرة عندما رأوا السقاية قد استخرجت من وعاء بنيامين؟

٧٧ ﴿قالوا إن يسرق﴾ هذا من دوننا وما كانت السرقة من شأننا ودأبنا

﴿فقد سرق أخله من قبل﴾ يعنون يوسف عليه السلام وان العلة فيه وفي أخيه واحدة وهي أمهما ، كأنها ورثا هذه الجريمة منها ، إذ لا ينفردان دونهم إلا بها ، وهذه التهمة دليل على أن حسدهم لها لا يزال كما نفي قلوبهم وأن علته الاولى اختلاف الامهات ، وزيادة عطف الاب عليهما كما قلنا في تفسير أول السورة . ويجوز أن تكون هذه التهمة كاذبة كقولهم (أكله الذئب) وأن يكون لها شبهة كشيبة سرق بنيامين اختلف المفسرون في هذا وذلك ورووا فيه روايات لا يعرف لها أصل إلا

ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا قال «سرق يوسف (ع.م) صنما لجده أبي أمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه في الطريق فميره بذلك اخوته» وعن سعيد ابن جبير وقتادة مثله غير مرفوع ولم يخرج المرفوع أحد من رواة التفسير المأثور غير ابن مردويه ولم يعتمد منه أحد بل عبر بعضهم عنه بقيل . وقيل كان الصنم لخاله يعقوب فأمرته أمه بسرقة ، وكانت مسلعة ، وقيل سرقة من كنيسة وقيل سرق مكحلة لخالته ، وقيل بيضة وقيل دجاجة ، وقيل أخذ شيئا من الطعام عن المائدة فتصدق به .

وكل هذه روايات إسرائيلية سخيفة كان زنادقة اليهود يضحكون بها على المسلمين وألقها وألقها بالمقام ما أخرجه ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد وهو : قال كان أول ما دخل على يوسف (ع.م) من البلاء فيما بلغني أن عمته وكانت أكبر ولد اسحاق عليه السلام وكانت اليها منطقة اسحاق فكانوا يتوارثونها بالكبر وكان يعقوب حين ولد له يوسف عليه السلام قد حضفته عمته فكان معها واليها فلم يجب احد شيئا من الاشياء كحبها إياه حتى اذا ترعرع ووقعت نفس يعقوب عليه السلام عليه فأتاها فقال يا أخية (١) سلمني إلي يوسف فوالله ما أقدر على أن يقب عني ساعة ، قالت فوالله ما أنا بتاركته فدعه عندي أياما أنظر اليه لعل ذلك يسليني عنه ، فلما خرج يعقوب من عندها عمدت الى منطقة اسحاق عليه السلام فخرمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه ، ثم قالت فقدت منطقة اسحاق فانظروا من أخذها ومن

أصابها، فالتفت ثم قالت اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام فقالت والله انه اسلم لي اصنع فيه ماشئت، فأناها يعقوب عليه السلام فأخبرته الخبر فقال لها: أنت وذلك إن كان فعل ذلك فهو سلمك ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت عليها السلام، فهو الذي يقول اخوة يوسف عليهم السلام حين صنع بأخيه ما صنع (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) والروايات لا يوثق بها ولا يدل شيء منها على سرقة حقيقية

﴿ فأمرها يوسف في نفسه ﴾ أي فكتم هذه القولة أو الكلمة التي سمعها يوسف منهم في نفسه ﴿ ولم يبدها لهم ﴾ أي لم يؤاخذهم بها قولاً ولا عملاً لأنه بلغ منهم كل ما أراد من حيث لم يتعرف اليهم ولكنهم ﴿ قال أنتم شر مكانا ﴾ أنتم شر في مكانتكم ومنزلتكم مما تعرضون به أو تقترونه، يعني انكم سرقتم من أبيكم أحب أولاده اليه وعرضتموه للهلاك والرق، وقتلتم لأبيكم قد أكله الذئب الخ ﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ وهو أنكم كاذبون فهو يجازيكم عليه في الدنيا الآن. والظاهر انه قال هذا في نفسه فهو استشفاف بياني، ورجح بعضهم أن هذه الجملة تفسير للضمير في (أمرها) على أنه مما يسميه النحاة الاضمار على شريطة التفسير الذي يجوزون به عود الضمير المتقدم على المتأخر عنه لفظاً ورتبة وله شواهد ونازع فيه بعض أئمتهم بما لا محل له في تفسيرنا

٧٨ ﴿ قالوا يا أيها العزيز ان له أباً شيخاً كبيراً ﴾ بالغا غاية الكبر في الشيخوخة أو كبير القدر جديراً بالرعاية كما علمت مما قصصناه عليك من خبره وتملقه به ﴿ فخذ أحداً مكانه ﴾ بدله إذ استحققت أخذه فهو محل محله عندك فيما تشاء من الخدمة التي تراد من الرقيق، من حيث ترحم هذا الشيخ الكبير فيما لا يضريك ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ الذين لا يأبون إحساناً يقدرون عليه أو من المحسنين إلبنا في ميرتنا وضيافتنا ونجهيزنا، وهذا الذي نرجوه منك الآن، هو غاية الاحسان

٧٩ ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ ﴾ أي نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ ﴿ إلا من

وجدنا متاعنا ﴿ وهو الصواع ﴾ عنده ﴿ وهو بنيامين ﴾، ولم يقل الامن سرق متاعنا اتقاء للكذب فانه يعلم انه ليس بسارق ، وقول المنادي «انكم لسارقون» مبني على الظاهر له من فقد الصواع فقد قال ما اعتقد ولم يكن يعلم المكيدة كما تقدم على أنه ليس كيوسف في تحرى الحق ﴿ إنا اذا ﴾ أي اذا أخذنا غيره ﴿ لظالمون ﴾ بمخالفة حكم شرعكم ونص فتواكم من إحدى الناحيتين ولشريعة الملك من الثانية

(٨٠) فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَاقِفًا مِنَ اللَّهِ ، وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّظْتُمْ فِي يُوسُفَ ؟ فَلَنْ أُبْرِحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨١) أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَا بَنَاتَانِ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلغَيْبِ حَافِظِينَ (٨٢) وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ (٨٣) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ هِيَ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٤) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَعْدِ عَلَى يُوسُفَ وَأَبْنَيْتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحَزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ

٨٠ ﴿ فلما استيسسوا منه ﴾ أي استحككم اليأس في أنفسهم من قبول العزيز لشفاعتهم واستعطفهم لاقامته الحججة عليهم بشرعهم وفتواهم وكون فعله حينئذ يكون ظلما بحكم الشريعتين : شريعتهم وشريعة ملك مصر ، أو استيسسوا من بنيامين ان يعود معهم الى ابيهم ، فالاستيساس هنا اخص من اليأس الذي يقع ابتداء من غير

طلب لاسباب الرجاء التي تحول دونه فهو على اصل معنى الصيغة كما قلنا آنفا في كلمة (استخرجها) وعبروا عنه بالمبالغة في اليأس ﴿خلصوا نجيا﴾ انفصلوا من كل شيء كانوا فيه وأنجموا دون يوسف واخيه وفتيانه لا يخاطبهم أحد ولا شيء خالصين للمناجاة والمسارعة في امرهم كأنهم نجبي واحد أو كأنهم نفس المناجاة، فالنجبي يطلق بمعنى المناجبي كالعشير والسمير بمعنى العاشر والساير ومنه قوله تعالى (وقربناه نجيا) وبمعنى المصدر أو اسمه اي التنجبي والتنجوي فيستوى فيه المفرد والمثنى والجمع فيقال هم نجبي ونجوي ومنه قوله تعالى (وإذ هم نجوي)

وهذه الجملة في منتهى البلاغة وإعجاز الإيجاز، يتمثل للعربي عند سماعها أولئك الاخوة العشرة وقد عرض كبيرهم عن استعطف العزيز، وغادر كل واحد رحله وما كان فيه، وانكش بعضهم إلى بعض وأدنى رأسه من رأسه وأرهقوا آذانهم لللنجوي ﴿قال كبيرهم﴾ في السن والرأي ﴿لم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله﴾ أي عهداً مؤكداً بالقسم بالله لتأنته بينيامين إلا أن يحاط بكم فلا يبقى منكم أحد وما الوقت ببعيد فيندسى ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ التفریط في الشيء المبالغة في التقصير والاهمال له، وضده الإفراط وهو المبالغة فوق الحاجة—أي ومن قبل هذا ما قصرتم في حفظ يوسف بمد وعدم المؤكد بحفظه، أو تفریطكم فيه، وما قاساه أبوكم من الحزن عليه ﴿فلن أبرح الأرض﴾ أي فلن أفارق هذه الأرض أو أرض مصر ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ بتركها وينيامين فيها والرجوع إليه ﴿أو يحكم الله لي﴾ بأمر من عنده مما هو غيب في علمه كأن بترك العزيز لي أخي بإلهام منه تعالى أو بسبب آخر، فالحكم هنا تكويني لا تكليفي وهو المعبر عنه بالقضاء والقدر ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لانه لا يحكم إلا بالحق وهو المقدر للاقدار، والمسخر للاسباب

٨١ ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق﴾ صواع الملك فاسترقه وزيره العزيز القائم بالامر في مصر عملا بشريعتنا إذ اضطررنا إلى إنبائه بها بعد أن استقنأنا . والاكتفاء بكلمة «سرق» من إيجاز القرآن في السكوت عن المعروف

بالقرينة أو غيرها من الدلائل كقوله تعالى (وجد عليه أمة من الناس يسقون)
﴿ وما شهدنا ﴾ عليه بالسرقه بساع أو إشاعة أو تهمة : ماشهدنا ﴿ إلا بما علمنا ﴾
إذ رأينا الصواع قد استخرج من متاعه ، أو ماشهدنا للعزير بأن السارق يسترق
إلا بما علمنا من شرعنا علما قطعيا جرى به العمل ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ فنعلم
انه يسرق — او فنعلم كيف وقع له هذا : هل هو حق او كيد كيد له ؟ ولو كنا نعلم
الغيب لما آتيناك الموثق علينا

٨٢ ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ أي أهل القرية التي كنا نمتار فيها ،
وهي مصر ، فقد اشتهر أمر هذه السرقة فيهم بحيث لو سئلوا لشهدوا ، أو اسأل
زائريها ، قال الراغب : القرية اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس وللناس جميعا
ويستعمل في كل واحد منها ، ومنه قرية النمل ، ﴿ والمير التي أقبلنا فيها ﴾ أي
أصحابها من كانوا يمتارون معنا ﴿ وإنا لصادقون ﴾ في شهادتنا سواء أسألت
غيرنا أم لا . انتهى ما لقنهم اياه كبيرهم

٨٣ ﴿ قال بل سولت لكم انفسكم امراً ﴾ أي فرجع الاخوة التسعة الى
أبيهم فقالوا له ما لقنهم كبيرهم فلم يصدقهم على نأ كيدهم للخبر وانما قال لهم مامعناه
ان الامر ليس كما تقولون بل سولت لكم انفسكم امراً كيدا آخراي هيئته وزينته
لكم فنفذوه ، فان لم تكونوا تريدون بأخيكم سوءاً فلم لقنتم هذا الرجل حكم
شربتنا وأفتنتموه به ؟ ﴿ فصبر جميل ﴾ فالذي عليّ والمصيبة قد وقعت صبر جميل
أتجمل به بين الناس وأشكو امري الى الله دونهم وأنوط الرجاء به وحده
﴿ عسى الله ان يأتيهم جميعاً ﴾ يعني اولاده الثلاث : يوسف وبنيامين وكبيرهم

الذي بقي مرابطاً في مصر ﴿ إنه هو العليم الحكيم ﴾ الذي يحيط علماً بحالي وحالهم
وله فينا حكمة بالغة هي ولا بد بالغة أجلها ، وهذا يلاقي قوله ليوسف إذ قص عليه
رؤياه (وكذلك يجتبيك ربك) الى قوله (ان ربك عليم حكيم) فتأمل وتدبره
وتذكر واعتبر

٨٤ ﴿وتولى عنهم﴾ أي أعرض عن اولاده قاطعا للكلام معهم كراهة له
 ﴿وقال يا أسفا على يوسف﴾ أي بالحزني وباحسرتي عليه، قبلي فقد حقت كلمتك علي،
 قال الزمخشري الاسف أشد الحزن والحسرة، وقال الراغب: الاسف الحزن
 والغضب معا وقد يقال لكل منهما على الانفراد، وذكر أن ابن عباس (رض)
 سئل عنهما فقال: مخرجهما واحد واللفظ مختلف، فمن نازع من يقوى عليه أظهره
 غيظا وغضبا، ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حزنا وجزعا اه مختصرا ومن
 استعماله في الغضب قوله تعالى (فما آسفونا انتقمنا منهم) وقال الزجاج: الاصل
 (يا أسفي) فأبدل من الياء ألفا لخفة الفتحة. والاسف شدة الجزع وقيل شدة الحزن
 ومناداة الاسف تعبير عن الشهور بأن الوقت وقته فهو قد وقع بحق فان الطبيعة
 مقتضية له فلا مناص منه لما تجدد من سبب اهتياجه اذ كان ينتظر ان ياتوه من مصر
 ببشرى لقاء يوسف كما علم مما قلناه في تفسير الحاجة التي كانت مطوية في سويداء
 قلبه اذ نصح لهم بالدخول من ابواب متفرقة، فخاب امله وحل محلّه ذهاب ابنه
 المسلي عنه، ولم يشركه معه بالاسف عليه لان مكان حب يوسف والرجاء فيه، قد
 ملا سويداء القلب وزواياه ومخانيه، وانما محل غيره وراء شفافه وجداره الخارجي

﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ أي عميتا أو اصابتهما غشاوة بيضاء ذهبت
 بصرهما موقتا مع بقاء عصبها المدرك للمبصرات صحيحا ﴿فهو كظلم﴾ أي
 مملوء غيظا على اولاده قد كتّمه في نفسه وفسروه بالمغموم وبالمكروب وبالكمد
 والمكمود، وقال قتاده: كظّم على الحزن فلم يقل الاخيرا، وفي لفظ: يردد حزنه
 في جوفه ولم يتكلم بسوء، وهو من كظّم السقاء إذا شده بعد ملئه، وكظّم البعير
 إذا ترك الاجترار، والكظّم مخرج النفس ويقال لمن يكتم ما في نفسه ككتم نفسه
 كظّم ومكظوم، والحزن عرض من أعراض النفس الطبيعية لا يندم شرعا إلا
 اذا بلغ بصاحبه الجزع أن يقول أو يفعل ما لا يرضي الله تعالى كما قال سيد الصابرين
عليه السلام عند موت ولده ابراهيم وقد جمات عيناه تذرّفاً فقال له ابن عوف:
 وأنت يا رسول الله! فقال «يا ابن عوف انها رحمة» ثم أتبعها باخري «فقال ان

العين تدمع والقاب يخشع ولا تقول إلا ما يرضي ربنا ، وانا بفراقك يا ابراهيم
محزونون » رواه الشيخان وغيرهما

ولكن الأنف العالية لا يبلغ منها الحزن غايته إلا اذا كان المحرك له أمر
إلهي يليق بها كما يعلم من الآية الآتية في جواب يعقوب لأولاده على عدلهم له
وفي التفسير المأثور عن النبي ﷺ قال « إن داود عليه السلام قال يارب ان
بني اسرائيل يسألونك بابراهيم واسحاق ويعقوب فاجعلني لهم رابعاً . فأوحى الله
اليه أن يادود إن ابراهيم ألقى في النار بسببي فصبر وتلك بلية لم تنلك ، وان اسحاق
بذل مهجة دمه بسببي فصبر وتلك بلية لم تنلك ، وان يعقوب أخذت منه حبيبه
فابيضت عيناه من الحزن وتلك بلية لم تنلك » وهذا حديث مرسل أخرجه ابن أبي
حاتم من طريق علي بن زيد بن الحسن عن الاحنف بن قيس ، وعلي بن زيد بن جدعان
هذا ضعيف له مناكير ضمنه الامام أحمد كروى ذلك عنه أولاده: حنبل وعبد الله
وصالح وغيرهم وقال الجوزجاني : رواه الحديث ضعيف وفيه ميل عن القصد . قالوا
وكان رافضياً وقد اختلط في آخر عمره وقالوا انه كان يقلب الاحاديث ورفاعاً أي
يرفع إلى النبي ﷺ ما ليس بمرفوع . وقال الحافظ ابن كثير في هذا الحديث :
وهذا مرسل وفيه نكارة فان الصحيح أن اسماعيل هو الذبيح ولكن علي بن زيد
ابن جدعان له مناكير وخرائب كثيرة والله أعلم . وأقرب ما في هذا أن الاحنف
ابن قيس رحمه الله حكاه عن بعض بني اسرائيل ككعب الاحبار ووهب ونحوهما
والله أعلم فان بني اسرائيل ينقلون ان يعقوب كتب الى يوسف لما احتبس أخاه
بسبب السرقة يتلطف له في رد ابنه : إنا أهل بيت مصابون بالبلاء فابراهيم
ابتلي بالنار واسحاق بالذبح ويعقوب بفراق يوسف في حديث طويل لا يصح والله أعلم اهـ

(٨٥) قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَوْنَ تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ

تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٦) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى

اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٧) يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا

مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْتَسُّوْا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْتَسُّ
مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمِ الْكَافِرُونَ

٨٥ ﴿ قالوا تالله تفتؤ تذكرو يوسف ﴾ أي قسما بالله لا نفتأ ولا نزال تذكر يوسف وتلهج به لا تفترو ولا تنسى همه ﴿ حتى تكون حرضا ﴾ أي مشفيا على التلف ومشرقا على الهلاك من شدة الحزن والجزع ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ بالفعل فتموت كذا. الاصل في فعل فتىء أن يستعمل منغيا كاخواته: «ما زال وما برح وما انفك» فيقال ما فتىء ولا تفتؤ فحذف (لا) مع القسم لانه لا يلتبس بالاثبات لان القسم اذا لم يكن معه علامة الاثبات كان على النفي. ومن الشواهد عليه قول امرئ القيس فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسي إليك وأوصالي والحرض مصدر حرض (كتعب) إذا أشرف على الهلاك من مرض أو حزن أو خوف فهو حرض بالتحريك يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع مذكرا ومؤنثا لأنه مصدر وقال الراغب: الحرض ما لا يمتد به ولا خير فيه ولذلك يقال لما أشرف على الهلاك وفي الأساس: نهك فلان مرضا، حتى أصبح حرضا، وهو المشفي على الهلاك، ولا تأكل كذا فانه بمرضك وبمرضك اه

٨٦ ﴿ قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ أصل البث تفريق المجتمع وإثارة الكامن، وبث النفس إظهار ما انطوت عليه من الغم أو السر، أي لم تلوموني وأنا لم أشك اليكم ولا الى أحد من الخلق ككدي الذي ضاق صدري عن حبسه فبثته، وحزني الذي أمضني كما انه فأفشيته بهذه الكلمة (يا أسفي على يوسف)؟ إنما أشكو ذلك إلى الله وحده ﴿ وأعلم من الله ﴾ في ابتلائي بفراق يوسف وخفاء حاله علي وحسن عاقبته ﴿ ما لا تعلمون ﴾ أعلم منه انه حي يرزق وان الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل

يعقوب وذريته به في الدنيا والآخرة ، وأرى البلاء يقتناوشكم من كل جانب
بذنوبكم وبتفريطكم بيوسف من قبل ، وبأخيه الذي كان يسليني عنه من بعد ، وأنتم
تظنون أن يوسف قد هلك ، وأن بنيامين قد سرق فاستترقاً ، وتحسبون أنني بحزني
ساخط على قضاء الله في شيء أمضاه فلا مرد له ، وأنا أعلم أن له أجلا فيه هو بالغة ، كلا ،
هذا ما يدل عليه حال يعقوب (ع . م) ثم راجعت الدر المنثور فرأيت في
تفسير الآيات روايات وعظية لا يصح منها شيء ولا يليق بنبي الله مبنية على عدم التفرقة
بين الشكوى من الله والشكوى إلى الله التي هي مناجاة واسترحام الله ، ومن أكلبها
ماعزاه وهب بن منبه إلى التوراة . وإنما الفهم الصحيح منها ما رواه ابن جرير وابن
أبي حاتم عن ابن عباس (رض) في تفسير (وأعلم من الله ما لا تعلمون) يقول
أعلم أن رؤيا يوسف حق وأنني سأسجد له

٨٧ ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ أي اذهبوا إلى مصر
فتكلموا أن تدركوا بحواسكم من سمع وبصر شيئا من حال يوسف وأخيه حتى
تكونوا على يقين من أمرهما ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ أي فرجه وتغيبه عن
النفس هذا السكر ، وتروى بوجه ما ترتاح له الروح ويطمئن به القلب ﴿ إنه لا يأس
من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ بقدرته وسعة رحمته الذين لا يتجاوز
علمهم بشئون أنفسهم وأحداث زمانهم دائرة ظنونهم واختبارهم الناقص - إلى
ما لله عز وجل في عبادته من حكم بالغة ولطف خفي ، فإذا تقطعت بهم الأسباب
دون ما يبعون منه من كشف ضر أو جلب خير ، بجمعوا أنفسهم أسفاً ، وانتحروا بأيديهم
هما وحزنا ، فأنفع ما يمتاز به المؤمن على الكافر أن المصائب والشدائد لا تقنطه
من رحمة ربه وتفريجه لكرهه ، وإن عظم عليه المصائب ، وتقطعت به الأسباب

ثم أعلم أن الروح (بالفتح) ما ترتاح له الروح (بالضم) وهما من مادة الريح ،
كما أن مرادفها وهو النفس (بالفتح) من مادة النفس (بالتحريك) وهو نسيم

الهواء الذي يتنفسه الانسان فيطهر دمه ويحفظ حياة نفسه الحيوانية، وما سميت اللطيفة الربانية المدركة العاقلة نفسا وروحا وهي من عالم الغيب - إلا لان نسيم الهواء أقرب ما في عالم الشهادة اليها في لطافتها وما في معناها من معنى الحياة. قول الشاعر:

* وحل من نفسي محل النفس *

فروح الله لطفه الذي هو واسطة بين الحياتين الروحية والحيوانية بما فيه من تنفيس كرب النفس، ويسمى الفرج بعد الضيق نفسا (بالتحريك) ومنه حديث «إني لأجد نفس الرحمن من ههنا» وأشار إلى اليمن وله تسمية رواه الطبراني عن سلمة بن نفيل، وحديث «لا تسبوا الريح فانها من روح الله تعالى» الخ رواه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة والنسائي والحاكم عن أبي

(٨٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرُّ
وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَمَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ
اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٩) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ
وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٩٠) قَالُوا أَوَ لَمْ نَكْ لَا نَتَّيُوسُفَ قَالَ أَنَا
يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا، إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ
لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩١) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا
وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ (٩٢) قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَقْرَأُ اللَّهُ
لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٣) اذْهَبُوا بِمِصْبِي هَذَا فَإِنَّ قُوَّةَ
عَلِيٍّ وَجْهٍ أَبِي يَأْتِ بِصِيرٍ وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ

﴿ الفصل الرابع في الفرع القريب، وعطف الحبيب على الحبيب ﴾

٨٨ ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ﴿ أي أصابنا
ضر المجاعة من هزال وضعف ، شكوا هذه المرة ما لم يشكوا من قبل ليروا تأثير
الشكوى فيه ، وغرضهم الاول التحسس لا الامتياز ، شعروا أن أباهم يرجح أنه
هو يوسف فأرادوا أن يروا تأثير هذا الاستعطاف فيه ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴿
ردية من شأنها أن يدفعها التجار ويردوها احتقاراً لها ، إذ لم يبق عندنا غيرها ،
من أزجى الشيء وزجاء إذا دفعه برفق ، ومنه (ألم تر أن الله يزجج سحابا)
وفي المصباح : وبضاعة مزجاة تدفع بها الايام لقلتها ، وأزجيت الامر آخرته ،
وذكر بعض رواة المأثور نوع هذه البضاعة ولا مستند له ، وهذه العود بين مصر
وفلسطين لم تذكر في سفر التكوين ﴿ فأوف لنا الكيل ﴿ أكله كما أدرك الحميدة ومقتضى
إحسانك ﴿ وتصدق علينا ﴿ بما تزيده على حقنا ببضاعتنا بعد إغماضك عن رداها
﴿ إن الله يجزي المتصدقين ﴿ باختلاف ما ينفقونه والمضاعفة لهم بما هو خير منه ، بالغوا
في التذلل والاستماعة وإظهار الذل والحاجة لما ذكرنا آنفاً من تحسس تأثير ذلك
في معارف وجهه ، وجرس صوته ، ومغالبة دمه ، واستشكل المفسرون طلب
الصدقة وهي لا تحل للانبيا قياساً على خاتمهم عليه وعليهم السلام ، والقياس مع
الفارق ، والجماعة لم يكونوا أنبياء ، وما فعلوه معه كاف في الدلالة على بعدهم عن النبوة
واختصاصه بها دونهم كما تقدم ، واقد كان تحسسهم في موضعه ، فماذا قال يوسف ؟

٨٩ ﴿ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟ ﴿ أي هل علمتم الآن ما أن
لكم أن تعلموه بالتجارب في هذه السن من عاقبة ما فعلتم بيوسف من قبل وأخيه بنيامين
من بعد ، وقد قرب العهد ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴿ قبح فعلكم ، في نظر ربكم ،
وحكم شرعكم ، وحقوق بر الوالد ، ورحمة الرحم ، أي في الحال التي كان يغلب
عليكم الجهل بهذه الحقوق ، وبعاقبة البغي والعقوق ، ويجوز أن يكون مراده
بالجهل ما يقابل العقل والحلم ، لا ما يصاد العلم ، وهو الطيش والنزق واتباع الهوى

وطاعة الحسد والاثرة ، والختار عندي الجمع بين المعنيين فكلاهما كان واقعا
قال يوسف هذا تمهيداً لتعريفهم بنفسه إذ آن أن يصارحهم به ، وقد بلغت
الاقدار من تربيتها له ولهم غايتها ، ولم يبق بعد هذا التمهيد إلا التصريح ، وتأويل
رؤياه التي كانت السبب الاول لكل هاتيك الافاعيل ، وقد كان هذا التمهيد
عجبا في بلاغته ، وما يدل عليه من شعور يوسف الصديق النبي (ع. م) وخلقه
ودينه وأدبه ، إذ فصل بهذا السؤال الوجيه الساذج في قضية بحار في الفصل فيها
أوسع القضاة عدلا ورحمة ، وبعيا بالتعبير المرضي عنها أبلغ الادباء علما وحكمة ،
وهي مقابلة طرفين تعمد أحدهما اقتراح جنائية على الآخر طال عليها الامد عشرات
السنين ، وكانت غايتها أن يقف الجاني بين يدي المجني عليه وهو بجهله موقف
البائس الفقير ، المستعجدي الحقير ، على ما نشأ عليه من عزة النفس ، وشرف
الحسب والنسب ، واقتضت الحال أن يتعارفا وهما اخوان ، وأن يتناغيا
ما كان ، فكيف يتقابلان ؟

المقام مقام خجل من الجاني وخسوف وكسوف ، واسوداد وجوه ، وتنكيس
أبصار ، واعتذار واستغفار ، يذيب الغواد ويخرس اللسان ، يقابله حلم وعفو وكرم
من المجني عليه ، ربما كان الاعتزاز بها على الجاني لأول وهلة أقتل لعزة نفسه وإبائه
من العتاب ومما هو أشد منه وهو التأنيب والتثريب ، فكيف كان المخرج ليوسف
عليه السلام ، من هذا المأزق الذي تحار فيه الافهام ، ويضطرب فيه الوجدان ،
بما يكون خير أسوة لصلة الارحام ، ومحو الاساءة بالاحسان ؟

ذكر آخوته بذنوبهم قبل أن يتعرف اليهم ، تذكير آجلا مقرونا بذكر العذر
الطبيعي دون الشرعي ، وهو الجهل بقمح الذنب في نفسه وبسوء عاقبته ، وبالجهالة
التي تزينه لغاعله ، وتمكن لتزغ الشيطان من نفسه الامارة بالسوء ، بل بهما جميعا .
ذكرهم هذا بسؤالهم سؤال العارف المتجاهل ، باستفهام التقرير ، لا التقرير والتوبيخ كما
قيل ، فانه يرده ما يأتي من نفي التثريب ، واستغفار العفو والصفح ، وأما سهم أخيه
من فعلتهم فهو ما اقتضاه إشرآكهم إياه في حسدهم له من أول نشأته الدال عليه
قولهم أولا (ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا) وقول أبيهم آخراً (هل آمنكم

عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل؟) واتهامه إياهم بأنهم ما أفتوا عزيز مصر باسترقاقه بالسرقة إلا بما أضمره له من حقد ، وما سولته لهم أنفسهم من أمر ، ولا يخفى على ذكي ولا بايد ، كيف يعيش الفرد المحسود الضعيف ، مع جماعة تحسده وتكيد له هذا ما أفهمه من عرض القضية على ما نعلم من طباع البشر وسنة الله في الاجتماع ويقرب منه من إحذى النواحي ويبعد عنه من سآثرها ما قاله الزمخشري مشيراً الى ترجيح قول جماعته (المعتزلة) على خصوصهم (الاشعرية) في مسألة التقييح والتحسين ، وإنا نورده لبلاغة عبارته واتباع غيره له فيه ثم نشير إلى ما فيه وهو : (قال هل علمتم) أتاهم من جهة الدين وكان حليماً موفقاً فكلمهم مستفهما عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعىه التائب فقال هل علمتم قبح (ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟) لا تعملون قبحه فلذلك أقدمتم عليه ، يعني هل علمتم قبحه فتبتم الى الله منه؟ لان علم القبح يدعو إلى الاستقباح والاستقبح يجر الى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصيحاً لهم في الدين لامعانة وتربياً ، إشاراً لحق الله على حق نفسه في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب ، وينفث المصدور ، ويتشفي المغيظ الخنق ، ويدرك ثأره الموتور ، فله أخلاق الانبياء ما أوطأها وأسججها ، والله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها ، وقيل لم يرد نفي العلم عنهم لانهم كانوا علماء وليكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل محام جاهلين ، وقيل معناه إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة ، روي أنهم لما قالوا (مسنا وأهلنا الضر) وتضرعوا اليه ارفضت عيناه ثم قال هذا القول . وقيل أدوا اليه كتاب يعقوب :

«من يعقوب اسرائيل الله بن اسحاق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله إلى عزيز مصر . أما بعد فانا أهل بيت موكل بنا بالبلاء ، أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه برداً وسلاماً ، وأما أبي فوضع السكين على فقاؤه ليقتل ففداه الله ، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته الى البرية ثم أتوني بمبيصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي من بكائي عليه ، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به

فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا انه سرق وانك حبسته لذلك، وإن أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا، فان رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرأك السابع من ولدك والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب لم يمانك وعيل صبره فقال لم ذلك، وروي أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجواب: اصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا اه قول الزمخشري وأقره ابن المنير وغيره عليه، بل اتبعوه فيه

أقول: أما ما قاله في تفسير سؤالهم عن العلم بأن نفى علمهم بقبحه وعلله بأنهم لو شعروا بما فعلوه فهو تكلف مخالف لطباع البشر فانهم يفعلون التبيح وهم يعلمون قبحه طاعة للحسد والاثرة، وترجيحا لظهورهم على الهدى، وأما الرواية التي ذكرها في كتاب يعقوب (ع.م) الى عزيز مصر فهي من الاسرائيليات الباطلة، وأسلوبه اسلامي مصنوع، ومن أغراض كذب الاحبار ووهب بن منبه الروي عنه فيه اقناع المسلمين بأن الذبيح إسحاق لا اسماعيل كما تقدم في تفسير الآية ٨٤ (ص ١٠٥) خلافا لما متواتر عند العرب الذي أقره الاسلام وجعلت الاضاحي وهي سنة ابراهيم في فداء ولده اسماعيل من مناسك الحج حيث فداه الله في منى من ضواحي مكة ووطن اسماعيل، فبث زنادقة اليهود في التفسير المأثور أن الذبيح اسحاق، وقد صار هذا مذهبا يؤخذ بالتقليد ويحرف لاجله تفسير القرآن، فان القصة في سورة الصافات صريحة في أن الذبيح هو ولد ابراهيم الاول (اسماعيل) وأن الله قد بشره على احسانه فيها بولده الثاني (اسحاق) إذ قال في آخرها (٣٧: ١٠٦) إن هذا هو البلاء المبين ١٠٧ وفديناه بذبح عظيم - الى قوله - ١١٢ وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين

٩٠ ﴿ قالوا أءنتك لانت يوسف ﴾ قرأه ابن كثير (إنك) بهمزة واحدة والجمهور بهمزتين، كان سؤاله اياهم عما فعلوا بيوسف وأخيه سؤال عارف بأمرهم معهم من أوله البعيد جداً الى آخره القريب جداً، مصداقا لما أوجاه الله اليه حين ألقوه في غيابة الجب (وأوحينا اليه لتنبأهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) ودليلا راجحا على أنه هو يوسف إذ يبعد أن يعرف غيره هذا، فأرادوا أن يثبتوا منه بالعلم اليقين الذي يذهب بكل احتمال لما يعترضه من الشبهة بوجوده في هذا المنصب

السامي فوجهوا اليه الاستفهام بجملة اسمية مؤكدة بإين في اسمها وباللام في خبرها
وبضمير الفصل بينهما ، يعنون : أمن المؤكد القطعي الذي لا ريب فيه انك أنت
يوسف ؟ ولولا هذا لكان يكفيهم أن يقولوا : أنت يوسف ؟

ومن العجيب أن يتكلف المفسرون سببا لهذا السؤال ينتحلونه أو يفتلونه عن
يتقولون مثله من رواية الاسرائيليات كقول بعضهم إنه تبسم فعرفوه بثناياه وكانت
كالؤلؤ المنزوم ، وما كان هذا المقام معهم بمقام تبسم ، وكان أولى منه بالتبسم
يوم ضيافتهم ، ومجلاس مؤكثتهم ، وقول آخر إنه رفع التاج عن رأسه فنظروا
الى علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء !! ونقول : من ذا الذي رأى هذا القرن فرواه
باسناده المتصل في هذه القرون الطويلة ؟ ولم يسلم من الكلفة أو السخافة من
قارب الصواب منهم فقال إنهم عرفوه بالخطاب الذي لا يصدر إلا عن حنيف مسلم من
سنخ ابراهيم ، نعم إنهم عرفوه بخطابه معرفة ظنية راجحة كما قلنا ، ولكنه خطاب
لا يدل على الاسلام ولا على نسب ابراهيم صلى الله عليه وسلم بل خطاب عارف بما وقع ، وكونه
مسلماً من سنخ ابراهيم ليس من مدلول خطابه بنص ولا فحوى وإن كان هو
الواقع بالفعل ، فله العجب من افتتان جماهير الناس بهذه الروايات وتقليد بعض
المفسرين فيها لبعض ، من غير تأمل ولا بحث ، كأنها من كلام الله الذي يجب
تلقينه بالقبول والتسليم

﴿ قال أنا يوسف ﴾ صرح باسمه العلم لانه نص قطعي الدلالة مطابق لسؤال

﴿ وهذا أخي ﴾ الذي فرقم بيني وبينه ﴿ قد من الله علينا ﴾ جمع بيننا على
أحسن حال في ديننا ودنيانا ﴿ إنه من يتق ويصبر ﴾ أي ان الامر الواقع والحق
الثابت بالوحي وباستقراء التجارب هو ما تنطق به هذه القضية : من يتق الله فيما أمر به
ونهى عنه ، وفيما جرت به سنته في الاجتماع البشري ، ويصبر على ما أصابه من المصائب
والحنن وفتن الشهوات والاهواء حتى يبلغ الكتاب أجله فيها فلا يستعجل الاقدار
بشيء منها قبل أوانه ﴿ فان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ بل يوفيهم أجورهم في الدنيا
ثم في الآخرة وهو من خيارهم ، علق الجزاء على الاحسان في الاعمال فوضع الظاهر موضع

الضمير ، فلم يقل لا يضيع أجرهم لأنه تعلق على الوصف الجامع الذي هو علته ،
وبيان للقاعدة العامة في السنة الالهية فيه ، وتواضع في وضع التعريض بنفسه في
موضع التصريح بأنه كان عليه السلام كذلك في تقوى الله العامة ، وفي الصبر على
الشدائد المرهقة ، وعن الشهوات الفاتنة ، ولا غرو فقد شهد له ربه بأنه من المحسنين ،
وفي الآية تذكير بأن من لم يكن من المتقين الصابرين ، بأن كان من المطيعين

لنفس الامارة بالسوء ، والمتبعين لتزغات الشيطان ، فان عاقبتهم الذل والخزي في
الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخصى ، وأشد وأبقى ، إلا من تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى
٩١ ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ أي اختارك وفضلك علينا في كل
شيء من خلق وخلق وعلم وعمل وجزاء واحسان. يدل على هذا العموم السكوت
عن متعلق الاثار والعلم بأنه الحق الواقع بالفعل ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ أي والحال
ان شأننا معك هو أننا كنا مذنبين متمدين للخطيئة لا عذر لنا فيها عند الله ولا عند
الناس . أصل الاثار التفضيل بالآثار ، وهي ما يؤثر ويروى من الفضل أو ما يظهر
أثره أو يبقى ، والخاطيء فاعل الخطء (بالكسر) وهو الذنب . قال في المصباح :
والخطأ مهجوز بفتححتين ويقصر ويمد وهو اسم من أخطأ فهو مخطيء ، قال أبو عبيد
خطيء خطأ من باب علم وأخطأ بمعنى واحد لمن يذنب على غير عمد ، وقال غيره
خطيء في الدين وأخطأ في كل شيء عمدآ كان أو غير عمد ، وقيل خطيء إذا
تعمد ما نهى الله عنه فهو خاطيء ، وأخطأ إذا أراد الصواب فصار إلى غيره ، فان
أراد غير الصواب وفعله ، قيل قصده أو تعمده ، والخطء الذنب تسميه بالمصدر
وخطأته بالثقل قلت له أخطأت أو جعلته مخطئاً ، وأخطأه الحق إذا بعد عنه ،
وأخطأه السهم تجاوزه ولم يصبه ، وتخفيف الرباعي جائز اه

٩٢ ﴿ قال لا تريب عليكم اليوم ﴾ أي لا تحمل لأي شيء من اللوم والتعنيف
عليكم في هذا اليوم الذي هو مظنته فأنني أعدته يوم عفو ومباح وعيد ، ودخول في عصر
جديد ، قال في المصباح : تريب عليه من باب ضرب عتب ولا م ، وتريب (بالتشديد) مبالغة
وتكثير . ونقل بعض المفسرين عن ثعلب : تريب فلان على فلان إذا عدد عليه ذنوبه .

قال ابن الانباري قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب ، وقال تبع :

فمفوت عنهم عفو غير مشرب وتركتهم لعقاب يوم سرمد

ولكن يوسف عليه السلام عفا عنهم عفو غير مشرب وتركتهم لمغفرة الله تعالى

وعفوه ورحمته فقال بعد نفي جنس التثريب ﴿ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾

دعا لهم بان يغفر الله لهم خطاياهم معه إذ غفر هو لهم والله أولى وأحق بالمغفرة وهو أرحم الراحمين من الاقربين وغيرهم، والاصل في الدعاء أن يكون بفعل المستقبل وإنما يذكركم بالفعل الماضي للتفاؤل، ويحتمل أن يتعلق الظرف (اليوم) بالدعاء على سبيل البشارة، وقد تمثل النبي ﷺ بالآية يوم الفتح فروي عنه أنه طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بمضادتي الباب فقال «ماذا تقولون أو ماذا تظنون؟»

وفي رواية زيادة «أني فاعل فيكم» قالوا نقول خيرا ونظن خيرا : ابن اخ وابن عم كريم ،

وفي رواية «حليم رحيم» فقال «أقول كما قال أخي يوسف (لا تثريب عليكم)» الآية،

فخرجوا كأنما نشروا من القبور. أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس والبيهقي في

الدلائل عن أبي هريرة وأبو الشيخ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقد

كانت أخلاقه ﷺ أكرم وأحلم وأسمح وأسجح فان قومه أخرجه (نفوه)

وقاتلوه لأجل دينه وعذبوا ضعفاء أتباعه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وكان له بحسب

نظام الحرب المتبع عندهم وعند غيرهم أن يقتلهم تقتيلا أو يتخذهم عبيدا

٩٣ ﴿ اذهبوا بقميصي هذا ﴾ وأشار الى قميص كان على بدنه أو بيده

﴿ فآلقوه على وجه أبي ﴾ عند وصولكم اليه بلا تأخير ﴿ بات بصيرا ﴾ أي بصر

بصيرا في الحال أو يعود ويرتد بصيرا. هذا ما يدل عليه عطف هذه الجملة الشرطية

بالفاء وسأتكلم على ما قيل في القميص وسبب تأثيره ﴿ واثبوني بأهلكم أجمعين ﴾

من الرجال والنساء والذراري لاجل الاقامة عندي في جوارى آمنين

(٩٤) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ

لَوْلَا أَن تَفْتَدُونِ (٩٥) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٦) فَلَمَّا

أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ الْقَمَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بِصِيْرٍ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ
 مِنْي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٧) قَالُوا يَا بَنَاتِنَا أَسْتَفْتِرُنَا لَنَا
 ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَطِيئِينَ (٩٨) قَالَ سَوْفَ أَسْتَنْتِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ
 هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

٩٤ ﴿ولما فصلت العير﴾ أي انفصلت، عير بني يعقوب من عريش مصر
 أو حدودها قافلة إلى أرض الشام، يقال فصل من البلد وانفصل منه ﴿قال أبوهم﴾
 لمن حضره وكان عنده من أحفاده وغيرهم ﴿إني لأجد ربح يوسف﴾ في نفحة
 طيبة هبت على من روحه أو أثم رائحة ذاته كما عرفتها في مغره ﴿لولا أن تفندون﴾
 أي لولا تفنيدكم أي أي نسبي إلى الفند وهو بالتحريك فساد الرأي، وضعف
 العقل والخرف من سوء السكر، لصدقتموني في أنني أجد رائحته حقيقة غير متوهم
 وأنه حي قد قرب موعد لقائه والتمتع بقربه ورؤيته، عن ابن عباس قال: لما خرجت
 العير هاجت ربح فجاءت يعقوب ربح فقص يوسف قال إني لأجد ربح يوسف
 لولا أن تفندون: تسفنون، فوجد ربحه من مسيرة ثمانية أيام، وفي رواية من
 عشرة أيام وفي رواية ثمانين فرسخاً، والمراد من مسافة بعيدة جداً اختلفت الأقوال
 فيها لتمذر العلم بتحديداتها، وصاحب الوجدان لا يبالي ما يقال فيه إلا مراعاة الحرمان
 العاذل من الشعور بمثله، وعلمه بأنه لو شعر لعذر وما عدل، قال جرير بن عطية:
 يا عاذلي دعا الملام وأقصرا طال الهوى واطلما التفنديدا

٩٥ ﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي قال حاضرنا مجلسه تالله إنك
 لفي خطئك الذي طال أمده في اعتقادك أن يوسف حي برجي لقاءه وقد قرب،
 أوفي الأفرط في حبه والاصرار على اللهج به، وتوهمك وجدان رائحته، فالضلال
 يطلق على الخطأ في الطريق الحسي والمعنوي ومنه الخطأ في الرأي والاعتقاد والحب

والبعض والعمل ولا غرو فلابخي أن يقول في عدل الشجي ما يشاء ، فاذنه عن المنزل صماء
سلوتي عنكم احتمال بعيد وافتضاحي بكم ضلال قديم
كل من يدعي المحبة فيحكم ثم يخشى اللام فهو ملهم
لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصباية إلا من يعانيتها

٩٦ ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ وهو ابنه الذي يحمل القميص من يوسف ،
وعن ابن عباس والضحاك أنه البريد ، ويتجه أن يكون قد سبق العير اليه بريداً
وبشيراً ومن العقول ما قيل من أنه هو الذي حمل اليه قميصه الملطخ بالدم
السكرتج تحرى ذلك ليحو السيمية بالحسنة ، قالوا وهو يهودا ، وهذا الرأي
يحتاج إلى رواية مثله في حسنة تويده ، فمن أين جاء به بجاهد والسدي ؟
﴿ ألقاه على وجهه فارتد بصيراً ﴾ أي ألقى القميص على وجه يعقوب فعاد من
فوره بصيراً كما كان ، وزاد بعضهم أنه عادت اليه سائر قراه ، ولا غرو فالشفاء
من الامراض وتجدد قوى الارواح والابدان بتأثير السرور العظيم غير منكر
عند الاطباء ولا في تجارب الناس ، فما القول بتجارب الانبياء والاصفياء ، وبما يزداد
لهم بمناية الله من خوارق العادات ، والآيات البينات ، ورووا انه سأل البشير
عن دين يوسف فيما هو فيه من زينة الملك وعظمته ؟ فقال الاسلام ، قال الآن
نمت النعمة !! وأقول إن مخترع هذا السؤال لقليل العلم وضعيف الذوق ، فلو كان يعقوب
يخاف على دين يوسف فيشك فيه لما كان وجده به ما علمنا ، وحزنه عليه ما قرأنا
وسمعنا ، بل كان مؤمناً منذ قص عليه رؤياه بأن الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى
آل يعقوب به كما أمها على أبويه من قبل ابراهيم واسحاق ، فكيف يسأل عن دينه
سؤال الشاك المرتاب ، تأملوا كيف أجاب العاذلين بما كان عليه من العلم الالهي القطعي ؟
﴿ قال إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ فذكرهم الآن إذ عاد بصيراً بما قاله
لهم حين ابيضت عيناه من الحزن وهو أنه يعلم من أمر يوسف ما لا يعلمون ، وان
علمه هذا وحى من الله عز وجل لا من خطرات الاوهام ، ولا من أخيلة الحب
والغرام ، واننا في هذا المقام نبسط القول في وجدان يعقوب ربيع ولده مع التصريح

بأنه يكفي احدنا الايمان بظاهرة من غير بحث عن حقيقته وصفة وقوعه، ومادام مصدقا للقرآن ، فهو في حظيرة أهل الايمان، ولكن العلم بصفته وسنة الله فيه زيادة كمال

﴿ بحث في وجدان يعقوب رائحة يوسف والوجوه فيها ﴾

قد ثبت عند علماء الغرب في هذا العصر ان الرياح تحمل الغبار وما فيه من المواد المختلفة من أفريقية إلى أوربة مثلاً في مسافات أبعد مما بين مصر وأرض كنعان من بلاد الشام العليا (فلسطين) وهي تحمل رائحة ماله رائحة منها بالطبع، ولكن الغرابة في شم البشر لها من مسافة بعيدة كذه ، وبعض الحيوان من الوحوش والحشرات أقوى وأبعد شماً من الناس : والروائح منها القوي والضعيف، ومن أضعفها رائحة جسم الانسان وعرقه وما يصيب ثوبه منها ، ومن الناس من يميز بين روائح الاسرة الواحدة بل الاخوة منهم ، ولكن ما نحن فيه من خوارق العادات، وخواص عالم الغيب لاسنن المواد والاجسام، فقد قيل ان قميص يوسف هذا كان لجده ابراهيم عليه السلام وان جبريل جاءه به من الجنة حين ألقى في النار فكانت عليه رداً وسلاماً، وان الرائحة التي وجدها يعقوب هي رائحة الجنة، والمعجزات لا تنكر على أهل هذا البيت المرحوم المبارك عليهم السلام، ولكن أفرادها لا تثبت عند الناس إلا بدليل حسي أو بوحى إلهي ، والوحي يقول حكاية عن يعقوب إنه وجد ريح يوسف لا ريح الجنة من قميصه وانما ريح قميصه بالطبع ريح بدنه

وقد ثبت عند الروحانيين أن للارواح رائحة بل روائح مختلفة متفاوتة ، فلعصاة الفاسقين روائح خبيثة تنتشر في الهواء فتدنسه على الذين يشمونها من طاهري الارواح ، كما تنتشر فيه ميكروبات أنفاس المرضى فتفسده، يعرف هذا أطباء الاجسام، ويعرف ذلك أطباء الارواح ، قال بعضهم لم يده : قم يا بني نستشق نسيم الصباح قبل أن تدينه أنفاس العصاة، وقد جهل هذا أبو العتاهية إذ قال :

أحسن الله بنا أن المعاصي لا تفوح

فهي تفوح ولكن لا يدرك رائحتها إلا بعض الافراد في بعض الاوقات ، وكذلك الروائح الذكية، الارواح الزكية، انما تدرك في بعض الاحوال التي تغلب

فيها الروحانية، أو توجه الازادة، وقد يشمها غيرهم بتوجههم كما تواتر عن الشيخ علي العمري من معاصرينا وحكى الشيخ محي الدين في الفتوحات أن الشيخ عبد القادر الجبلي كان يعرف الرجال - أي درجاتهم في المعرفة - بالشم، فجاء محمد بن قانداو كان يظن ان له درجة عالية في المعرفة، فشمه عبد القادر فأنكره وقال له لا أعرفك! فملت همه ابن قاندا حتى التحق بالافراد، وكان لشيخنا الاستاذ الامام اخت روحانية فكانت تصعد الى سطح دارهم في محلة نصر وتستنشق ريبح أخيها وهو في الازهر وتعرف في بعض الاحيان من رائحته أنه خرج من مصر قاصداً بلدهم فتخبّر به فتصدق. أخبرني شيخنا بهذا وقلما كان يتحدث بمثله الى أحد من أصحابه لأن رأيه أنه لا ينبغي التحدث بذلك إلا لاهله أو من لا يفتتن به، فان من الناس من يكذب هذا وكل ما هو غير طبيعي معتاد من أمور الناس، ومنهم من يصدق كل ما يسمعه منه وأكثره دعاوي باطلة وخرافات تستغل وتستثمر، إذ يظن مصدقوها ان أصحابها أولياء قديسون، وانهم يضررون وينفعون، فتفسد عقاندهم بجملهم شركاء لله في التصرف في العالم بما هو مخالف للسنن العامة في الاسباب والمسببات

فأنا أكتب هذا لتعليل آية الله لمُذنبين النبيين عليهما السلام بشيء هو من سنة الله في بعض الروحانيين، مع اتقاء الكذب عليهم وعلى الله بدعوى خاصة بعالم الغيب لم يثبت بها النقل الصحيح، اعني قولهم ان الغميص من الجنة الخ (فان قيل) عهدناك مفسرا تجمع بين نصوص الوحي وقضايا العقل وتجارب العلم، فهل تقول إذن إن الآيه تثبت أن للارواح رائحة قد تشم من المسافات البعيدة كعد أرض مصر من أرض كنعان في فلسطين وانه يجب علينا ديناً أن نؤمن بهذا؟ أم ماذا يجب علينا اعتماداً في الآيه

(قلت) إن نص الآيه أن يدعوب تليه السلام أخبر عن نفسه أنه وجد رائحة ولده يوسف لما فصلت العير من أرض مصر، وهذا أمر وجداني نفسي لا يجب على كل مؤمن أن يعرف كنهه أو سببه، وإنما علينا أن نصدق له لأنه معصوم من الكذب، والله تعالى هو الذي حكاه عنه، وقد تبين صدقه بالفعل، وفي العبارة وجوه ونظريات تختلف باختلاف الافكار والتربية والتعليم وهي أربع لأربع طوائف من المسلمين:

(١) إذا صور ذلك أحد المفكرين الذين تغلب عليهم الافكار المادية بأنه لشدة تفكيره في أمر ولده وتذكره لرائحته حين كان يضمه ويشمه شعر بتلك الرائحة قد عادت له سيرتها الاولى ، كان مصداق له في أمر لا يمارضه العقل ولا ينقضه العلم ، وإن كان هذا الشعور من النوع الذي يسمونه بالوهم ، ولسكنه يكون ميلا عن التفويض الى التأويل لحالة بشرية لا لصفة من صفات الله تعالى فتأويله لا خطر فيه (٢) إذا قال المؤلف بالظاهر من غير تحليل لها ولا تصوير لكيفيتها انني أصدق ، ولا يكلفني ديني أن أعرف كيف وجد تلك الرائحة لان هذه المدارك الوجدانية كثيرة يظهر منها في كل زمن ما يعجز العلماء الباحثون عن معرفة سببه فضلا عن كنهه — لم يكن هذا القائل بعيدا في إيمانه هذا عن العقل ولا عن العلم ، فلا خلاف بين العلماء بأن ما يحمله الباحثون أضعاف ما يعرفونه ، وهو أقرب الى الصواب من قبله لانه مفوض لا متأول أو مؤول ، على أن التأويل لصفات الله تعالى هو المخالف لهدي السلف وبليه أخبار عالم الغيب ، لا التأويل لوجدان فيما يحتمل أن يكون من شئون البشر

(٣) إذا ذهب اللغوي البياني الى أن هذه الجملة استعارة أو كناية عبر بها نبي الله عن وجدانه وشعوره بقرب لقاء ابنه المحبوب حتى كأنه حاضر يشم رائحته لم يكن بعيداً — فإن بلغاء العرب يعبرون عن الشيء ، بلازمه وبشبهون المعاني النفسية بالمدركات الحسية وعكسه ، ومنه : اتناشم من الوجه الأول رائحة الاعمال ، في الثاني هذا كلام فيه رائحة الاخلاص ، ومن أبلغ ما سمع في هذا الباب قول امرأة كعب بن الاشرف له : انني اسمع صوتا يقطر منه الدم ، أي يدل على قصد الاعتبال - وليس هذا من تأويل المتكلمين الذي هو خروج عن الظاهر لما يمنع منه

(٤) إذا جنح الصوفي لقول الروحانيين إن وجدان هذه الريح كان من مدارك الروح الخاصة — لم يكن جانحا الى محال في نظر العقل ، ولا ناكبا عن أصل قطعي من أصول العلم ، فان الذين يثبتون ذلك من كبار العلماء والصوفية أجدر بالثقة في النقل من الذين يثبتون في هذا العصر غرائب التنويم المغناطيسي واستحضار الارواح وقراءة الافكار ومراسلتها ، فهذا وسط بين المصدق المفوض

في الخبر من غير تعليل ، وبين الذي يذهب فيه إلى ما تقدم من تأويل ، وأما من وقع له مثله من خصائص الارواح فهو عنده من عين اليقين ودونه علم اليقين . ولسكنه خاص بصاحبه ، اذ لا يدركه الا مثله ولولا ذلك لعُد من الحسيات المادية . (فان قيل) علمنا من هذا التفصيل أن المؤمن بالقرآن يجب عليه في هذه المسألة أن يعتقد أن يعقوب عليه السلام كان صادقا فيما أخبر به عن وجدانه ، ولا يضره ترجيح وجهه من الوجوه الاربعة في فهمها ، ويظهر انك ترجح الاخير منها . فما وجه هذا الترجيح ؟

(قلت) المتبادر من الآية أن فيها خصوصية تنظم هذا الوجدان في سلك خوارق العادات ، والاصل في مثل ذلك أن يفوض كنهه أو كنهه إلى من وقع له من الانبياء مادام ممكنا ، إلا من اتفق له ادراك جنس هذه الكيفية وعلم أنها من السنن الروحية كإبراهيم المسيح للآله والابصر باذن الله لا كعجزة العصا واليد لموسى عليها السلام . وإني خبرت هذا الوجدان نفسه بنفسي ، وأدركت رائحة الارواح الطيبة كأني أشمها بأنفي ، ولولا انها حالة خاصة لما قلت كأني .. ولقد كنت فيه دقيق البحث لثلاث كون وإهما أو محذوعا ، وطالما ظننت فيما كان يقع مشتركا بين جماعة أن الذي يعقد رابطة التوجه بينهم وبين الروح الذي يذكر اسم صاحبه — وهو كاستحضار الروح عند الافرنج — أنه يلقي رائحة عطرية غريبة الذكاء بينهم ، حتى صرت أجد ذلك خاليا وكان يكون متقطعا ، وكنت أتردد قبل ذلك في أخبار من لا أنهمم بالكذب فيها ، ولا أرى بسط ذلك في التفسير وقد ذكرت شيئا منه في غيره (ككتاب النار والازهر) ولولا أن هذه المسائل الروحية قد كثر البحث عنها في هذا العهد عند علماء الغرب ومقلديهم لما تعرضت لها فراراً من فتون أكثر أهل بلادنا بل الشرق كله بكل ما هو مخالف للسنن العامة . (فان قيل) ان الذين يعنون باستحضار الارواح لم ينقل عنهم أنهم يشمون لها رائحة

(قلت) لم يثبت عن هؤلاء احضار روح عالية قدسية ولا رابطة بها ، وإن الرجح عندي فيما يصح عندهم أنه من تمثيل الجن لهم لا من أرواح البشر ، وأن الصوفية من

المسلمين والنهود يتمثل لهم الجنسان ، ولا يميز بينهما إلا الانبياء و علماء القرآن
والسنة من الصالحين ، وأن ما وجدته يعقوب كان من توجه روح يوسف له عند
ما أذن له أن يتعرف اليه بالروح قبل الجسد ، وكان في وجدانه ريح على علم من
الله تعالى لا من خيال الوهم ولا من ضلال الشيطان ،

(فان قيل) أليس من ثبت عنه انه يرى الارواح العالوية ويشم ريحها ويسمع
كلامها يكون وليا صاحب كرامات يرجى نفعه ويخشى ضرره بما هو وراء الاسباب
والسنن العامة ؟ أو يؤخذ كلامه في العلم والدين بالقبول والتسليم ؟

(قلت) لا لا ، إن من يقع له إدراك شيء مما ذكر إنما يقع له بسبب من
الرياضة الخاصة ، وقد يقع له الخطأ فيه والوهم ، وقد يكون ما يجهل به من جنسه أكثر مما
يعلمه ، دع مالمس من جنسه كالعالم التي لا تعرف إلا بالتأقن ، ثم انه لا يمكن أن يكون
قادرا على نفع الناس أو ضرهم من غير طريق الاسباب العامة ، ولا يوثق بعلمه
في الدين إلا إذا كان مستمداً من الكتاب والسنة ، وقد فضلنا هذا سراراً ، فمثل
الذي يقف على حقيقة روحية بتأثير الرياضة الخاصة في نفسه كمثل الذي يقف على بعض
الحقائق من طريق البحث الحسي والعقلي فهم فيهما سواء ، والولاية الشرعية إنما تكون
بمعرفة كتاب الله ، مستقرسوله والتزامهما بالعمل والاخلاق ، مع الصدق والاخلاص ،
فتأمل هذه المسائل فانها تحل لك كثيراً من المشاكل ، وانت حر في قبولها ورفضها

٩٧ ﴿ قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي قال أولاده وكانوا قد وصلوا في
إثر البشير أو معه وإنما تقدمهم استعجالاً لنعمة البشارة وماتبها من ارتداد البصر
وغيره من السرور والنشاط والماقية : ياأبانا اسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا الكثيرة
التي اقترفناها من عقوقك وايداء أخينا أو أخوينا ﴿ إنا كنا خاطئين ﴾ متمدين
لهذه الخطيئة عاصين لله بها ظانين أن نكون بعدها قوما صالحين ، اعترفوا له
بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف ، ولكن يوسف بادر الى الاستغفار لهم وهم لم يطلبوه
منه ، واسمع ما كان جواب أبيهم

٩٨ ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ وعدمه باستغفار ربه لهم في المستقبل

المبهم وعمله بقوله ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فكرر اسم الرب مضافاً إليه ووصفه بالمغفرة والرحمة الواسعة التي لا ينقطع منها رجاء المؤمن وإن أساء وظلم، فالفرق بين جوابه وجواب يوسف من وجوه اقتضتها الحكمة

(الاول) ان حال يوسف معهم حال الحاكم القادر بل الملك القاهر مع المسيء اليه الضعيف لديه، الذي كبرت اساءته فاستحيا من طلب غفرانها بشفاعته ودعائه، فبرع لهم به تأمينا لهم من خوف الانتقام وكان قادرا عليه، وتعجلا لهم بسرور الحياة الجديدة التي جعل الله أزمة نعمها بيديه، وايروا ويرى الناس فضل العفو عند القدرة، والمثل الأعلى في حسن الاسوة، وما يجب ان يكون عليه الاخوة، وهو الجزاء بالاحسان على الاساءة، فهذه أفضل تربية وأكثر عبرة من الاخ السكامل لاخيه الناقص، ولو آخر هذا لكان تأخيره ضربا من الانتقام منهم، إذ يكونون في وجل مما سيحل بهم

(الثاني) ان حال أبيهم معهم حال الرب المُرشد المذنب الذي لا يخشى منه انتقاما، وليس من حزين التربية ان يريهم أن ذنبهم حين لديه، وانه ليس بينهم وبين شفاعته لهم عند الله بغفرانه الا كلمة يقولونها بالسننهم

(الثالث) أن ذنبهم لم يكن موجها اليه بالذات وإنما كان موجها إلى يوسف وأخيه بالذات وأصابه هو بالمرض أو بالتبع والزوم، ومن العدل أن يكون استغفاره لهم بعد العلم بحالهم ومعفوها عنهم، ولم يكن يعقوب قد علم بعفو يوسف عنهم واستغفاره لهم

(الرابع) ان هذا الذنب الكبير من الآثام التي طال عليها الهد ونشأ منها ما نشأ من الضرر لا تغفر بحسب شرع الله وسننه في تأثير الاعمال في الانفس الا بتوبة نصوح تطهر النفس من خبثها، فلا يحسن من المرشد الحكيم أن يسارع الى الاستغفار لمقترفها عقب طلبه متصلا به كأنها من اللوم، الذي يغفر ببادرة من الندم، فكان من حكمة هذا الاب الحكيم الرحيم أن يتمكن في الاستغفار لهم الى أجل مجهول ليعلم هو ذلك كله، وأن يعلمهم بانه سوف يتوجه به إلى ربه الذي

رباه بفضله ورحمته ، وأعاد لفظ الرب مضافا اليه لاشعارهم أن هذه الاضافة هي محل الرجاء في الاستجابة له ان يغفر خطاياهم ، وإنما مغفرتها سترها ومحوظتها عن قلوبهم ، بعد جعل توبتهم التي يشبه ان تكون اضطرارية توبة نصوحا ولا ينافي هذه المعاني والحكم التي من الله علينا بفهمها وبيانها ماروي عن ابن مسعود موقوفا وابن عباس موقوفا ومرفوعا من انه أخرهم إلى السحر لان دعاء السحر مستجاب، وفي رواية عن الثاني انه أخرهم حتى تأتي ليلة الجمعة ، بل يؤيده لانه لم يتحر وقت الرجاء في الاستجابة وان تأخر على اقتضاء رحمته الوالدية التعجيل الا لأن الامر جال يتعارض فيه الخوف والرجاء . وقد ذكر العباد ابن كثير في تفسيره وتاريخه عن ابن جرير حديث ليلة الجمعة بسنده وقال : وهذا غريب من هذا الوجه وفي رفعه، والاشبه أن يكون موقوفا على ابن عباس (رض) ولا يصح شي . مما روي في دعاء يعقوب لهم وحده ولا مع يوسف وفيما أوحى اليه من استجابته تعالى له فيهم وجمالهم في ديوان الانبياء

خاتمة قصة يوسف عليه السلام في تأويل روياه

وما فهمه أبوه منها

(٩٩) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبُو يَهُ وَيَ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (١٠٠) وَرَفَعَ أَبُو يَهُ وَيَ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا بَنَاتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

هنا كلام يدل عليه السياق بالاجمال حذف إيجازاً على منهج القرآن في الاقتصار على ما فيه العبرة المرادة من الكلام، والمعنى أن إخوة يوسف بلغوا أباهم وسائر أهلهم مكانة يوسف في مصر وأنه هو الحاكم الفوض المستقل في أسرها (ديكتاتور) من قبل ملكها، وأنه محبوب مجمع على إجلاله فيها، وأنه يدعوهم كلهم للاقامة معه فيها والتمتع بحضارتها، فرحلوا بقضيمهم وقضيضهم، وإنعامهم ودوابهم، حتى بلغوها واستقبلوا فيها بما يليق بمقامه

٩٩ ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ﴾ ظاهر العبارة أن أنه كانت لا تزال حية، وقال الذين أخذوا بقول اليهود إنها كانت قد ماتت: إن المراد بأبويه والده وخالته وقد كان أبوه تزوجها بعد أمه، وهذا جائز في اللغة إن صح الخبر ونحن لا ثقة لنا بصحته فناخذ بظاهر الآية دون غيره كما قال ابن جرير الطبري (رح) ومعنى إيوائهم إليه ضمهما إلى نفسه، وجعله إياهما معه في قصره وهو مأواه الخاص به ﴿ وقال ادخلوا مصر ﴾ أي وقال لسائر أهله ومن معهم ادخلوا مصر قال ابن عباس معناه أقيموا فيها، إذ كانوا قد دخلوها فكان الأمر بدخولها عبارة عن الاذن باستيطانها، وقيل إن يوسف استقبلهم في الطريق احتفاء بهم فقال لهم ذلك في مكان الاستقبال أو عند الوصول إلى العاصمة ﴿ إن شاء الله آمين ﴾ على أنفسكم ومواشيكم من المنع المعتاد للغرباء، أو من الجوع والهلاك فإن سفي القحط لم تكن انتهت بعد، والتعليق بمشيئته تعالى هو شأن المؤمنين ولا سيما الانبياء والصديقين، فيوسف في إسداء هذه النعمة إلى أهله يتبرأ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله الذي سخره لهم وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم

وفي سفر التكوين أن يوسف (ع. م) عرف نفسه إلى إخوته عقب مجيئهم بينيامين شقيقه، وأرسلهم لاستحضار أبيهم وأهلهم فجاءوا فأقطعهم أرض جاسان (وهي المعروفة الآن بالشرقية الممتدة من جوار أبو زعبل إلى البحر الأحمر) وأرسل إليهم العربات لتحملهم، وأحمال النذاء والثياب على الخيول، فلما وصلوا إليها (٤٦: ٢٩) شد يوسف على مركبته وصعد ليلقي امرأته ليلقي في جاسان فلما ظهر

له أنقى بنفسه على عنقه وبكى على عنقه طويلاً ثم استأذنتهم ليذهب إلى فرعون ويخبره بمحببتهم ومكانهم ليقدم عليه لانهم رعاة وأرض جاسان خصبة ، ففعل ثم أخذ وفدًا منهم لمقابلة فرعون وأدخل أباه عليه فبارك فرعون ، فيظهر أن هذا اللقاء كان هو الأول لهم ، ثم إنه بعد لقاء فرعون قال لهم (ادخلوا مصر) الخ ، ثم عاد بهم إلى قصره الخاص

١٠٠ ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ أي أضعدا أبويه إلى السرير الذي كان يجلس عليه لتدبير أمر الملك ، فأمرش كرسي تدبير الملك ، لا كل كرسي يجلس عليه الملك ﴿وخروا له سجداً﴾ أي وأهوى أبواه واخوته إلى الارض وخروا له سجدا ، وكان السجود تحية الملوك والعظماء في عصرهم ، حتى ان يعقوب سجد لاختيه عيسو حين تلاقيا بعد تفرق وكان يخاف عاقبة ذلك التلاقي كما تراه في سفر التكوين . والسجود ليس عبادة بذاته وإنما جعله الدين عبادة فهو يكون عبادة بالنية والتزام الصفة الشرعية فيه ﴿وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ أي إن هذا السجود منكما ومن إخوتي الأحد عشر هو المال الذي آلت إليه رؤياي التي رأيتها من قبل في صغري إذ (رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ واقعا ولم تكن حديث نفس من أضغاث الاحلام ، فالتكوا كب الأحد عشر مثال إخوتي الاحد عشر ، وأنت وأمي مثال الشمس والقمر ، ولا غرو فهذه الاسرة هي التي أراد الله بها حفظ ذرية إسحاق بن ابراهيم لنشر دين التوحيد في العالمين فكانت خير أسر البشر ﴿وقد أحسن بي﴾ ربي : يقال أحسن به وأحسن إليه ﴿إذ أخرجني من السجن﴾ إلى عرش الملك ، ذكر آخر المحن والفتن (البلاء والاختبار) المتصل بقاية النعم ، ومن العجب أن يستشكل المفسرون عدم ذكر الاخراج من الجب هنا ويبحثوا له عن علة ، وكان أول البلاء وقد خرج منه إلى الرق وبيعه بثمن بخس ، وما انصل به من تلك السلسلة الطويلة في الفتنة

﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ حيث كنتم تعيشون في شظف البادية وخشونتها ووحشيتها الى الحضرة حيث تعيشون في نعم الاجتماع ونشر الدين الحق والتعاون على العلوم والصناعات ، فالبدو خلاف الحضرة ومعناه الاشتقاق كل مكان يبدو كل ما يعنى ويعرض فيه للانظار : من بدأ يبدو وإذا ظهر ظهوراً جيداً ، يقال بدى الى البادية بدواة (بالفتح والكسر) أي خرج فهو باد . ومنه (يودون لو أنهم بادون في الاعراب) وفيه تفضيل الحضارة على البدواة ﴿ من بعد أن نزع الشيطان يدي وبين إخوتي ﴾ أي أفسد ما بيننا من عاطفة الاخوة وقطع ما بيننا من صلة الرحم ووشيجة القرى باغراء الحسد وتهيج الشر : هذا ما يدل عليه نزع الشيطان فان أصل النزع نخس الرائص الفرس ونحوه بالمهاز لازعاجه للجري ، يقال نزعته ونخسه ونسفه ، والعامية تقول نغزه : بقلب نزعته بمعنى طمعه بما يهيجه ويزعجه . قال في الاساس : ومن المجاز نزع الشيطان كأنه ينخسه ليحسه على المعاصي ، ونزع بين الناس أفسد بينهم بالحث على الشر اه ولا يوجد في اللغة على سميتها تمييز أظف وآدب وأدل على كمال التواضع من هذه العبارة الوجيزة : جعل ذلك المزعج الى أجرأ الشر والافساد كأنه كان مشتركاً بينه وبينهم تقع تبعته على كل منهما ، وما كان إلا من جانب واحد ، ثم قال ﴿ إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ أي بالغ أقصى اللطف بعباده في التدبير والرفق في التسخير لتنفيذ ما يشاء في خلقه من الحكمة البالغة والوصول إلى المقاصد الحسنة والغايات النبيلة ، بحيث لا يشهر من لطف به عند وقوع الاسباب والوسائل بقايتها إلا عند وصوله اليها ، فمن ذا الذي كان يخطر بباله أن الالتقاء في الحب وما أعقبه من الرق ، وما تلا الرق من فتنة العشق ، يفضي إلى السجن ، وأن السجن ينتهي بالسيادة والملك ؟ ﴿ انه هو العليم ﴾ بما لكل قدر من عمل ، وما لكل عمل من أجل ، ﴿ الحكيم ﴾ في بلوغ مشيئته في ذلك كله كمال المصلحة في جزاء الذين أحسنوا بالحسنى وجعل العاقبة للمتقين ، فحمد يوسف لربه على لطفه في مشيئته ، وعلمه وحكمته ، من أجل الحمد والثناء ، وناهيك بحمله مقدمة لما تلاه من لدعاء ، وهو

﴿ دعاء يوسف عليه السلام بحسن الخاتمة ﴾

(١٠١) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِي فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ

نحول عليه السلام عن خطاب والده في بيان هذه العاقبة المثلى، في مقام الشكر لربه
وحده بما يناسب المقام من صفاته، إلى مناجاة ربه في الاعتراف بها والشكر عليها،
وسؤاله حسن الخاتمة في الدنيا والرافعة إلى منتهى السعادة في الآخرة، لشموه بأن ما خلقه
له من الخير والنعمة قد تم كما فهمه أبوه، وكل شيء يبلغ حده في هذه الحياة انتهى فقال:

١٠١ ﴿ رب قد آتيتني من الملك ﴾ أقصى ما ينبغي المثلي ويصاح له في غير قومه
وطنه، فجمعتني متصراً في ملك مصر العظيم بالفعل، وإن كان لقبني بالاسم
والرسم، فكان تصرفي مرضياً له وقومه، لم يزر علي حسد حاسد ولا بني باغ بما ذقت
مرارته بمجرد تصور وقوعه على تقدير صدق الرؤيا المدالة عليه ﴿ وعلمتني من تأويل
الاحاديث ﴾ ما أخبر به عن مآل الحوادث ومصداق الرؤى الصحيحة فنقع كقلت
﴿ فاطر السموات والارض ﴾ أي خالقهما ﴿ أنت وليي ﴾ الذي توليت ولا
تزال تتولى أموري كلها ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ لا حول لي في شيء منها ولا قوة
﴿ توفني مسلماً ﴾ لك إذ تتوفاني بما تم لي وصية آبائي وأجدادي، وهي المشار
اليها بقوله تعالى (٢: ١٣١) ووصى بها ابراهيم بنبيه ويعقوب: يا بني
إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾
عنهم واحشرتني معهم، فهذا الدعاء العظيم، بمعنى قوله تعالى في فاتحة القرآن (اهدنا
الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم) أي من النبيين والصدقيين
والشهداء والصالحين، فنسأله تعالى أن يجعل لنا خير حظ منه بالموت على الاسلام
﴿ إلى هنا انتهى تفسير المر حوم السيد الامام وقد تفضل العلامة السلفي
الاستاذ محمد بهجت البيطار باكمال تفسير هذه السورة وهذا ما تكرم به: ﴿

(١٠٢) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ
 إِذْ أَتَوْهُم بِمُرْسَلَتِهِمْ وَمَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٣) وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ
 بِمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَمَا تَسَاءَلَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
 لِلْعَالَمِينَ

الآية ١٠٢ إشارة إلى قوله تعالى في أول السورة (نحن نقص عليك أحسن
 القصص) وسورة يوسف (ع . م) قصة نبي واحد وجد في غير قومه قبل النبوة
 صغير السن ، وبلغ أشده واكمل فنيء وأرسل ودعا إلى دينه وكان مملوكا ، ثم تولى
 إدارة الملك لقطر عظيم « وهو القطر المصري » فأحسن الإدارة والتنظيم ، وكان
 خير قدوة للناس في رسالته وجميع ما دخل فيه من أطوار الحياة ، وأعظمها شأنه
 مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة ، فكان من الحكمة أن يجمع قصته في سورة واحدة
 وهي أطول قصة في القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية في ذكر القرآن وحسن
 قصصه ، ثم كانت إلى تمام المائة في تاريخ يوسف ، وختمت باحدى عشرة آية
 في الاستدلال بها على ما نزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين ، وإعجاز
 كتابه ، والعبارة العامة بقصص الرسل (ع . م) (*)

١٠٢ ﴿ ذَلِك ﴾ أي نبأ يوسف ووالده يعقوب وإخوته وكيف رفعه الله عليهم ،
 ويمكن له في الأرض ، وجعل له العاقبة والنصر ، والملك والحكم ، مع ما أرادوا
 به من سوء والهلاك ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أي من أخبار الغيب الذي لم تشاهده
 ولم تعينه ، ولكننا (نوحيه إليك) ونعرفكك لثبت به فؤادك ، ونشجع به
 قلبك ، وتصبر على ما نالك من الأذى من قومك في ذات الله ، وتعلم أن من قبلك
 من رسل الله لما صبروا على ما نالهم فيه ، وأخذوا بالعفو ، وأمروا بالعرف ، وأعرضوا
 عن الجاهلين فازوا بالظفر ، وأيدوا بالنصر ، ومكنوا في البلاد ، وغلبوا على من

قصودوا من أعدائهم ﴿ وما كنت لديهم ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً ،
 ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ أي انفقت آراؤهم وصحت عزائمهم ، أو عزموا عزمًا إجماعياً
 لا تردد فيه ، على أن يتقوا يوسف في غيابة الحب ، وذلك مكرهم الذي قال تعالى
 ﴿ وهم يمكرون ﴾ به ، ولكننا أعلمناك به وحيًا إليك ، وإنزالاً عليك ، وقد تقدم
 الكلام على إجماع الأمر عند قوله تعالى (٧١ فأجمعوا أمرهم وشركاهم) من سورة
 يونس ، وعلى لفظ المكر أيضاً (ج ٣ ص ٣١٥ و ج ٨ ص ٣٣ من تفسير المنار)
 ثم إن من قرأ قصة هذا النبي الكريم في سفر التنكبين ، وهي في الفصل أو الاصحاح
 ٣٧ وما بعده ، ثم تلاها في هذا الذكر الحكيم ظهر له الفرق واضحاً بين ما كان
 وحيًا معجزاً وما كان كلاماً عادياً من قول البشر ، أو من الروايات الاسرائيلية
 التي جعلها نقاد الحديث ورواته مضرب النمل في الكذب وردها المحققون من
 المفسرين كالحافظ ابن كثير ، وكل ما ذكره القرآن من قصص الرسل فهو من
 أنباء الغيب الدالة على نبوة محمد ﷺ (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت
 به فؤادك) (وما كنت لديهم إذ يقولون أقلامهم) وقال سبحانه (وما كنت
 بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) إلى قوله (وما كنت بجانب
 الصور إذ نادينا) الآية ، وقال (ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون ،
 إن يوحى إلي إلا إنما أنا نذير مبين)

أما وقد أصاب بعض الكتب الإلهية ما أصابها من التحريف والتبديل ،
 « كالتوراة والإنجيل » وحجبت أنوارها ونقصتها عن العقول البشرية ، فن
 رحمة الله بعباده أن لا يدعهم يتخبطون في دجور الضلالة ، ويقهون في أودية
 الجهالة ، بل يحدد لهم وحيه ، ويعيد على أسماعهم قوله ، بكتاب لا يأتيه الباطل من
 بين يديه ولا من خلفه ، بل يحفظه الله تعالى بحفظه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا
 له لحافظون) وقال تعالى (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل
 التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان) . فالقرآن هو المعجزة
 العظمى التي تدل على أن موحيه هو الله وحده وأيس من قول البشر ، والدليل

على ذلك أنه جاء على لسان أبي لم يتعلم الكتابة ، ولم يطالع الكتب ، ولم يذاكر العلماء ، أليس من البراهين القطعية على صدق نبوة محمد ﷺ أنه كان أمياً نشأ بين قوم أميين ، ثم أخبر بمثل ما أخبرت به الانبياء من الشؤون الغيبية دون أن يتعلم من بشر؟! بلى . وهو كما قال تعالى في سورة هود بعد ذكر قصة نوح (ع.م) (١١ : ٤٩) تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) وقد سمع كفار قريش هذه الآية وسائر سورتها ولم يقل أحد منهم بل كنا نعلمها ، ولما ادعى بعض المجاحدين أنه يعلمه بشر إذ رأوه يقف على قَيْن «حداد» رومي بمكة رد الله دعواهم بقوله (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) من ألد فلان إذا مال عن الحق

١٠٣ ﴿ وما أ أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ يقول جل ثناؤه وما أكثر مشركي قومك ولو حرصت على أن يؤمنوا فيصدقوك ويتبعوا ماجثتهم به من عند ربك ، بمصدقك ولا متبعيك (*) وذكر الفخر الرازي في وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله ﷺ على سبيل التعمت ، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فترت هذه الآية ، و كأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى في قوله (إنك لا تهدي من أحببت ولا يكن الله يهدي من يشاء) . ويرى السيد الامام أن الحكم في مثل هذه الآية عام ، وأنه من دقة القرآن في الحكم على الأمم والشعوب إذ أنه يحكم على الكثير أو الاكثر بعدم الايمان كما في الآية المتقدمة ، وقال (وإن تطاع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله) وكقوله (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) والقرآن لم يحكم على أمة بالضلال والفسق بنص عام يستغرق جميع الافراد ، بل تارة يعبر بالشبر وتارة بالاكثر ، وإذا أطلق أداة العموم يستثنى بمثل قوله في بني اسرائيل (ثم توليتهم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون) وقوله فيهم (فلا

(*) كذا قال ابن جرير والمراد من عاشوا منهم وماتوا على الشرك جحوداً واستكباراً، ومن فوائد هذا البيان إراحة قلب الرسول (ص) منهم وتوجيه دعوته الى أولى البصيرة والاستعداد

يؤمنون إلا قليلا) أو يحكم على البعض ابتداءً كما قال فيهم وفي النصارى (منهم أمة مقتصدّة ، وكثير منهم ساء ما يعملون) فقد أثبت لبعضهم الايمان والاقتصاد أي الاعتدال في الدين ، والهداية بالحق والعدل ، وقال (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) فجعل أهل العلم الذين يفهمون الدلائل والبراهين ، وأهل الايمان المحلصين الذين يتجرّون الحق هم الذين يقبلون دعوة النبي ﷺ لقوة استعدادهم. قال السيد الامام قدس الله روحه : إن القرآن يبين حقائق ما عليه الامم في عقائدها وأخلاقها وأعمالها ، يزن ذلك باقتطاس المستقيم ، والدقة التي نراها في القرآن لم نهداها في كتاب عالم ولا مؤرخ ، فاذا نحن جمعنا ما حكم به على أهل الكتاب وغيرهم ، وعرضناه على علماءهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم فأنهم يدعون بأنه لباب الحقيقة ، بل هم بصرحون بأنه لولا غلبة الضلال والفسق والكفر عليهم في عصر ظهور الاسلام لما انتشر ذلك الانتشار السريع ، ولكن وجد فينا « معشر المسلمين » من طمس هذه المزية وجعلوا كل ما ينكره القرآن من فساد الامم من قبيل هجو غير المسلمين ، وكل ما يحمده هو خاص بالمسلمين ، حتى كأنه شعر لا يقصد منه إلا مدح أناس وذم آخرين ، وبهذا ينفرون غير المسلمين من الاسلام ، ويحولون بين المسلمين وبين العبرة والاتعاظ ، وفهم الحقائق اه

١٠٤ ﴿ وما تسألهم ﴾ أي وما تسأل هؤلاء الذين ينكرون نبوتك يا رسول الله ﴿ عليه ﴾ أي على هذا القرآن الذي أمرت أن تدعوهم اليه ، وتدكرهم به أو على ما تدعوهم اليه من إخلاص العبادة لربك ، وهجر عبادة الاوثان ، وطاعة الرحمن ، وكلاهما مفهوم من السياق وإن لم يذكر ﴿ من أجر ﴾ من ثواب وجزاء منهم ، بل إنما ثوابك وأجر عملك على الله ، أي ما تسألهم على ذلك مالا ولا غيره من المنافع فيقولوا لك إنما تريد بدعائك إيانا إلى اتباعك لننزل لك عن أموالنا إذا سألتنا ذلك ، كما أن جميع من قبلك من الرسل لم يسألوا أفوامهم أجرآ على التبليغ والهدى ، وذلك مصرح به في قصصهم من سورة هود وسورة الشعراء وغيرهما ،

وإذ كنت لا تسألهم ذلك ، فند كان حقا عليهم أن يعلموا أنك إنما تدعوهم اليه
اتباعا منك لا أمر ربك ، ونصيحة منك لهم ﴿ ان هو الا ذكر للمالين ﴾ أي
ما هذا الذي أرسلك به ربك إلا تذكير وموعظة لارشاد العالمين كافة ، لا لهم
خاصة ، وهو نص في عموم رسالته صلى الله عليه وسلم

(١٠٥) وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ
عَآيِنَهَا وَهُمْ لَمَّا مَعْرُضُونَ (١٠٦) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ
مُشْرِكُونَ (١٠٧) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ
تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٨) نُلْهِئْهُ سِدْقًا أَدْعُوا
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِصِرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَبُجِحْنَا لِلَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ (١٠٩) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ
مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَمَلُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا
أَفَلَا تَعْقِلُونَ

١٠٥ ﴿ وكأين من آية في السموات والارض يمررون عليهم وهم عنها معرضون ﴾
(كأين) بمعنى كم الخبرية وفيها لعتان فصيحتان ، كائن بوزن فاعل ، وبها قرأ
ابن كثير ، وكأين وبها قرأ الباقون . يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن
التفكير في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه سبحانه في السموات والارض بقول
عز وجل كم من آية في السموات والارض لله وعبرة وحجة ، وذلك كالشمس
والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السموات ، وكالجبال والبحار والنبات

والاشجار وغير ذلك من آيات الارض ، يمرون عليها معرضين عنها لا يعتبرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربها ، وأن الالهة لا تنبغي إلا لتواحد التبار الذي خلقها وخلق كل شيء فديرها

قال السيد الامام في تفسيره : قد يتفكر المرء في عجائب السموات والارض وأسرار ما فيها من الاتقان والابداع والمنافع ، الدالة على العلم المحيط ، والحكمة البالغة ، والنعمة السابغة ، والقدرة التامة وهو غافل عن العليم الحكيم القادر الرحيم ، الذي خلق ذلك في ابداع نظام ، وكَم من ناظر إلى صنعة بديعة لا يخاطر في باله صانعها اشتغالا بها عنه ، فالذين يشتغلون بعلم ما في السموات والارض وهم غافلون عن خالقها ذاهلون عن ذكره ، يتمتعون عقولهم بلذة العلم ، ولكن ارواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ، ومعرفة الله عز وجل . فلفكر وحده وان كان مفيدا لا تكون فائدته نائمة في الآخرة إلا بالذكر ، والذكر وان أفاد في الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر ، فباطوبى لمن جمع بين الامرين ، فسكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، ونجوا من عذاب النار في الآخرة ، فتلك النعمة التي لا تفضلها نعمة (راجع ص ٢٩٩ ج ٤ من تفسير المنار) .

قرى. (والارض) بالرفع على الابتداء و (يمرون عليها) خبره، وقرأ السدي (والارض) بالنصب ، ويظنون الارض يمرون عليها ، وفي مصحف عبد الله : والارض يمشون عليها برفع الارض وهي قرارة تفسير ، والمراد ما يرون من آثار الامم المهلكة ، وغير ذلك من العبر . ومن مباحث اللفظ أن كآين اسم مركب من كاف التشبيه وأي المنونة ، ولذلك جاز الوقف عليها بالنون ، لان التنوين لما دخل في التركيب أشبه النون الاصلية ، ولهذا رسم في المصحف نونا ، ومن وقف عليها بحذفه اعتبر حكاية في الاصل وهو الحذف في الوقف ، ويميزها بجرور بمن غالباً نحو قوله تعالى (وكآين من نبي - وكآين من آية - وكآين من دابة)

ثم قال تعالى ١٠٦ ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال الامام ابن جرير : وما يقرأ أكثر هؤلاء الذين وصف عز وجل صفتهم بقوله (وكآين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) بالله

أنه خالقه ورازقه وخالق كل شيء إلا وهم به مشركون في عبادتهم الاوثان والاصنام واتخاذهم من دونه أربابا، وزعمهم أن له ولداً، تعالى الله عما يقولون، وقال الحافظ ابن كثير: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم من خلق السموات ومن خلق الارض ومن خلق الجبال؟ قالوا الله وهم مشركون به، وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وفي الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون في تلييتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك، وفي صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ «قد، قد» أي حسب حسب لا تزيدوا على هذا، وقال الله تعالى (إن الشرك اظلم من الظلمة) وهذا هو الشرك الاعظم، يعبد مع الله غيره كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت يا رسول الله: أي الذنب أعظم؟ قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك»

وقد سبق القول بأن القرآن يزن بالقسطاس المستقيم عقائد الناس وأعمالهم، ويميز بين أصناف موحديهم ومشركيهم، فلا يحكم عليهم في الدنيا حكماً واحداً عاماً، ولا يجعلهم في الآخرة مستوين في منازل الكرامة أو الندامة (أم يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم يجعل المتقين كالفجار؟) (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محبيهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون)، وقد تقدم كلام السيد الامام في دقة القرآن في الحكم على الامم والشعوب إذ يحكم على الكثير أو الاكثر بالشرك، أو بعدم الايمان بالله تعالى وحده، ومن درس تاريخ الامم السابقة واللاحقة، ونظر في أحوال أهل الملل السماوية وغيرها، عرف كيف طر الشرك على الامم، وسرى في عباداتهم سرعان السم في الدم «وما زل نشيطان» كما قال ابن القيم في إغاثة الهمدان الكبرى - يوحى إلى عباد القصور منهم أن الدعاء عندهم مستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها والاقسام على الله بها، مع أن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه، فاذا تقرر ذلك عندهم، نقلهم منه إلى دعائه - أي الميت - وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ

قبره وثنا تعلق عليه القناديل والستور ، ويطاف به ويستلم ويقبل ويحج إليه
ويذبح عنده ، فاذا تقرر هذا عندهم ، نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته ،
واتخاذها عيداً ومنسكاً ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم «قال» وكل
هذا مما علم بالاضطرار من دين الاسلام أنه مصاد لما بعث الله به رسوله ﷺ من
تجريد التوحيد ، وأن لا يعبد إلا الله ، فاذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى أن
من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل الرتب العالية ، وحطهم عن منزلتهم ، وزعم
أنه لاحرمة لهم ولا قدر ، وغضب المشركون واثمأزت قلوبهم كما قال تعالى
(وإذا ذكر الله وحده اثمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر
الذين من دونه إذا هم يستبشرون) ومرى ذلك في نفوس كثير من الجهال
والطغام ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين ، حتى عادوا أهل التوحيد ، ورومهم
بالمعاصم ، ونفروا الناس عنهم ، ووالوا أهل الشرك وعظموهم ، وزعموا أنهم
أولياء الله وأنصار دينه (وما كانوا أولياءه إن أوليؤه إلا المتقون) وما ذكره
هذا الامام المحقق رحمه الله من التنقل في معظم الصالحين إلى عبادتهم هو حال
أكثر الامم من عرب وعجم ، في كل زمان ومكان ، طبقاً لما أحبر به الله في
القرآن (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)

أما التوسل الخلفي المشهور بين العلماء ، المحصور في دعاء الله وحده مع
التوسل إليه بالصالحى عبادة ، كقولهم : اللهم بجاه فلان عندك ، أو بحق فلان ، أو
بجرمته ، أسألك أن تفعل كذا فهو يتوقف على السماع والنقل بمثل هذه الالفاظ ،
ولم ينقل عن الصحابة والتابعين وسلف الامة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء ،
وقد يظن بعض الناس أن دعاء التوحيد وحماته ينكرون حرمة الرسل أو جاههم
أو كرامتهم على ربهم ، في حياتهم أو بعد مماتهم . والجواب أن هذه تهمة باطلة
وظن آثم (ان بعض الظن آثم) كيف وجاه الرسل صلوات الله عليهم ثابت
بالقرآن ، قل تعالى في حق موسى « ع . م » (وكان عند الله وجيباً) وقال في
حق عيسى « ع . م » (وجيباً في الدنيا والآخرة) فاذا كان موسى وعيسى وجيبين
عند الله عز وجل فكيف بفخر هذا العالم ، وسيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ ؟

لا شك أن جاهه أعظم ، ولكن جاه المخلوق عند المخلوق ليس كجاهه عند الخالق ، فإنه تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه قال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) وقال سبحانه (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه ولغير من ارتضاه . وأما ما أخرجه الطبراني في الكبير والوسط وابن حبان والحاكم من حديث فاطمة بنت أسد ، والشاهد منه « بحق نبيك والانبيا الذين من قبلي » وما رواه أحمد وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري في « من خرج من بيته الى الصلاة فقال : اللهم بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاي اليك » الحديث ، فهذان الحديثان على كونهما متكلمي فيهما ليس فيها إلا توسل بحق النبيين فحسب ، وحقهم هو ما فضلهم الله به على غيرهم من النبوة والرسالة ، وما خصهم به من الخصائص والمزايا ، كاجتباؤهم واصطفائهم ، وما وعدهم به من النصر والتمكين ، والعز والتأييد ، وقبول شفاعتهم إذا شفَعُوا بعد الاذن والرضاء فهذا توسل اليه تعالى بأفعاله ، وأفعاله سبحانه ليست من مخلوقاته ، بل هي من مقتضى أسمائه وصفاته .

فقد علمت من هذا أنه ليس الخلاف في جاه الرسل الثابت لهم عند ربهم ، وإنما الخلاف في فهم المراد من التوسل بالجاه والحرمة والحق ، وهل جملة الله سبباً شرعياً في إجابة الدعوات ؟ فإن كان المراد منه معنى يرجع إلى أفعاله تعالى وصفاته ، كاصطفائهم واجتباؤهم ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة فيه نقول : بيد أن ههنا مسألة مهمة ، وهي أن حقوق الرسل عليهم السلام وصلاح الصالحين ليست من أعمال السائل التي يستحق عليها الجزاء ، ولا رابطة تربطها بإجابة سؤاله ، فإذا قال السائل أسألك بحق فلان الصالح أن تقضي لي حاجتي ، فعني ذلك : اقض حاجتي لكون فلان صالحاً ، فأني مناسبة بين قضاء حاجتك وصلاحه ؟ وإذا قلت بجاه فلان اغفر لي ، كان المعنى أطلب المغفرة لكون فلان ذا جاه ، وأي ملازمة بين جاهه ومغفرة ذنبك ؟ فصلاحه أو جاهه ليس منفياً عنه لا في حياته ولا بعد مماته ولا هو محل نزاع ، ولكنه ليس من عملك ، الذي تستفيد أنت منه وتستحق الجزاء عليه ، وإنما العامل هو الذي يجني ثمرة عمله في

الدنيا والآخرة ، قال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) ، فلو كان التوسل بصالح الصالحين وعمل العاملين ، يفيد المتوسلين الجاهلين العاطلين عن العمل في دينهم أو دنياهم ، هان الأمر علينا معشر المسلمين ، ولئلا نكل خير من ذلك ، إذ كان يمكننا أن نقول مثلا : اللهم بحق آماننا ، وأننا وحدتنا واستقلالنا ، بجاه سلفنا الصالح الذين جاهدوا في سبيلك ، وابتغاء مرضاتك ، ففتحت لهم فتحا ميبنا ، ونصرتهم نصرا عزيزا ، ربنا إننا نتوسل إليك بفتوحهم وعلومهم وأعمالهم ، أن تهب لنا من الملك والسلطان ، والعلم والعرافان ، والحضارة والعمران ، مثل ما وهبت لهم ، فهل تفيدنا هذه التوسلات الدينية ، بجاه أسلافنا وما ملكوها من قوة وثروة ، وسعة سنن ، واستبحار عمران ، ونحن قد تداخت عينا الأمم ، فجهلنا مغما أو نهبا مقسما ؟ كلا إنما يجب علينا أن نعمل كما عملوا لسكون لهم من الوارثين ، وهكذا شأن التوسل الديني الآخروي ، فمن وفقه الله وألمه رشده يتقي عقاب الآخرة بما شرعه الله لا تقائه من التوبة والایمان والأعمال الصالحة ، قرب الدارين واحد ، وحكته واحدة ، لا يناقض بعضها بعضا ، ولا يبطل بعضها بعضا . هذا وإن القرآن الكريم وكتب السنة طافي بالادعية والاذكار التي تعبدنا الله بها ، وقد جمعت في كتب خاصة ، فليت مشايخ الطرق يرشدون مریدیهم اليها ، وبقصرون أنفسهم ومریدیهم عليها ، فهي هي المنقذة من الضلال ، والموصلة إلى ذي العزة والجلال ، لان تلك التوسلات المبتدعة التي يشرعونها ويدعون الناس اليها ، وبضلالون من ينكرها عليهم ، وهم يعلمون أن الله تعالى قد أكمل دينه ، وأتم نعمته (قل أنتم أعلم أم الله ؟)

١٠٧ ﴿ أو آمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ؟ ﴾ يقول عز من قائل : أفأمن هؤلاء الذين لا يقرنون بأن الله

هو ربهم إلا وهم مشركون في عبادتهم إياه غيره ، أن تأتيهم غاشية من عذاب الله تغشاهم من عقوبة الله ، وعذاب الله على شركهم بالله ، أو تأتيهم القيامة فجأة ،

وهم مقيمون على شركهم ، وكفرهم بربهم ، فيخلدنهم الله عز وجل في ناره ، وهم لا يدرون بمجيئها ، وقيامها « ابن جرير » ومعنى (غاشية من عذاب الله) أي نائمة تغشاهم وتظلمهم ، و (هل أتاك حديث الغاشية ؟) كناية عن القيامة وجمعها غواش ، وغشي « كرضي » فلان أصحابه إذا أتاهم ، وغشى الشيء الشيء إذا لحته وغطاه ، ومنه في التنزيل غشيان النوح والنيم والدخان والعذاب للناس ، وهذه الآية كقوله تعالى (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، أو يأخذهم في تقلبهم فاهم بمعجزين ، أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم) وقوله (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ؟ أو آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلبعون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ؟) . وقد فسر السيد الامام هذه الآيات الاربع من سورة الاعراف وقال إنها إنذار لأمة الدعوة المحمدية عربيا وعجميا من عصر النور الاعظم إلى يوم القيامة لتعتبر بما نزل بغيرها ، كما ترشد إليه الرابعة منها « قال » رحمه الله : قد كان ينبغي للمسلمين وهذا كتابهم من عند الله عز وجل أن يتقوه تعالى بانقاء كل ما قصه عليهم من ذنوب الأمم التي هلك بها من قبلهم ، وزال ملكهم ، ودالت بسببها الدولة لاعدائهم إذ بين لهم أن ذنوب الأمم لا تغفر كذنوب بعض الافراد ، وسنفته فيها لا تتبدل ولا تتحول ، ولكنهم قصرُوا أولا في تفسير أمثال هذه الآيات المبينة لهذه الحقائق ، ثم في وعظ الأمة بها ، وإنذارهم عاقبة الاعراض عنها ، وترك الاتماظ بتدبرها ، ومن يقرأ شيئا من تفسيرها فانما يعنى باعرابها ، والبحث في ألفاظها ، أو جدل المذاهب فيها ، ثم إنهم يحملون معانيها خاصة بالكافرين ، ويفسرون الكافرين بمن لا يسمون أنفسهم مسلمين ، « قال » وطالما أنكر علينا بعض ادعياء العلم والدين ، أننا جعلنا الآيات التي نزلت في الكفار شاملة لأهل الاسلام والايمان ، مأفوكين عن تدبرها المراد منها ، جاهلين للسنة العامة فيها ، وكذلك كان يقول أهل الكتاب من

قبلهم ، فظنوا كما ظنوا أن الله تعالى يحابي الأمم والأقوام لأجل رسلهم ، وأنه يعطيهم سعادة الدنيا والآخرة بمجاهم لا باتباعهم ، وقد راجت هذه العقائد في المسلمين ، وكانت تجارة « باسم الدين » للدجالين الضالين المضلين (فأرحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) اهـ

ومعنى إتيان الساعة بفترة ، مجيئها فجأة على حين غفلة ، من غير توقع ولا انتظار ، ولا إشعار ولا إنذار ؛ وقد تكرر هذا القول في التزويل ، وجاء في حديث أبي هريرة من الصحيحين ، واللفظ للبخاري « ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبها فلا يقبايمانها ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بدين قمته (الناقة ذئب اندر) فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وهو يليط حوضه - من الأظاه : طلا حجارتها بالطين أو غيره كالجص ليسك الماء ويحفظه - فلا يسقي فيه ، ولتقوم الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها » والمعنى أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معاشهم المعتادة فلا يشعرون إلا وقد أتتهم ، وقد قال تعالى في سورة الاعراف (١٨٧ : ٧ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل إنما علمها عند ربي ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بفترة ، يسألونك كأنك حفي عنها ، قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) قال السيد الامام في تفسيرها مبيناً الحكمة في إبهام أمر الساعة على الناس . وفيه إيذان بأن ما هو من شأن الرب لا يكون للعبد - أي وإن كان نبيا - فهو تعالى قد رباه ليسكون منذراً ومبشراً ، لا للاخبار عن الامور بأعيانها وأوقاتها ، والانداز إنما يناط بالاعلام بالساعة وأهوالها ، والنار وسلاسلها وأغلالها ، ولا تتم الفائدة منه إلا بإبهام وقتها ، ليخشى أهل كل زمن اتيانها فيه ، والاعلام بوقت إتيانها وتحديد تاريخها ينافي هذه الفائدة ، ثم قال : فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم ، وأن يحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم فيلتزموا فيها الحق ، ويتحرروا الخير ، ويتقوا الشرور والمعاصي ، ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدال ، والقبيل والقال . اهـ كلام السيد « قلت » ومن أراد اسقيفاء المباحث على الساعة أو القيامة للأفراد وللأمة

أو الدولة والعالم ، وما ورد في قرب الساعة ، والروايات في عمر الدنيا ونقدها ،
وتفنيد كلام السيوطي في عمر الدنيا ، ومخطئة المحققين له ، وكلام الامام ابن حزم
في جهل من حدده ، ثم تحقيق ماورد في أشرط الساعة وعلاماتها والبحث في
رواياتها ، وعللها وإشكالاتها وتمييز ماصحح من غيره فليراجع تفسير المنار ، فقد
أطال السيد الامام النفس في ذلك كله ، فراجعه فانك لا تظفر في غير تفسيره
. ثله (ج ٩ ص ٤٦١ — ٥٠٧)

١٠٨ ﴿ قل ﴾ يا رسول الله ﴿ هذه ﴾ الدعوة التي أدعو إليها ، والطريقة
التي أنا عليها ، من الدعاء إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له ، دون الآلهة
والاوثان ﴿ سبيلي ﴾ سبلي ومنهاجي ، وقال مقاتل : ديني ، والسبيل كأنظريق
يذكر وبؤنث ﴿ أدعو إلى الله ﴾ وحده لا شريك له ﴿ على بصيرة ﴾ يعين ،
والبصيرة هي المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل ، أدعو ﴿ أنا ومن اتبعني ﴾
أي ويدعو إليه أيضا من اتبعني وآمن بي وصدقني ﴿ وسبحان الله ﴾ أي تنزيها
لله وتعظيما له من أن يكون له شريك في ملكه ، أو معبود سواه في سلطانه ،
﴿ وما أنا من المشركين ﴾ أي وأنا بريء من أهل الشرك به لست منهم ولا
هم مني ، تعالى الله عن شرهم علوا كبيرا (تسبح له السموات السبع والارض
ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه
كان حلما غفورا) . دل قوله تعالى (على بصيرة) على مزية هذا الدين الخفيف ،
ونهجه الذي انفرد به ، وهو أنه لم يطلب التسليم لمجرد الادعاء بحكايته ، ولكنه
ادعى وبرهن ، وذكر مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل ،
واستنهض الفكر ، وعرض نظام الاكوان ، وما فيها من الاحكام والالتقان
على انظار العقول ، وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه
ودعا اليه (رسالة التوحيد)

نقل ناصر السنة البغوي عن عبد الله بن عباس (رض) أنه فسر قوله
تعالى (ومن اتبعني) قال : يعني أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة

وأقصد هداية ، معدن العلم ، وكنز الايمان ، وجند الرحمن ، وقال عبد الله بن مسعود : أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فانهم كانوا على الصراط المستقيم .

«أقول» بعد أن سمعت قول هذين الصحابين الجليلين ، تعال فانظر ما قاله في تفسير هذه الآية أشهر المفسرين المتكلمين الفخر الرازي «روح» فقد فسرها تفسيراً جعل به الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه من محترفي صناعة الكلام المبتدع ، والمشتغلين بعلم الاصول المستنبط المكتسب ، فقرأ وتعجب (قال) في (ج ٥ تفسير الرازي ص ١٧٢) وهذه الآية (قل هذه سبيلي) تدل على أن حرفة الكلام وعلم الاصول ، حرفة الانبياء عليهم السلام ، وأن الله ما بعثهم للخلق إلا لأجلها . «وأقول» لقد علم بالضرورة أن الانبياء عليهم السلام قد أوحى اليهم أنما الله إله واحد ، وقامت الآيات الحسية والعقلية في الآفاق وفي الانفس على أنه لا رب غيره ولا معبود سواه ، وجاءت الكتب الالهية كلها ناطقة بذلك ، وقد عرف بالاضطرار من دين الاسلام أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وهم خير الأمة لم يسلكوا طريق هؤلاء المتكلمين الذين أوجبوا النظر فيما ابتدعوه ، ولم يأخذوا معرفة الله سبحانه وتوحيده مما نصبه فلاسفة اليونان ومن دانوا ببدعتهم ، مما سموه الادلة العقلية ، والموازن الكلامية ، زاعمين أن قوانين المنطق هي القواعد العقلية ، وأن ما جاءت به الكتب ، وأخبرت به الرسل من صفات الله معدود من مثابه الكلام ، مصروف عن حقيقته . ولا شك أن أصحاب النبي ﷺ الذين هم صفوة هذه الأمة وخيارها ، المتبعون للرسول علماً وعملاً ، كانوا يدعون إلى النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والبراهين والادلة التي بعث الله بها رسوله ﷺ وإلى تدبر القرآن وما فيه من البيان ، والقرآن قوله سبحانه الذي جاء فيه (أفلم يدبروا القول ؟) فأين كانت هذه المذاهب الكلامية الجدلية ، التي تضاد صريح اللغة وفقه القرآن وأساليب البيان ، وحسبك

من إنحرافها أن جمهور المتكلمين من أهلها قد فسروا كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) التي هي ركن الدين وأساسه الأعظم بغير ما تدل عليه لغة وشرعا ، ومنهم الامام الرازي في مواضع من تفسيره : فهو يفسر لفظ (الله) بمعنى الخالق المدبر كما تجده في تفسير قوله تعالى (اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة) ولم تكن العرب تعتقد أن آلهتها قد خلقت شيئا من العالم ، أو تدبر أمرا من أموره ، بل كانوا يعرفون ويعترفون بأن الله تعالى وحده الخالق الرازق المحيي المدبر لجميع الأمور كما ثبت ذلك بنص القرآن العظيم قل تعالى (وثئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) وقال عزت كلمته (قل من يرزقكم من السماء والارض ، أمن يملك السمع والابصار ، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الامر ؟ فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ؟)

أما آلهتهم فقد كانوا يتقربون بعبادتهم إلى فاطر السموات والارض كما أخبر تعالى عنهم بقوله (ويمبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقال (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فجاءت كلمة التوحيد نلف ما يأنفكون ، وتنفي ما يثبتون ، فكلمة « لا إله » نفي لكل معبود في الوجود ، وإبطال لعبادته ، وكلمة « إلا الله » إثبات عبادة المعبود بحق وحده (ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل) إذاً فعنى كلمة « إله » في لغة العرب والقرآن هو المعبود بحق أو بغير حق ولفظ الجلالة « الله » علم على المعبود بحق وهو الله عز وجل وحده ، وبين تعالى أن من تفرد بالابحاد والامداد ، هو الذي يستحق العبادة دون غيره ، وأقام عليهم الحججة بما أقروه من توحيد الربوبية ، على ما أنكروه من توحيد الألوهية بعد أن فرغت من بيان ما في تلك العجيبة الجريئة التي جاءت في تفسير الفخر عن الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أوجه نظر القارىء الكريم إلى ما كتبه السيد الامام عليه الرحمة والرضوان في الامام الرازي وتفسيره الكبير وعلماء الكلام ومذاهبهم المتناقضة ، ثم رجوعهم عنها ، وهي القول الفصل في الموضوع ، وإني أخصها بما يلي : وأدع استيفاءها بطولها لمن يحب وهي في [ج ١١ ص

٣٧٣ - ٣٨٠] من تفسير المنار قال رحمه الله تحت عنوان ﴿ استطراد في المتكلمين وتفسير إمامهم الرازي ﴾ : « علم أن الفخر الرازي كان إمام نظار المتكلمين والاصوليين في عصره ، وإن علماء النظر اعترفوا له بهذه الامامة من بعده ، ولكنه كان من أقلهم حظا من علم السنة وآثار الصحابة والتابعين ، وأئمة السلف من المفسرين والمحدثين ، بل وصفه الخافظ الذهبي إمام علم الرجال في عصره بالجهل بالحديث ، فلم يجد التاج السبكي ما يدافع به عنه لأنه من أئمة الاشعرية الشافعية إلا الاعتراف بأنه لم يشتغل بهذا العلم وليس من أهله فلا معنى للطعن عليه بجهله ولا بد كرهه في رجاله المجروحين ولا العدول . أما علمه بالكلام فقد قال بعض العارفين في وصف كتابه « محصل أفكار المتقدمين والتأخرين ، من الفلاسفة والمتكلمين ما يثبتك بحقيقته عند المحققين وهو :

محصل في أصول الدين حاصله من بعد تحصيله علم بلا دين
 رأس النواية في العقل السقيم فإ فيه فأكثره وحى الشياطين
 ولشيخ الاسلام ابن تيمية مصنف مستقل في نقض ﴿ كتابه أساس
 التقديس ﴾ ثم قال : هذا وإن أكثر النظائر من المتكلمين قد رجعوا إلى مذهب السلف
 في الايمان بظاهر النصوص وفي مقدمتهم إمام الحرمين كما نقله عنه الخافظ ابن

(١) أقول : هذا الكتاب من نقائس المخطوطات الظاهرة بدمشق ، وهو يقع في بضع مجلدات ، ومعظمه مفرق في مجلدات « الكواكب الدراري في تبويب مسند الامام احمد على أبواب البخاري » للامام ابن عروة الدمشقي الحنبلي الذي رتب المسند على أبواب البخاري وشرحه في مائة وعشرين مجلدا ضخما ، قال السخاوي في الضوء اللامع : وطريقته فيه انه إذا جاء لحديث الافك مثلا يأخذ نسخة من شرحه للقاضي عياض فيضعها بتمامها ، وإذا مرت به مسألة فيها تصنيف مفرد لابن القيم او شيخه ابن تيمية او غيرها وضعه بآمه ، ويستوفي ذلك الباب من المغني لابن قدامة ونحوه اه

وفي دار الكتب الظاهرة منه الآن عشرات من المجلدات متفرقة ، تبحث في التفسير والحديث والسيرة والأصول والتاريخ والأدب وغير ذلك ، وكان ابن عروة زاهدا عابدا قائما لا يقبل لأحد شيئا ولا يأكل إلا من كسب يده . توفي سنة ٨٣٧ رحمه الله وإيانا . وكتبه محمد بهجت البيطار

حجر في شرحه للبخاري [من كتاب التوحيد] ومن قبله والده الامام الجويني الذي نقل السبكي في ترجمته أن علماء عصره قالوا لو بعث الله تعالى نبيا في هذا العصر لكان الجويني ، ومن بعدهما أبو حامد الغزالي في آخر عمره ، ونقل مثل هذا عن الفخر الرازي أيضا ، رحمهم الله ورحمنا ، وعفا عنهم وعنا ، وقد صرح الغزالي من قبل رجوعه إلى مذهب السلف أن علم الكلام ليس من علوم الدين ، وإنما هو لحراسة العقيدة كالحرس للحاج ، « وأقول » إنما راجت كتبته في عصرهم لأنها وضعت للرد على ملاحدهم ومبتدعيهم ، ولا تنفع في الرد على ملاحدة هذا العصر ولا مبتدعيه كما بيناه مراراً وأما تلقين المسلمين أنفسهم للعقائد وقواعد الاسلام فيجب أن يعتمد فيها على آيات القرآن والمأثور في الاحاديث وسيرة الصحابة وعلماء التابعين وأئمة الهدى قبل ظهور البدع ، من أكبر الضلال أن يعتمد فيها على أقوال المتكلمين ، فتجمل أصلاً ترد اليها آيات القرآن المبين ،
إيثاراً لبيانهم على بيانه

﴿ الدعوة الى الله على بصيرة ﴾

كان السيد الامام رحمه الله تعالى أنشأ بمصر جمعية ومدرسة دعاها باسم ﴿ دار الدعوة والارشاد ﴾ تحقيقاً للعمل بهذه الآية الكريمة وهي الدعوة إلى الله على بصيرة ، ولتجديد شباب الامة وإعادة سلطان الاسلام ، وتربية طائفة من المعلمين لذلك كله يكونون ذكراً للسلف الصالح علماء وعملاً واعتقاداً ، مزودين بقوى هذا العصر وحقائقه ، وسعة علومه ومعارفه ، ومجدين هداية القرآن العليا ، محيين السنة النبوية المثلى ، هدفهم الاسمي إصلاح آخر هذه الامة بما أصلح أولها وقد كان من سوء حظ المسلمين أن قضت الحرب العامة على هذه المؤسسة الوحيدة من نوعها

ولسكن نظام المدرسة مطبوع ، وفيه بيان العلوم والفنون التي تدرس في قسم الدعاة والمرشدين ، والطريقة الاصلاحية لتدريسها ، وفق الله الامة لتجديد هذا المعهد الديني ، وإعادة المصور الذهبية للاسلام

١٠٩ ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى اليهم ﴾ هو رد لقولهم (لوشاء ربنا لأنزل ملائكة) أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، وهذا القول عن ابن عباس يؤيده قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين ، إلا إنهم ليأكلون الطعام ويشون في الاسواق) الآية وقوله تعالى (وما جعلناهم بشرآ ليأكلون الطعام وما كانوا خالدين) وقوله تعالى (قل ما كنت بدءآ من الرسل) الآية
قال السيد الامام : هذه الشبهة شبهة كونهم بشرآ ، قد ذكرت في سور كثيرة عند الكلام على رسالة الرسل كالاعراف وإبراهيم والنحل والكهف والانبيا والشعراء وبس والتغابن ، وذكرت في بعض السور بلفظ رجل بدل بشر كقوله تعالى في أول سورة يونس (أكلن للناس عجبا ان أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس) وهذا في نبينا ﷺ ومثله عن أول من كذبوا الرسل وهم قوم نوح قال تعالى في قصته من سورة الاعراف (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) ويليه حكاية مثل ذلك عن هود مع قومه (آية ٦٧)

هذه الشبهة على الرسالة وهي كون الرسول بشرآ مثل المرسل اليهم لم تدعم بحجة ، ولم تؤيد برهان ، بل هي باطلة بالبداهة ، لأنها تقييد لمشيئة المرسل وقدرته وهو الفعال لما يريد (يختص برحمته من يشاء) وقد كان أولئك المشتهبون مؤمنين بقدرته التامة ، ومشيئته العامة ، بل كون الرسول إلى البشر بشرآ مثلهم يفهمون أقواله ويتأسون بأفعاله هو المعقول الذي تقتضيه الفطرة وطبيعة الاجتماع ولكن الاوهام الجهلية تقلب الحقائق ، وتمكس القضايا اه

وقال الحافظ ابن كثير : يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول جمهور العلماء ، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ، أي ان الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات آدم وحي تشرية ، وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات ، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب وبقوله (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) الآية وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه

السلام ، وبقوله تعالى (إذقات الملائكة يامریم إن الله اصطفك لشوطهك واصطفاك على نساء العالمین ، يامریم اقتني لربك واسجدی وارکمی مع الراکمین) وهذا القدر حاصل لمن ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك ، فان أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف ، فهذا لاشك فيه اه

« أفول » : وإنما كان وحي التشرييع خاصا بالرجال دون النساء ، لان للمرأة من نظمها الفطري واختصاصها المنزلي ، ما يعوقها عن توفية الرسالة الالهية حقها والقيام حق القيام بتلقيها وتبليغها ، ومن أكبر موانعها الفطرية الحمل والولادة وحضانه الاعمال وتربيتهم وتدبير المنزل وإدارة شؤنه ، وقد اقتضت طبيعة الانوثة أن تسقط الشريعة عن النساء الصلاة زمن الحيض والنفاس ، ووجوب الجماعة والجمعة والعيدین ، وخصت الرجال بالقتال وحماية الديار والدفاع عن الحق بالقوة ، وحكمة هذا التخصيص وعلته طبيعة كل من الذكر والأنثى ، ونظام فطرته التي فطره الله عليها (لا تبديل لخلق الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون) على أن انقبام بأعباء الرسالة فوق ذلك كله ، والله يصطفي من خلقه ويختص برحمته من يشاء فيجعله من أنبيائه ورسله (ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله) وقوله تعالى ﴿ من أهل القرى ﴾ أي من أهل الامصار دون أهل البوادي ، والقرى جمع قرية وهي الموضع الذي فيه الناس ، والمراد بالقرى المدن الجامعة لعظما الاله ورؤسائها ، وإنما كل الرسل يبعثون من أهل المدن الكبرى وفيهم لان سائر البلدان واله ادى تنعمهم إذا آمنوا ﴿ أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ أي أفلم يسيروا هؤلاء المقيمون على شركهم الله ، المسكذبون رسوله من قريش في البلاد ، فانهم أهل سفر الى اليمن والشام رحلتهم في الشتاء والصيف فينظروا فيما وطئوا من البلاد الى وقائمه فيمن

أوقعنا به من الأمم قبلهم ، ويروا ما أحلنا بهم من بأسنا ، بتكذيبهم ورسنا ،
 وجحودهم آياتنا ، أفلم يسبوا في الأرض فينظروا كيف كان عقبي تكذيبهم
 فيمتبروا ﴿ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ؟ ﴾ هذا خبر مؤكد
 بلام القسم يفيد أن نعيم الآخرة ليس كنعيم الدنيا بل هو مما يقصده العاقل
 لفوائده ومنافعه الثابتة الدائمة . وأن تلك الدار للذين اتقوا الشرك والشروع
 المحرمة ، وآمنوا بالرسول واتبعوه ، خير من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث
 المكذبين للرسول ، الذين لاحظ لهم من حياتهم إلا التمتع الذي هو من قبيل اللعب
 في قصر مدته ، وعدم فائدته — دع ما يستلزمه من المعاصي المفضية الى عذاب
 الآخرة — ذلك بأن نعيم الآخرة البدني أعلى وأكمل من نعيم الدنيا في ذاته ،
 وفي دوامه وثباته ، وفي كونه إيجابياً لا سلبياً ، وفي كونه غير مشوب ولا منغص
 بشيء من الآلام ، وفي كونه لا يعقبه ثقل ولا مرض ، ولا إزالة أقدار ، فما
 القول بنعيمها الروحاني ، من لقاء الله ورضوانه ، وكل معرفة لمعبر عنه برؤيته ؟
 أتفعلون فلا تعقلون هذا الفرق أيها المكذبون بالآخرة ؟ أما لو عقلمت لا منتم ؟
 وإضافة « الدار » الى الآخرة ، من إضافة الصفة للموصوف لمغايرتها له ، ولا
 نزاع بين النحاة في وقوع مثل هذا في الكلام العربي ، وحسبك وروده في
 الكتاب العزيز ، ومثله قوله تعالى (ان هذا هو حق اليقين) ويقول : أتيتك عام
 الاول ويوم الخميس . قرىء « تعقلون » بالتاء والياء

ثم بين تعالى : نشيئاً لفؤاده عليه الصلاة والسلام أن العاقبة لرسله كما قال
 تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) وقال (انا لننصر رسنا والذين آمنوا)
 وأن نصره يأتيهم اذا تمادى المبطلون في تكذيبهم ، فقال سبحانه :

(١١٠) حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلَ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا
جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ
(١١١) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُنْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَتَّصِلُ كُلِّ
شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

١١٠ ﴿ حتى إذا استقباس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا
فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ قال الامام ابن جرير في
وجه اتصال الآية بما سبقها : يقول تعالى ذكره (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا
نوحى اليهم من أهل القرى) فدعوا من أرسلنا اليهم فكذبوهم وردوا ما أتوا
به من عند الله ، حتى إذا استقباس الرسل الذين أرسلناهم اليهم منهم ، أن يؤمنوا
بالله ويصدقوهم فيما أتوهم به من عند الله ، وظن الذين أرسلناهم اليهم من الامم
المكذبة ، أن الرسل الذين أرسلناهم اليهم قد كذبوهم فيما كانوا أحبروهم عن
الله من وعده إياهم نصرهم عليهم ، جاءهم نصرنا اه

وتلك سنته تعالى في الاقوام ، يرسل اليهم رسلا بالبينات ، ويؤيدهم بالمعجزات
حتى إذا عرضوا عن الهداية ، وعاندوا رسل ربهم ، وامتدت مدة كيدهم
وعدوانهم ، واشتد البلاء على الرسل صلوات الله عليهم حتى يستشعروا القنوط
من تمادى التكذيب ، وتراخي النصر ، جاءهم نصر الله فجاءه ، وأخذ المكذبين
العذاب بغتة ، كالطوفان الذي أغرق قوم نوح ، ولريح التي أهلكت عاداً قوم
هود ، والصبغة التي أخذت ثمود ، والعذاب الذي هلك به الثمود الذي حاول
إحراق إبراهيم ، والخسف الذي نزل بقري قوم لوط وهم فيها (ألم يأتهم نبأ
الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم اراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات
أتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) والمراد

تذكير قوم النبي ﷺ بأن سنته تعالى في عبادة واحدة ، لا ظلم فيها ولا محاباة ، وأنهم إن لم يتوبوا وينبئوا إلى ربهم حل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل ، كما قال في سورة القمر (أ كفاركم خير من أولئكم أم لكم براة في الزبر) وقد نصر الله نبيه ﷺ في غزوة بدر وما بعدها من الغزوات ، وأهلك الجاحدين المعاندين من قومه .

قرأ عاصم وحزرة والكسائي كذبوا (بالتخفيف وكسر الذال) والباقون بالتشديد ، قال الامام الرازي : ومعنى التخفيف من وجهين (أحدهما) أن الظن واقع بالقوم ، أي حتى إذا استبأس الرسل من إيمان القوم ، فظن القوم أن الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر ، فإن قيل : لم يجر فيما سبق ذكر المرسل إليهم ، فكيف يحسن عود هذا الضمير إليهم ؟ قلنا ذكر الرسل يدل على المرسل إليهم ، وإن شئت قلت إن ذكرهم جرى في قوله (أفلم يسيرا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) فيكون الضمير عائداً إلى الذين من قبلهم من مكذبي لرسول ، والظن ههنا بمعنى التوهم والحسبان (والوجه الثاني) أن يكون المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كذبوا فيما وعدوا : وهذا التأويل منقول عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنه (قالوا) وإنما كان ذلك لاجل ضعف البشرية ، إلا أنه بعيد ، لان المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب بل يخرج بذلك عن الايمان ، فكيف يجوز مثله على الرسل ؟

وأما قراءة التشديد ففيها وجهان (الاول) أن الظن بمعنى اليقين، أي وأيقنوا أن الامم كذبوهم تكديباً لا بصدر منهم (معه) الايمان بعد ذلك ، فحينئذ دعوا عليهم ، فهناك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال ، وورود الظن بمعنى العلم كثير في القرآن قال تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) أي يتيقنون ذلك (والثاني) أن يكون الظن بمعنى الحسبان والتقدير حتى إذا استبأس الرسل من إيمان قومهم ، فظن الرسل أن الذين آمنوهم كذبوهم ، وهذا التأويل منقول عن عائشة (رض) وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية روى ابن أبي مليكة عن ابن عباس (رض) أنه قال : وظن الرسل أنهم كذبوا لانهم كانوا بشراً ،

ألا ترى الى قوله (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟) قال
 فذكرت ذلك لعائشة «رض» فأنكرته وقالت : ما وعد الله محمداً صلوات الله عليه وآله شيئاً
 إلا وقد علم أنه سيوفيه ، ولكن البلاء لم يزل بالانبياء حتى خافوا من أن يكذبهم
 الذين كانوا قد آمنوا بهم ، وهذا الرد والتأويل في غاية الحسن من عائشة اه
 «أقول» وقد أخرجه البخاري بسنده عن عائشة «رض» قالت لابن أختها
 عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى (حتى إذا استأنس الرسل) هم
 أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عليهم
 النصر ، حتى إذا استأنس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن
 أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك . وأما ماروي عن ابن عباس ومثله
 عن ابن مسعود رضي الله عنهما من أن المعنى أن الرسل ظنوا أنهم كذبوا فيما
 وعدوا فهو مخائف لما رواه آخرون عنهما . أما ابن عباس فقد روى الاعمش عن
 مسلم عن ابن عباس في قوله (حتى إذا استأنس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا)
 قال : لما أبست الرسل أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم
 جاءهم النصر على ذلك (فنجى من نشاء) ، وكذا روى عن سعيد بن جبير ،
 وعمران بن الحارث السلمي ، وعبد الرحمن بن معاوية ، وعلي بن أبي طلحة ،
 والعوفي عن ابن عباس بمثله . وأما ابن مسعود فقد روى ابن جرير عنه بسنده
 اليه قال (حتى إذا استأنس الرسل) من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم ، وظن قومهم
 حين أبطأ الامر أنهم قد كذبوا « بالتخفيف »

فها تان روايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس ، وقد أنكرت ذلك عائشة
 على من فسرها بذلك ، وانتصر لها ابن جرير ، ووجه المشهور عن الجمهور ، وزيف
 القول الآخر بالكلية ورده وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه (١) (فنجى من نشاء) أي
 فنجى الرسل ومن آمن بهم من أقوامهم ، لأنهم بحسب مشيئته ، وسنته تعالى في
 عباده وحكمته ، هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم ، بما يختارون من التوحيد

(١) انظر ابن كثير في تفسير الآية

على الشرك ، ومن الخير على الشر . قرىء فننجي « بالتخفيف والتشديد » من أنجاه ونجاه و (فنجى) على لفظ الماضي المبني للمفعول ، وقرأ ابن محيصن (فنجا) (ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) أي ولا يمنع عقابنا ويطشنا بمن بطشنا به من أهل الكفر بنا عن القوم الذين أجزموا فكفروا بالله وخالفوا رسله وما أتوهم به من عنده ، وتلك سنة الله في رسله مع أمم الدعوة ، يبلغونهم الرسالة ، ويقومون عليهم الحججة ، وينذرونهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب فيؤمن المهتدون ويصر المعاندون فينجي الله الرسل ومن آمن من أقوامهم ويهلك المكذبين

قال السيد الامام : إصابة الناس في المكاره والشدائد عتابا لهم على جرائم ارتكبوها قد يكون رحمة بهم ، وقد يكون عبرة وموعظة لغيرهم ، وهذا من سنن الله تعالى المطردة في الاقوام والامم ، وإن لم يطرد في الافراد لقصر أعمارهم ، ولذلك قال (عن القوم المجرمين) ولم يقل عن المجرمين . ثم ختم سبحانه هذه القصة والسورة بقوله :

١١١ ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب ﴾ تقدم تفسير القصص في هذه السورة ، وأنه مصدر أو اسم من قص الخبر إذا حدث به على أصح الوجوه وأصدقها ، لانه من قص الاثر أو اقتصه إذا تتبعه وأحاط به خبرا ، ويجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول ، فيكون القصص بمعنى المقصود من الاخبار والاحاديث ، والمراد من (قصصهم) قصة يوسف عليه السلام وأبيه وإخوته ، ومنهم من قال قصص الرسل ، وأيده بقراءة (قصصهم) بكسر القاف ، وكلا الوجهين صحيح ، والاعتبار والعبرة : الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد ، والمراد منه التأمل والتفكير . قال الراغب : وأصل العبر تجاوز من حال إلى حال ، فأما العبور فيختص بتجاوز الماء إما بسباحة أو في سفينة أو على بعير أو قنطرة ، ومنه عبر النهر لجانبه حيث يعبر اليه أو منه ، ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إنجاء يوسف بعد إلقائه في الحب ، وإعلائه بعد وضعه في السجن ، وتخليكه مصر بعد أن بيع ببيع العبد بالتمن الخسيس ، والتمكين له في الارض من بعد ذلك الأسار والحبس الطويل ، وإعزازه على من بغاه سوءاً من اخوته ، وجمع

شملة بأبويه وبهم على ما أحب بعد المدة الطويلة ، والمجيب بهم من الشفة النائية البعيدة . إن الذي قدر على ذلك كله أيها الفاس لقادر على إعزاز محمد ﷺ ، وإعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، فيخرجه من بين أظهركم ، ثم يظهره عليكم ، ويمكن له في البلاد ، ويؤيده بالجند والرجال ، والأتباع والأصحاب ، وإن مرت به شدائد ، وأنت دونه الأيام والليالي والحوادث ، ثم انه تعالى ذكر هذه القصة - كما ذكر قصص الرسل مع أقوامهم - لما فيها من العبرة ، والدلالة على الحكمة والقدرة ، وإنما قال (لأولي الألباب) وهم أصحاب العقول الراجحة ، لأن أهل البصيرة والروية من العقلاء هم الذين يعتبرون بعواقب الامور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها ، بعد التأمل في حقيقتها وصفاتها ، وأما الاغرار الغافلون ، والظالمون المعاندون ، فلا يبرنون عقولهم على الاستقلال في النظر ، والاعتبار بما جرى على الافراد والامم ، فلا يفيدهم النصيح والتذكير ، ولا سوء العاقبة والمصير

﴿ ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي ما كان هذا القرآن أو القصص حديثاً يخلق ويكذب ، لأن هذا النوع من القصص الذي أعجز حملة الاحاديث ورواة الاخبار ، ممن لم يطالع الكتب ، ولم يخالط العلماء ، دليل ظاهر ، وبرهان قاهر ، على أنه بطريق الوحي والتنزيل ، ولهذا قال : (ولكن) كان (تصديق الذي بين يديه) أي من الكتب السماوية ، التي أنزلها الله قبله على أنبيائه كالتوراة والانجيل والزيور ، أي تصديق ما عندهم من الحق في هاتيك الكتب ، لا كل الذي عندهم ، والا لدخل في ذلك عنائدهم الفاسدة ، وأوهامهم وخرافاتهم ، مما جاء القرآن لازالته ومحوه ويستحيل أن يكون مصدقاً لما جاءه لا بطلاله ، فنتبه لذلك ولا تسكن من الغافلين ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ أي من أمر الله ونهيه ، ووعده ووعيدته ، والاخبار عن الرب تبارك وتعالى بأسمائه الحسنی ، وصفاته العليا ، وتنزهه عن مماثلة مخلوقاته ، وفيه العظات والعبر بقصص الرسل مع أقوامهم وسائر ما بالعباد اليه حاجة

قال السيد الامام رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى : (ولقد جشاهم بكتاب

فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) أي ولقد جئنا هؤلاء الناس بكتاب
عظيم الشأن ، كامل البيان ، وهو القرآن ، فصلنا آياته تفصيلا على علم منا بما يحتاج
إليه المكلفون من العلم والعمل ، وتزكية أنفسهم ، وتكميل فطرتهم ، وسعادتهم
في معاشهم ومعادهم ، حال كونه أو لأجل أن يكون بذلك منار هداية عامة ،
وسبب رحمة خاصة ، لقوم يؤمنون به إيمان إذعان ، يبعث على العمل بما أمر به
والإنتهاء عما نهى عنه ، وهو بهذا التفصيل العلمي حجة على من لا يؤمنون به إذا
لم يهتدوا به ، ولم يرضوا لأنفسهم أن تكون أهل لرحمته ، وقال (التفصيل) عبارة
عن جعل الحقائق والمسائل المراد ببيانها مفصلا بعضها من بعض ، بما يزيل
الاشتباه واختلاط بعضها ببعض في الأفهام ، وليس معناه ذكر كل نوع منها على
حدته ، ولا التطويل ببيان جميع فروعها ، ففي القرآن تفصيل كل شيء يحتاج إليه
في أمر ديننا . أسهب حيث ينبغي الإسهاب ، وأوجز حيث يكفي الإيجاز . فالقرآن
فيه تفصيل للحق في العقائد ، بالحجج والدلائل ، وفي الفضائل والآداب وأصول
الشريعة وأمهاة الأحكام ، بما تصلح به أمور البشر ، وشؤون الاجتماع ،
﴿ وهدى ﴾ كامل لمن تدبره وتلاه حق تلاوته ، فانه يجذبه ببيانه وبلاغته الى
الحق الذي قرره ، وعمل الخير والصلاح الذي بين فوائده ومنافعه ﴿ ورحمة لقوم
يؤمنون ﴾ عامة للمؤمنين الذين تنتشر فيهم هدايته ، وتنفذ فيهم شريعته ، فهو رحمة
لهم في الدنيا والآخرة جميعا . وأما الخاضعون لأحكام الشريعة من غير المؤمنين به
فانهم يكونون آمنين في ظلها على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، أحرار في عقائدهم
وعباداتهم ، مساوين للمؤمنين بها في حقوقهم ومعاملاتهم ، عاتشين في وسط خال
من الفواحش والمنكرات ، التي تفسد الاخلاق ، وتولد الامراض ^(١)

أقول انهم يشاركون المؤمنين في هذه العيشة الرضية ، والحياة الخالية من
كل شائبة ، فليت دعاة النصرانية المبشرين ، الذين يسعون لتفصير مسلمي

الارض ، ويبغون زوال القرآن من الوجود ، ليتهم يعلمون أن أمة القرآن التي
دانت به ، وأذعنّت لحكمه ، ولم تلتفت الى شيء غيره ، قد آمنت عن طريقه
وحده بكل ماقص عليها من حال الرسل مع أقوامهم ، وما فصل لها من معجزاتهم
وآياتهم ، وأن هذا القرآن الذي تولى الله حفظه ، وجعله تبياناً لكل شيء (وهدى
ورحمة لقوم يؤمنون) لو زال لا قدر الله تعالى من الارض ، فان أمته لا تؤمن
لأحد بعده بنبوة ولا رسالة ، ولا تعتقد بنزول وحى من السماء ، على أحد من
الانبياء ، فإيمانهم بالقرآن إيمان بسائر كتب الله ، وتصديقهم بخاتم النبيين تصديق
لسائر رسل الله (لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

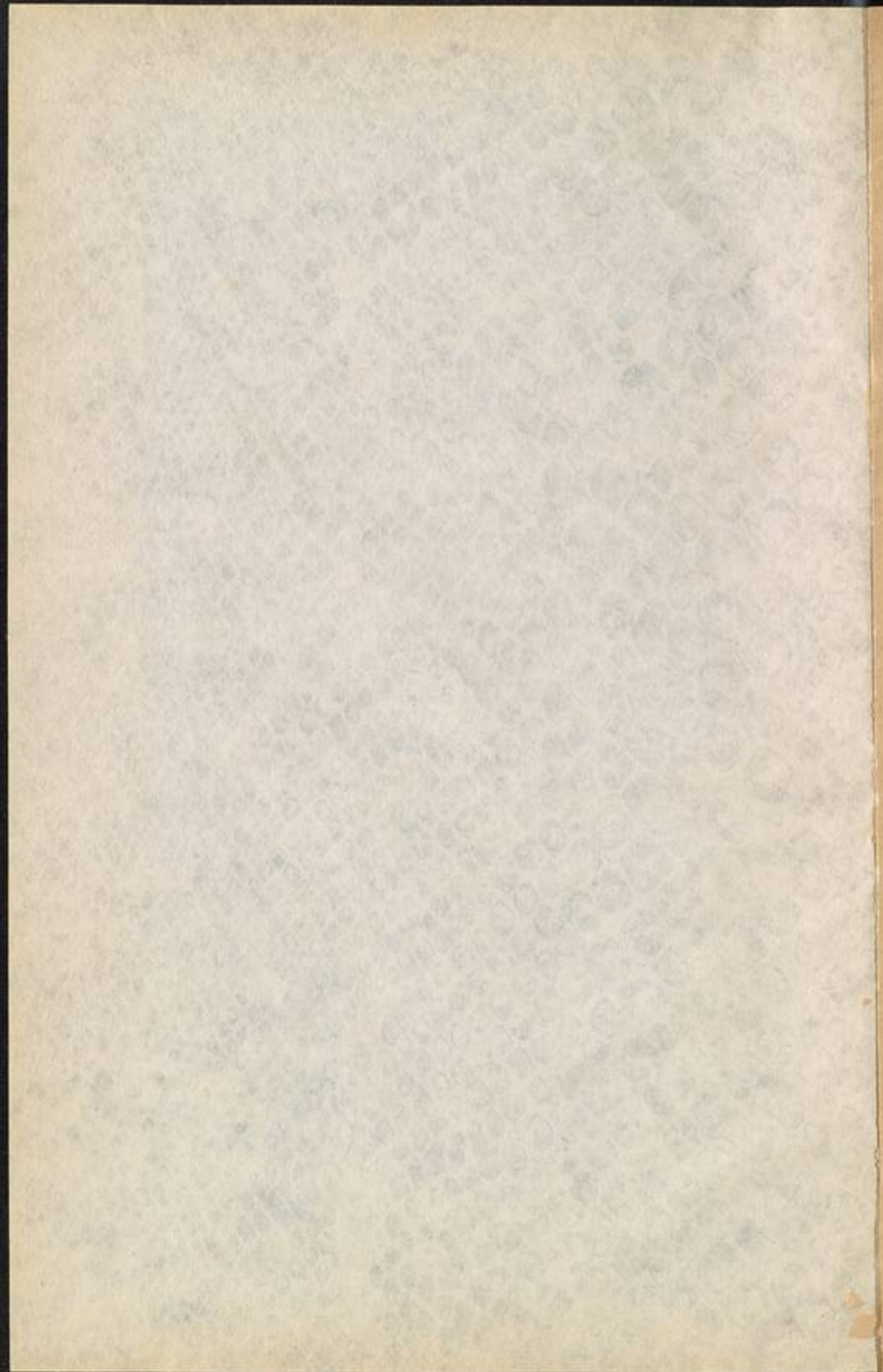
يقول الضعيف محمد بهجت ابن الشيخ محمد بهاء الدين آل البيطار الدمشقي
هذا آخر تنمة تفسير السيد الامام، لسورة يوسف عليه السلام
وقد وردت فيها على زآخر بحره وعلقت عليها من نفائس
لآليه ودره ، فرحم الله السيد الامام ، وجدد بمناره
وتفسيره عهد العروبة والاسلام ، وكتب في
ذي الحجة وتم في المحرم الحرام سنة ١٣٥٥ .
وسلام على المرسلين والحمد لله
رب العالمين

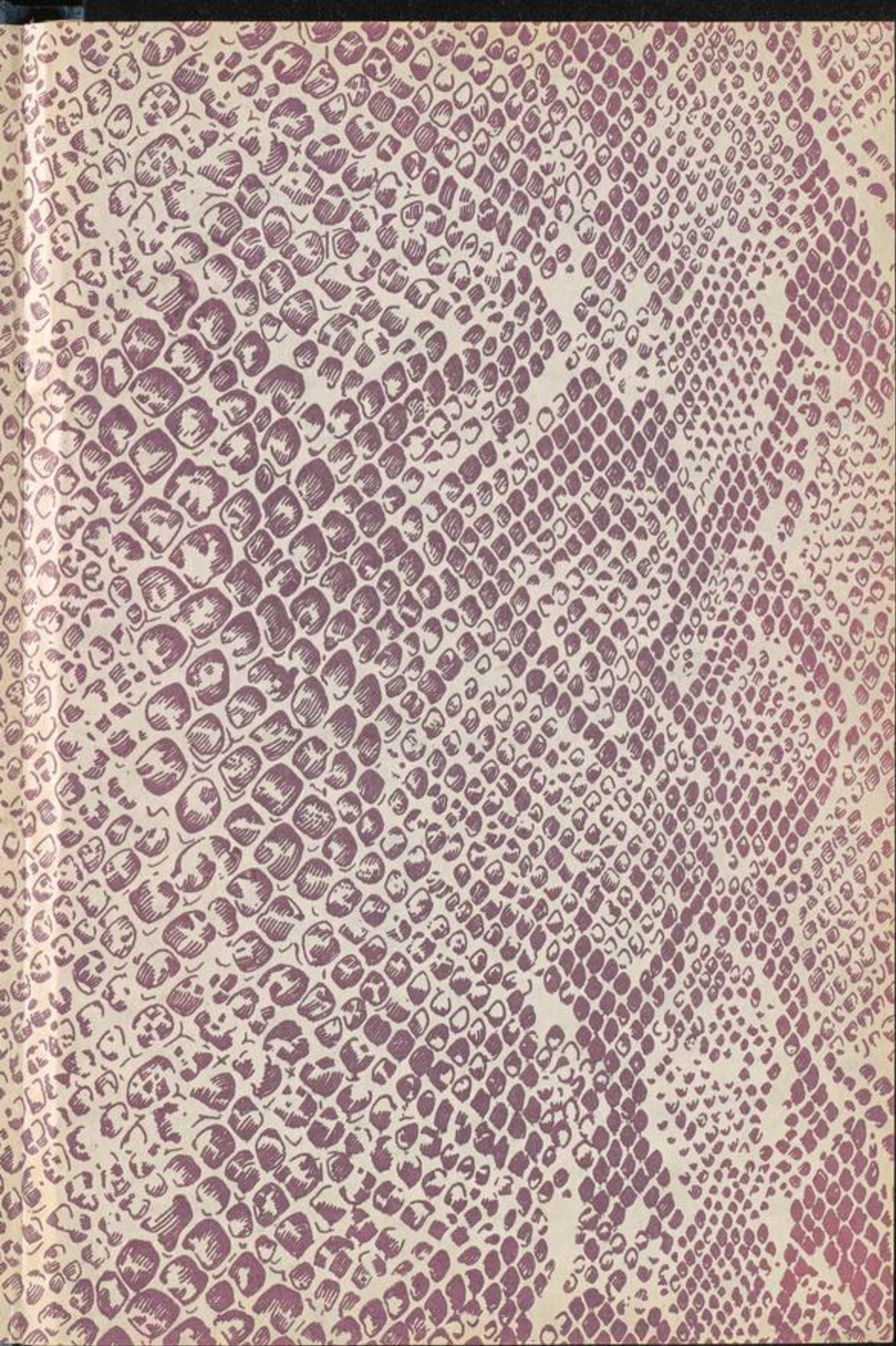
فهرس تفسير سورة يوسف

٢٦	بلوغ الاشد وسنة الله في جزاء المحسنين وإيتاء العلم والحكم	٣	انزال القرآن عربيا وحكمته
٢٧	مسألة المراودة والهلم والمطاردة	٤	كون القرآن أحسن القصص وحال النبي قبله
٢٨	مرادتها عن نفسه ودعوته إلى نفسها وردها مستعيذاً بالله	٥	رؤيا يوسف عليه السلام
٢٩	احتجاجه عليها في رده وهمها بضر به	٦	نهي يعقوب ليوسف عن قص رؤياه على إخوته
٣٠	لاحتقاره لها فيه	٧	ما فهمه يعقوب من رؤيا يوسف وحسن مستقبله
٣١	همها وما رأى من برهان ربه صرفه تعالى عنه السوء والفحشاء لانه من عباده المخلصين	٨	آتمام نعمة الله على يوسف وآل يعقوب
٣٢	رأي الجمهور في همت به وهمها وبيان بطلانه	٩	قصة يوسف بعد مقدمتين لها في غايتها والمراد منها
٣٣	تعارض قوى النفس ووجدانها وغلب أقواها	١٠	أسلوب القرآن في قصة يوسف الآيات الظاهرة والباطنة للسائلين من قصة يوسف
٣٤	الامتناع من طاعة الشهوة بالوازع النفسي	١١	حسد إخوة يوسف وتضليل أبيه على حبه له واشقيقه
٣٥	بطلان همت به بالوقوع	١٢	انتهار إخوة يوسف بقتله أو إبعاده
٣٦	رد قول الجمهور في تفسير همها وهمها (ع م)	١٣	اجماعهم على إلقائه في الجب ليلتقطه بعض السيارة
٣٧	الدلائل على بطلان تفسير همها بالوقوع	١٤	احتياهم على أبيهم ليرسل يوسف معهم
٣٨	انتهامها الميهم ليوسف ومكرها فيه	١٥	حزن يعقوب لذهاب إخوة يوسف به وخوفه عليه
٣٩	آيات تحقيق زوجها في القضية كيد النسوان والشيطان وما خاطب به العزيز يوسف وامرأته	١٦	إلقاؤه في الجب وما أوحاه الله إليه وبكاؤهم وكذبهم على أبيهم فيه
٤٠	حادثة النسوة ويوسف مع امرأة العزيز	١٨	رواية قصة يوسف في سفر التكوين
٤١	عدل النسوة لها وحكمهن عليها بالضللال	٢٠	إخراج السيارة ليوسف واتخاذها بضاعة وبيعه بثمن بخس
٤٢	مكراً وخداعاً	٢٢	حادثة يوسف مع امرأة العزيز
٤٣	كبار النسوة ليوسف وتقطيع أيديهن وقولهن ما هذا شراً	٢٣	تمكين الله وتعليمه وغلبه على أمره وإيتاؤه حكماً وعلماً
٤٤	إقامة حجتها وإدلائها بمذرها	٢٥	أقرارها بمرادته وشهادتها بمصمته
٤٥	أقرارها بمرادته وشهادتها بمصمته		

٧٢	طلب الملك ليوسف وتمكثه بالاجابة	٤٨	تهديدها له على عصيانه بالسجن والصغار
	شهادة النسوة ببراءة يوسف وقرار		تأثير المرأة ذات الجمال والمنصب في
٧٤	سيدته بمرادتها له	٥٠	استمالة الرجل
٧٦	خلاصة العبرة بعفة يوسف وعشق زليخا		اكد النساء والشيطان لا منجاة منه
	التقاء الملك ويوسف وتأثير كلامه	٥١	إلا بحفظ الرحمن
٧٩	في الثقة به	٥٢	الآيات التي رأوها فحملتهم على سجنه
	أهم الصفات التي مكن الله بها ليوسف		حكاية امرأة العزيز مع يوسف في
٨١	في الارض	٥٤	سفر التكوين
	أجر المحسنين الخاص بهم في الدنيا	٥٥	سيرة يوسف في السجن
٨٢	والآخرة		سؤاله عن تأويل الرؤيا ووصفه
	بجىء إخوة يوسف مصر واكرامه	٥٦	بالاحسان
٨٣	ليامهم وهم مجهولون	٥٧	معجزته الانباء بالغيب وعقيدته التوحيد
	رجوعهم إلى أبيهم ومطالبته بارسال	٥٨	توحيده وآبائه وعصمتهم من الشرك
٨٦	بنيامين معهم	٥٩	الدعوة الى التوحيد الخالص ببرهانه
	وصية يعقوب لاولاده بالدخول من		عبادة المشركين لآسماء وضعوها
٨٩	أبواب متفرقة	٦٠	ما أنزل الله بها من سلطان
	توكل يعقوب على الله وحده مع		الحكم في الدين لله وحده وأمره
٩٠	الاخذ بالاسباب	٦١	بتوحيده
٩١	حاجة يعقوب التي قضاها بوصيته لاولاده		جهل كثير من مسلمي العصر لتوحيد
	قول المفسرين إن يعقوب قصد وقاية	٦٢	القرآن
٩٢	أولاده من العين	٦٣	أصول الدين الثلاث في دعوة يوسف
٩٤	إبواء يوسف أخاء اليه وتعريفه بنفسه	٦٤	تأويله لمنامي صاحبي السجن وقتواها لها
٩٥	خبر تلاقيه وشقيقه في سفر التكوين		وصيته للتناجي بذكره للملك وليته
٩٧	التأذين في العير باتهامهم بالسرقة	٦٥	في السجن بضع سنين
	الكيد الالهي ليوسف في أخذ أخيه		رؤيا ملك مصر وتأويل يوسف لها
٩٩	ليس حيلة منه	٦٨	بالقول والفعل
	استعظافهم العزيز لياخذ أحدهم مكان	٦٩	أضغاث الاحلام والرؤى الصحيحة
١٠٢	بنيامين واستيثاقهم من ذلك		تذكر الساقى وذكره ليوسف وارساله
	شهادتهم بسرقة بنيامين لا ييهمم وارتيابه	٧٠	اليه واستفتاؤه له
١٠٥	فيهم		تأويل رؤيا ملك مصر بالعمل
١٠٦	ايضاض عيني يعقوب من الحزن	٧١	الواجب فيه

النبى ومن قبله من الرسل لم يسألوا	عدل اولاد يعقوب له على المهبج بذكر
١٣٤ أقوامهم أجرأ على التبليغ	١٠٧ يوسف
١٣٧ التنقل فى تعظيم الصالحين الى عبادتهم	١٠٨ شكوى يعقوب بثه وحزنه الى الله
١٣٨ بيان الحق فى التوسل للخلافة المشهور	١٠٩ نهى يعقوب بنيه عن اليأس من روح الله
١٣٩ حقوق الرسل ليست من أعمال	١١٢ تعرفه لاختوته وبلاغة ما قال لهم
التوسل الذى يستحق عليها الجزاء	١١٣ فهمنا وفهم الزمخشرى ومقلديه لكلمة
١٤٠ الدارين واحد وحكمته واحدة	يوسف
١٤٢ ابهام أمر الساعة وايمانها بغتة وحكمته	سنة الله فى نجاح المتقين الصابرين
١٤٣ تفسير ابن عباس (رض) لآية (قل	١١٥ وجزاء المحسنين
هذه سبيلي)	١١٦ اعترافهم بخطاياهم وعفوه واستغفاره لهم
١٤٤ تفسير ابن مسعود للآية	١١٧ ارسال قبضه لايه ليوضع على وجهه
١٤٦ تفسير الرازى لآية (قل هذه سبيلي)	١١٧ فيعود بصيراً
ومناقشته فيه	١١٩ ارتداد يعقوب بصيراً إذ وضع على
١٤٧ رجوع أئمة المتكلمين إلى مذاهب	وجهه القميص
السلف	رائحة الارواح عند أهلها الروحانيين
١٤٨ الحكمة فى كون الرسل رجالا لا ملائكة	١٢٠ وجوه الفهم لكلمة : لاني لا أجد
١٤٩ وجه اتصال آية (حتى إذا استنأس	ريح يوسف
الرسل) بما قبلها	١٢١ فهم المؤول والمفوض واللغوي والصوفي
١٥١ تفسير الرازى (وظنوا أنهم قد كذبوا)	١٢٢ للمسألة
١٥٢ بالتخفيف والتشديد	١٢٣ شم الصوفية رائحة الارواح
١٥٣ ما فسرت الآية به عائشة وابن عباس	١٢٦ خاتمة قصة يوسف وتأويل رؤياه
١٥٤ وابن مسعود وغيرهم (رض)	١٢٧ دخول اخوة يوسف وآله عليه وابواء
١٥٥ سنن الله تعالى المطردة فى الأمم دون	ابويه اليه
١٥٦ الافراد لقصر أعمارهم	١٢٧ اغتباط يوسف بتأويل رؤياه بالفعل
١٥٧ ما فى هذه القصص من العبرة	١٢٨ لآييه
١٥٨ والدلالة على الحكمة والقدرة	١٢٩ شكره لله على عاقبة ما ابتلى به وحمده
١٥٩ معنى تفصيل آيات القرآن الحكيم	بلطفه وعمله وحكمته
١٦٠ لسكل شيء	١٣٠ دعاء يوسف بجن الخاتمة
١٦١ خاتمة تفسير سورة يوسف (م.ع)	١٣١ كون قصة يوسف وحياء من أنباء الغيب
١٦٢ (تم الفهرس)	١٣٢ دلالة « على نبوة محمد (ص)
	١٣٣ دقة القرآن فى الحكم على الأمم والشعوب





BP
130.4
.R5

FEB 18 1969

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU55313531

BP130.4 .R5

Talsir Surat Yusuf /